هرمان هسه

بيتر كامينتزند

رواية

ترجمة: أسامة منزلجي



حوار

- بيتر كامينتزيند
- رواية
- هرمان هسه
- ترجمة: أسامة منزلجي
- الطبعة الأولى: 1999.

- دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ أشرفية صحنايا ـ هاتف: 6713079

ص.ب: 32105

هرمـان هسـه

بيتر كامينتزيند

ترجمة: أسامة منزلجي

1

في البدء كانت الأسطورة. وكما بلّغ رب العالمين ذات مرة رسالته من خلال أرواح الهندوس، والإغريق والتيوتونيين، ما زال يعبِّر عن حبه في كل يوم في روح كل طفل وليد.

في تلك الحقبة من حياتي لم أكن أعرف أسماء البحيرة، والجبال والغدران في مسقط رأسي. لكني كنت أشاهد المياه الخضراء المزرقّة المتدفقة تتلألأ بقبسات من الضوء تحت أشعة الشمس وأيضاً، على شكل حزام ضيق حولها، الجبال الشاهقة التي امتلأت أخاديدها بالثلوج البراقة في أعلى ذراها، ومساقط مياه صغيرة، وعند السفح، المروج المنحدرة الآهلة بالبساتين وقطعان الماشية الألبيّة الرمادية اللون. ولما كان قلبي الصغير الغر شديد النقاء والهدوء، مترعاً بالآمال، خطّتْ أرواحُ البحيرة والجبال إنجازاتها الرائعة والمثيرة عليه. وكانت الجروف والمنحدرات الصخرية العنيدة تحدّثه بمزيج من الرهبة والتحدي عن أزمان هم أبناؤها ويحملون ندوبها. تحدثوا عن الماضي حين مادت الأرض، وهي تئن من الألم، وتفجرت وتناثرت وولدت ذرى الجبال وقممها ولادة عسيرة من رحمها المعذّب. واندفعت جدران من الصخر تشمخ عالياً تدمدم وتطقطق ولا تني تنفلق لتغدو قمم جبال؛ وكافحتْ قمتان توأمان كفاحاً مستميتاً للفوز بحيّزٍ لهما إلى أن تعالت إحداهما منتصرة، مهشمة أختها

ومُقصية إياها. وتدلّت هنا وهناك جروف صخرية عديدة عالياً في الصدوع يعود عهدها إلى تلك الأحقاب، وجدران صخرية انفلقت وتمزقت؛ وعند كل ذوبان للثلوج، كانت المياه المتدفقة تنهمر على جلاميد ضخمة كل منها بحجم منزل، وتشظّيها كالزجاج أو تحملها معها لا تجد منها مقاومة إلى المروج السحيقة، الوديعة.

هذه الجبال الجبلية الشاهقة كانت دائماً تسرد الحكاية نفسها. وعندما يرى المرء جدرانها الشديدة الانحدار ذات طبقات الصخر، والجروف المشوهة أو المفتتة، وكل منها مملوء بشقوق فاغرة، فمن السهل أن يفهمها. كأنها تقول: «لقد عانينا صنوف الرعب العصي على الوصف، وما زلنا نعاني». غير أن أصواتها كانت فخورة وصارمة، وكانت تتكلم بتحفّظ المحاربين القدامى، الذين لا يُقهرون.

إنها من المحاربين ولا ريب. رأيتها تصارع المياه والعواصف في ليالي أوائل الربيع المتجهمة عندما تهدر رياح الفون Fohn الغاضبة حول ذراها الشائبة وتكسِّر التيارات المندفعة قطعاً جديدة، خشنة، من جوانبها. وتراها شامخة في تلك الليالي وجذورها متشبثة بعناد. قاتمة، لاهثة، متجهمة. تواجه العاصفة بجدران جروفها وبذُراها، تستجمع كل ما لديها من قوة وهي ترصُّ صفوفها بتحدٍ. ومع كل جرح تتلقاه يُسمع زئير حنقها وخوفها الرهيب، وأنينها المريع يُرجِّعه الصدى، متكسراً وغاضباً، حتى من خلال الانهيالات النائية.

وشاهدتُ مروجاً ومنحدرات وصدوعاً ملأتها تربة مغطاة بما نما عليها من عشب، وزهور، وسرخس وطحالب، خلعتْ عليها اللغة المحلية القديمة أسماءً غريبة تثير مكنونات الذاكرة

وأشـجان القلـب. كأنـها أطفـال الجبـال وأحفادهـا ملوَّنـة ولا تحمـل همـاً. شعـرتُ بـها، تفحصتـها، شممـت عطرهـا وتعلمـت أسماءهـا. وقـد تـرك مشـهد الأشـجار لـديَّ أبلـغ الأثـر وأعمقـه. تـأملتُ كلاً منها بما تتصف من حياة مستقلة، متخذة شكلها الخاص، وملقية بظلها المتفرِّد. إن لهذه المستوطنات والمحاريات علاقة وطيدة مع الجبال، خاصة تلك التي نمت في مواقع أكثر علـواً مـن الجبـل، لأن علـى كـل منـها أن تثـابر علـى كفاحـها الصـامت، الشـاق، للبقـاء، والنمـو رغمـاً عـن الريـاح، وطبيعـة الطقس والصخور. وعلى كل منـها أن تتحمل عبأهـا، وتتشبث بقوة، وتكتسب بذلك فرادتها وندوبها الخاصة. وكـانت هنـالك أشـجار صنوبـر اسـكتلندية تسـببت العواصـف في قصـر نمـو أغصانـها علـى جـانب واحـد منـها، وأشـجار تلـوت جذوعـها الحمراء كالأفاعي والتفت حول صخور ناتئة، بحيث أضحت الشجرة والصخرة مضغوطتين معاً ومتشابكتين في عناق محكم. كانت تحدِّق إليَّ كما الجنود، وتبثُّ الرهبة والاحترام في قلبي.

كـان رجالنـا ونسـاؤنا يشـبهونهم، صلبـين، متضـامِّين وشـحيحي الكـلام. وأشـدهم شـحاً في الكـلام أفضلـهم. وهكـذا تعلمـت أن أنظـر إليـهم كأشـجار وصخـور، أن أفكـر فيـهم وأحترمهم تماماً كما أحب أشجار الصنوبر الهادئة.

تقع قريتنـا الصغيرة، نيميكون، على ضفـاف البحيرة على منحدر مثلث الشكل، يطوقها من كلا جنبيها نتوءان صخريـان. وهنـاك درب يؤدي إلى دير قريب، وآخر إلى قرية جبلية مجاورة، تبعد بمقدار أربع ساعـات ونصف من السير على القدمـين. أمـا القـرى الأخـرى، الـتي تحـف بالبحـيرة، فيتـم الوصـول إليـها بالقـارب. وبيوتنـا مبنيـة على الطـراز الخشبي القديـم، ولا يبـدو

عليها عمر معين؛ ونادرا ما تُنشأ أبنية جديدة، والأكواخ القديمة تُرمَّم تدريجياً، حسب ما يتطلب الأمر. ففي أحد الأعوام ترمَّم الأرضية، وفي آخر جزء من السقف. وكثير من أنصاف الروافد الخشبية والأكواخ الخشبية، والتي كانت في السابق تخص الجدار، أصبحت تعمل عوارض تدعم الأرضية أو السقف، وعندما لا تصلح لأن تخدم هذا الهدف وتكون أجود من أن تستخدم كوقود للنار فإنها تستعمل في ترميم الطاولة أو الحظيرة، أو لاحقاً لصنع رتاجات للأبواب، والسكان يكابدون المصير نفسه، فكل منهم يؤدي دوره ما دام قادرا، ومن ثم ينسحب على مضض لينضم إلى فئة "العجزة" وأخيرا يتجاهله الجميع، ويغيب في النسيان. والرجل الذي يعود إلينا بعد غياب طويل من الخارج يجد أن لا شيء قد تغير، فيما عدا بضعة سقوف قديمة جُدِّدت وأخرى جديدة ظهر عليها القِدَم. والذين كانوا عجائز أيام طفولته غابوا عن المكان، ولكن هناك عجائز ما زالوا يقطنون الأكواخ ذاتها، ويحملون الأسماء ذاتها، ويُراعون الأطفال السود الشعور ذاتهم، ولا يكاد يميز في وجوههم وقسماتهم أولئك الذين غيَّبهم الموت.

إن ما كان يحتاج إليه مجتمعنا هو مورد أكثر تزويدا بالحياة الجديدة والدم الشاب من الخارج. والسكان، الأقوياء النشطون، كانت غالباً ما تربط بينهم صلة القرابة، وثلاثة أرباعهم يحملون الاسم نفسه، كامينتزيند. فهو يملأ صفحات سجل الأبرشية، ومحفور على شواهد القبور، ويمكن تمييزه مكتوباً أو محفورا بلا إتقان على المنازل ويُقرأ أيضاً على العربات، ودلاء الإسطبل وقوارب البحيرة. وفوق باب بيت والدي الأمامي أيضاً كُتبت الكلمات التالية: «بنى هذا البيت

يوست وفارنتزيسكا كامينتزيند»، وهي لا تشير إلى والدي بل إلى أحد أسلافه، هو جدي الأكبر، وعندما سأموت أنا أيضاً حتى وإن لم أنجب أطفالاً، يمكنني أن أكون واثقاً من أن شخصاً آخر باسم كامينتزيند سيشغل المكان القديم شريطة أن يكون له سقف وما يزال قائماً.

على الرغم من الاتساق الظاهري، إلا أنه كان بيننا في القرية الطيب والشرير، الكريم المنشأ والوضيع، والمشهور والعادي من الناس. وجنباً إلى جنب مع العديد من السكان الأذكياء استشرتْ أقليةٌ مسلّية من الحمقى، وهم، طبعاً، غير بلهاء القرية. وهنا، كما في أي مكان آخر، وُجد عالم مصغّر؛ ولما كانت سعة الأفق والتفاهة، والبارع والأحمق يمتزجون ويتهاجنون بقوة لا تنفصم، فلم يكن غريباً أن نكتشف أن الإباء المفرط والطيش التافه يعيشان تحت سقف واحد، بحيث أن حياتنا كانت تزوِّد الجانب الجاد والهازل من الطبيعة الإنسانية بمدى رحب. غير أن ستاراً دائماً من القلق اللا واعي أو الخفي كان يخيم عليها. وقد ولَّدَ الاعتماد على قوى الطبيعة بالإضافة إلى بؤس حياةٍ قوامها العمل الشاق الذي لا يعرف الراحة، وعلى امتداد السنين، ولَّدَ عند ذريتنا الهرمة ميلاً إلى الكآبة، التي، على الرغم من ملاءمتها وجوهنا الخشنة والقاسية الملامح، فشلت في أن تؤتي ثمارها أو على الأقل ينتج عنها أي شيء مقبول. لهذا رحبنا بوجود انتشار الحمقى الذين كانوا، بدون أدنى شك، هادئين وجادين بما فيه الكفاية، لكنهم أضفوا لمسة من لون ومنفساً للضحك والسخرية. فكلما وقعت حادثة أو عمل طائش يثير الأقاويل حول أحدهم، عَبَرتْ ومضةٌ من مرح على وجوه سكان قرية نيميكون المتغضنة، وكان إحساسه

بالتفوق الذاتي يزيد من حدة المزاح، ويزداد احتجاجه لأنه يرى أنه فوق مثل تلك السقطات والانحرافات. وكان والدي ينتمي إلى الأغلبيّة، أي إلى أولئك الذين لا هم مستقيمون ولا خطاة وتواقون إلى أن ينعموا بأي مساهمة من أي فريق من الطرفين. وكان كل أذى يُدبَّر يملأه بقلق ورع، وكان من المسلي مشاهدته وهو يتخذ مساراً متردداً بين احترامه للمحرِّض ووعيه الواثق ببراءته الخاصة.

أما خالي كونراد فكان ينتمي إلى "الحمقى"، وإن كان حتماً لا يقل ذكاءً عن أبي وبقية الأبطال. والحقيقة هي أنه كان خبيثاً ماكراً، مفعماً بروح الابتكار القلقة، كان جديراً بالآخرين أن يحسدوه سراً عليها. ومع ذلك، لم تكن أموره تسير سيراً حسناً. وكونه لم يسمح للإحساس بالخجل بالسيطرة عليه، وبتسبيب الحزن العقيم له، بل كان دائماً يباشر مشروعاً جديداً، مبيناً بذلك إعجابه المدهش للجانب المضحك المبكي لمشاريعه، يمكن اعتباره بدون أدنى شك مزية فيه؛ إلا أنه نُسِب إلى غرابة أطواره المضحكة ولم تكسبه غير مكان بين مهرجي المجتمع غير المأجورين. وتناوبت علاقة أبي معه ما بين الازدراء والإعجاب. وكان كل مشروع من مشاريع أخ زوجته تحرض فضوله وإثارته الشديدين اللتين حاول أن يحجبهما خلف أسئلة وتلميحات ساخرة ماكرة. فإذا ما اقتنع خالي بنجاحه وبدأ يصطنع الكبرياء، سمح والدي لنفسه أن ينساق عاطفياً، واشترك مع العبقري، بروح من الحب الأخوي والوجداني، إلى أن تحل الكارثة المحتومة التي لم يكن خالي يبالي بها في حين يأخذ والدي، الذي استبد به الغضب، يصب جام إهاناته

ولعناته عليه، ويرفض أن يتفضّل عليه بكلمة أو بنظرة واحدة على مدى أشهر عديدة.

كانت قريتنا تدين لكونراد بمرأى أول قارب شراعي، وقد عانى قارب والدي الصغير ذو المجذافين جراء ذلك. فقد اعتمد خالي في تنفيذ الشراع والتجهيزات التي أتقن صنعها على صور مطبوعة بالحفر على التقويم، ولم يكن ذنبه أن قاربنا الصغير كان يفتقر كثيراً إلى العرض اللازم لحمل الشراع. واستمرت الاستعدادات أسابيع طويلة؛ وكان والدي في حالة قلق عارم نتيجة مروره بفترات متوالية من الإثارة، والأمل والخشية، وحتى بين سكان القرية كان مشروع كونراد هو الحديث الوحيد الدائر. وكان ذاك الصباح من أواخر الصيف برياحه العاتية، عندما انطلق القارب في رحلته البكر، لا يُنسى. واحتجب والدي عن الحضور، وقد ملأته نُذُر الكارثة، وقد انزعجت كثيراً أيضاً لأنه رفض أن يسمح لي أن أنضم إلى الرحلة. وكان ابن فوسلي، الخباز، هو الوحيد الذي سمح له بمرافقة البحار الخبير. لكن القرية كلها وقفت على أرضنا المحصبة وفي حديقتنا لتشهد المنظر الرائع. وكانت تهب على البحيرة ريح شرقية مواتية. لذا كان على ابن الخباز أولاً أن يجدّف إلى أن يتلقى الشارع النسيم، ويملأه، ومن ثم ينساب القارب متقدماً بشموخ. ورحنا نراقبه، يملأنا الإعجاب، وهو يختفي خلف أقرب نتوء جبلي وتهيأت لأمنح خالي الماهر استقبال المنتصر في رحلة عودته وأن أبدي ندمي على ما أبديناه من شكوك غادرة، سابقة. ولكن عندما عاد القارب، ليلاً، كان قد فقد شراعه وكان "الطاقم" أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وكان ابن الخباز، بين نوبات الغمغمة، يقول: «لقد فاتتكم متعة عظمى؛ كدتم تحصلون على

بضعة مواكب جنائزية ليوم الأحد القادم!». واضطر أبي إلى استبدال لوحين من الخشب في القارب، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً لم يخرج أي قارب ليلهو على سطح مياه بحيرتنا الزرقاء. وظل أهل القرية فترة طويلة بعد ذلك كلما بدا كونراد في عجلة من أمره، يهتفون له قائلين: «أنشر أشرعتك، يا كونرادا!». وكظم والدي غيظه وظل أمداً طويلاً يشيح بنظره بعيداً كلما قابل أخا زوجته البائس ويبصق كتعبير عن امتعاضه. واستمر هذا الوضع إلى أن ناقش معه ذات يوم فكرة إنشاء فرن مضاد للنار؛ مشروع جلب على رأس المخترع سخرية متواصلة وكلف والدي أربعة تاليرات. وويلٌ لكل من يجرؤ على تذكيره بحادثة التاليرات الأربع. وبعد ذلك بفترة طويلة، عندما ظهرت، مرة أخرى، أزمة مالية جديدة في المنزل، علقت والدتي في سياق الحديث، معبرة عن حسرتها على المال الذي بددناه تبديداً إجرامياً وكنا أولى به. فاحتقن وجه والدي لكنه تمالك نفسه واكتفى بالقول: «ليتني سفحته كله في يوم أحد».

تم الإعلان عن نهاية فصل الشتاء بهبوب رياح الفون الدافئة، مصحوبة بالهدير المروع الذي يسمعه قاطن جبال الألب فيرتعد خوفاً ورعباً إلا أنه لا يني يتوق إليها عندما يبتعد عن أرض الوطن. وكان في استطاعة الرجال والنساء، والجبال، والطير والحيوان، أن يستبينوا حضور رياح الفون قبل وصولها بعدة ساعات. وكان وصولها، الذي تذيعه عادة هبات عاصفة مصقعة تندفع من الاتجاه المقابل، يعلنه هدير عميق، قوي. وسرعان ما يتحول لون ماء البحيرة الأخضر المزرق إلى حبري أسود، وترتفع فجأة أمواج بيضاء، سريعة. والبحيرة التي كانت لتوها هادئة ويلفها السكون، إذا بها تزأر في وجه الشطآن كبحر

غاضب. وفي الوقت نفسه ينكمش المشهد العام كله رعباً، عندئذ يصبح في الإمكان إحصاء عدد النتوءات الصخرية فوق ذرى الجبال التي كانت قبل قليل تريض متأملة في المدى النائي، ويتاح لنا أن نميز في القرى التي كانت قبلاً تبدو أشبه بنقاط بنية، سقوف المنازل، وقبابها، ونوافذها. ويبدو كل شيء وقد انطوى على نفسه ـ الجبال، المروج، المنازل ـ كقطيع من الماشية أصابه الرعب. ثم يبدأ هدير مكتوم؛ وترتجُّ وتندفع أمواج تجلِدُ امتدادات واسعة من الفضاء كالسوط تشبه الدخان وتضجُّ المعركة اليائسة الناشبة بين العاصفة والجبل دون توقف في آذاننا؛ خاصة خلال الليل. بعيد ذلك، ينتشر خبر في أنحاء القرية عن فيضانات أنهار، ودمار بيوت، وتحطم قوارب، وعن فقدان آباء وأخوة.

في أيام الطفولة كنت أخاف رياح الفون؛ بل كنت أكرهها. ولكن مع انبلاج فجر جموحي المراهق، أخذ يتنامى حبي لهذه المتمردة، هذه المقاتلة المتغطرسة، الشابة دائماً؛ نذيرة فصل الشتاء. كان رائعاً رؤيتها تباشر سيرة حياتها المجنونة، مفعمة بالحياة، تضج بالحماس، والحيوية والأمل، تغضب، تضحك، تئن، تعصف في الأخاديد، تسوط الثلج عن الجبال، تحني قامات أشجار الصنوبر، العجوز الخشنة بيديها القويتين، وتنتزع الآهات الحرة منها. وفي مرحلة لاحقة تعمق حبي لها، وبعدها أصبحتُ أرحِّب برياح الفون الجنوب العذب، الجميل، المترف، الذي يفيض بلا انقطاع بالدفء والجمال ويندفع بقوة بين الجبال، حتى ينتهي به الأمر إلى النزف، إنهاكاً، حتى الموت وسط برد سهول الشمال. ولا شيء أشد غرابة وأنفس من فرط نشاط رياح الفون الرقيقة التي تغمر سكان الجبال، خاصة

النساء منهم، وتسرق النوم من عيونهم، وتفتن أحاسيسهم كلها. إنه الجنوب يندفع بكل حرارته وعنفه نحو قلب الشمال، الأشد فقراً، والعنيد، معلناً لقرى جبال الألب المكسوة بالثلوج أن زهور الربيع، والنرجس وأشجار اللوز قد أزهرت من جديد على شواطئ البحيرات الإيطالية الأرجوانية القريبة. وعندما هبت رياح الفون أزاحت الجلاميد الوسخة، كان أبهى وقت في الفصل قد حل فعلاً، وكنت ترى على كل جانب المروج بأزاهيرها الصفراء اللون تمتد حتى تصل إلى الجبال؛ وتقف الذرى المتوجة بالثلوج وأنهار الجليد نقية، راضية. ويصبح لون البحيرة أزرق ومياهها دافئة وتعكس أشعة الشمس ومواكب الغيوم.

الأحداث الطبيعية هذه كلها يمكن أن تملأ أيام عهد الطفولة بل ومدى العمر، إذا لزم الأمر. ذلك أنها تعلن جهاراً وبدون توقف رسالة الله كما لم تخرج قط من بين شفتي إنسان. ومن كان قد سمعها خلال فترة طفولته يظل يسمعها طوال باقي حياته، عذبة، قوية، مخيفة، وأبداً لا تفقد سحرها. وإذا كان المرء مواطناً من الجبال، يمكنه أن يدرس الفلسفة أو التاريخ الطبيعي طوال سنين عديدة ويلغي الإله القديم، ولكن عندما يشعر المرء باقتراب رياح الفون من جديد أو يسمع تكسُّر جلمود خلال الدغل، يخفق قلبه بقوة في صدره وتتوجه أفكاره نحو التأمل في الله وفي الموت.

كوخ والدي يجاور حديقة صغيرة، مسيَّجة، ينمو فيها الخس المرّ، والجزر، والقرنبيط. إضافة إلى ذلك كانت أمي قد أعدت مسكب زهور صغير بشكل مؤثر زرعت فيه وردتين صينيتين، وأضاليا وحفنة من البُليحاء العطرية، ذبلت ووهنت حتى لم يعد يُرجى منها أمل. وإلى جوار حديقتنا كانت بقعة

أرض محصبة أصغر حجماً تمتد حتى تصل إلى البحيرة. وهنا يقف برميلان مكسوران، وبعض أكواخ الخشب وعيدان سياج، ويرسو في الأسفل في المياه زورقنا البنط[1]، الذي كان في تلك الأيام يُرمَّم ويُجلفَط[2] مرة كل بضع سنين. ولا زالت الأيام التي كانت خلالها هذه العمليات تُجرى ثابتة بقوة في ذاكرتي، أويقات دافئة من أوائل فصل الصيف؛ حين ترفرف فوق الحديقة في أشعة الشمس فراشات صفراء، وتكون صفحة مياه البحيرة ملساء ناعمة، وزرقاء اللون وساكنة، ترسل ألوانها المتقزحة بنعومة، وقد لفت قمم الجبال غلالة رقيقة من الضباب وتفوح من البقعة المحصبة الصغيرة رائحة قطران ودهان قوية. وحتى بعد ذلك، يظل القارب يفوح بقوة برائحة القطران طوال فصل الصيف. وبعد مرور عدة سنوات، كنت كلما شممتُ رائحة القطران والماء المميزة هذه وأنا على شاطئ البحر، تمتثل على الفور في مخيلتي بقعتنا المحصبة الصغيرة وصورة والدي، مرتدياً قميصه، يعمل بجد بفرشاة الدهان، والدخان الأزرق يتلوى متصاعداً من غليونه في هواء الصيف الساكن، والفراشات الصفراء النشطة تقوم بمحاولاتها المتقلقلة، الخجولة للطيران. في مثل تلك الأيام كان والدي يبدو في حالة غير عادية من اعتدال المزاج ويصفر ارتعاشات نغمية كان يتقنها، بل كان حتى يندمج في حالة وَجْد قصيرة من الغناء بصوت جهوري عال، كأنما لنفسه. وفي تلك الأثناء، تقوم أمي بطبخ وجبة لذيذة لتقدمها على مائدة العشاء، متمنية في

---

[1] البنط: قارب يشبه إلى حد بعيد قارب الغندول المعروف.

[2] يجلفط: تُشد حزوز القارب وشقوقه.

سرها، في اعتقادي، أن يحجم زوجها عن التردد على الحانة في ذاك المساء. إلا أنه كان يذهب مع ذلك.

لا يمكنني أن أدعي أن والديَّ كان لهما تأثير إيجابي أو سلبي على تطور شخصيتي الشابة. كانت والدتي دائماً مشغولة بالعمل، ولم يكن هناك في العالم كله أقل إثارة لاهتمام أبي من تنشئة أطفاله. لقد كان لديه ما يكفي من العمل للعناية بحفنة أشجار الفاكهة البائسة، ورعاية حقل البطاطا الصغير والسهر على محصول التبن. إلا أنه أحياناً، وقبل أن يخرج للسهر، كان يقودني من يدي بصمت إلى العلّية الكائنة فوق الاسطبل، وهناك كان يجري طقس غريب من العقاب والتكفير. كنت أتلقى جلداً مبرحاً بدون أن يعرف أي منا دواعيه الدقيقة. لقد كانت أضحيات صامتة تُقدَّم على مذبح نمسيس[1] إجلالاً لقوة سرية، ولم يكن يصحبها أي تعنيف منه أو أي شكوى مني. وفي سنوات لاحقة، عندما كنت أسمع الناس يتحدثون عن "القدر الأعمى"، أستعيد ذكرى تلك المشاهدات الغامضة، وتبدو لي تجسيداً مادياً لذاك المفهوم. لقد كان والدي الطيب يتبع، بلا وعي منه، تعاليم الحياة البسيطة، عندما تصيبنا بعاصفة رعدية، وتتركنا لنتسائل ما الآثام التي ارتكبناها استجلبت علينا غضب آلهة الأعالي.

لسوء الحظ نادراً ما خطر ببالي هذا التساؤل. فغالباً ما كنت أقبل كل عقوبة تنزل بي، أو أستسلم لها أو حتى أستاء منها، بدون أن أجري الفحص الذاتي المتوقع مني، وكنت أشعر بارتياح فائض في مثل تلك الأمسيات لأني مرة أخرى دفعت

---

[1] نمسيس: إلاهة الانتقام عند الإغريق.

ضريبتي وأستطيع أن أستمتع بفترة بضعة أسابيع من الراحة في تلقي العقوبة. لقد تبينتُ موقفاً أكثر استقلالاً بكثير من جهود والدي لإقناعي بالعمل. وقد رأت الطبيعة الخصبة الغامضة أن من المناسب أن تُجمع خاصتين متناقضتين في شخصي ـ قوة جسد خارقة مع نفور شديد من العمل. وبذل والدي جهوداً مضنية ليجعل مني ابناً مفيداً ويداً مساعدة له، لكني لجأت إلى كل ذريعة ممكنة لأتجنب المهام المفروضة عليّ، وعندما كنت ما أزال تلميذاً في المدرسة لم أكن أعتبر أن في العصور القديمة بطلاً يستحق أن أنظر إليه بعين العطف غير هرقل، لأنه كان يؤدي أعماله الشهيرة والشاقة قسراً. أما متعتي الكبرى فكانت التسكع بين الصخور والمروج أو على ضفاف الأنهار. والجبال والبحيرة والعاصفة والشمس، كانوا هم أفراد عائلتي؛ كانوا يتحدثون إليّ ويساهمون في تربيتي؛ وظلوا ردحاً طويلاً من الزمن الأعزّ والأقرب إلى قلبي من أي كائن بشري أو مصير بشري. ولكن ما أحببته أكثر من أي شيء آخر، حتى أكثر من المياه الرقراقة، وأشجار الصنوبر الحزينة والصخور المغتسلة بأشعة الشمس، فالغيوم.

دُلَّني على إنسان واحد في العالم الرحب كله يحب الغيوم أكثر مني! أرني شيئاً يفوقها جمالاً! إنها روح المرح، وغضب السماء وسلطان الموت؛ إنها راحة للعين، ونعمة وهبة من الله، رقيقة، ومطواعة، ولطيفة، كأرواح الأطفال المولودين حديثاً. وهي جميلة، ومترفة وخصبة كالملائكة الرحيمة؛ ورصينة، ومحتومة ولا تعرف الرحمة كرُسل الموت. تنساب كخصل فضية، تتابع إبحارها، بيضاء، كتل مرحة محددة بالذهب، معلقة بتوازن ومشوية بألوان الأصفر والأحمر والأزرق. تنزلق

ببطء مكفهرة كتلّة من القتلة؛ تندفع بفوضى كخيالة مجانين، تتلكأ حزينة متأملة فوق الأعالي الشاحبة كنسّاك كئيبين. إنها تتخذ أشكال الجزر المباركة وملائكة حارسة، وأيد مهدِّدة، وأشرعة خفّاقة، وكراكي محلِّقة. إنها ترتحل ما بين سماء الله وأرضنا المسكينة كصور ممجَّدة لكل توق الإنسان، وتنتمي إلى كليهما. إنها أحلام الأرض تشق روحها الملطخة خلالها طريقها إلى السماء الصافية في الأعالي. إنها الرمز السرمدي لكل ترحال، وبحثٍ، وتوق إلى الوطن، وكالمعلَّقين، الجبناء، ولكن المتحدِّين والتواقين إلى الماضي بين السماء والأرض، كذلك أرواح الكائنات البشرية التي تشاركها المشاعر نفسها معلقة بين الزمن والأبدية.

آه يا لجمال الغيوم المنسابة، القلقة! لقد كنتُ طفلاً جاهلاً لكني أحببتها وتأملتها، غير مدرك أني أنا أيضاً سوف أعبر الحياة كغيمة، أتجول، غريباً أينما اتجهت، أطفو بين الزمن والأبدية. ومنذ أيام عهد الطفولة، وهي أعز أصدقائي وأخواتي. إنني لا أستطيع حتى أن أقطع الطريق بدون أن أتبادل معها التحية ونتريث برهة يحدق كل منا إلى الآخر. ولا نسيت قط ما تعلمته عندئذ؛ قسماتها، أشكالها، ألوانها، ألعابها ومزاحها؛ وحكاياها الغريبة، بخيالها الجامح. وأذكر أكثر ما أذكر أميرة الثلج التي تقع منصَّتها على الجبال الدنيا في أوائل الشتاء، بين التيارات الهوائية التحتية الدافئة. وتظهر أميرة الثلج مع عدد قليل من أفراد حاشيتها، تهبط من الأعالي الشاهقة، وتروح تبحث عن مكان لأخذ قسط من الراحة في أغوار جبلية نائية أو فوق قمة فسيحة. وترى رياح الشمال المضللة، ينهشها الحسد، الحسناء البريئة مستلقية لترتاح،

ويجيش شبق سري في صدر الجبل، وفجأة ينقضُّ عليها غاضباً وحانقاً ويرمي بعنف في وجه الأميرة الجميلة مُزَقاً من السحب السوداء ويعمل على إبعادها. وتضطرب الأميرة برهة، وتنتظر بصبر، وغالباً ترتقي عائدة إلى أعاليها، وهي تهز رأسها بسخرية لطيفة. إلا أنها أيضاً كثيرا ما تجمع وصيفاتها الخائفات حولها، وتكشف عن محياها الملكي المبهر وتلوح بيدها بجراءة مبعدة الروح الشريرة. فتتردد وتعوي ثم تفر مبتعدة، فتستلقي بهدوء، وتحجب عرشها عن الأنظار بضباب أبيض، وبعد تلاشي الضباب تتكشف الوديان وقمم الجبال وضاءة لامعة بما يغطيها من ثلج جديد، ناعم، ونقي.

لقد كان في هذه القصة من النبل، والشفافية والجمال المتهلل ما جعل قلبي يقفز من الإثارة وينتشي بانطوائه على سر مفرح.

كان الوقت قد حان لأقترب من الغيوم، وأتنقل بينها وأمنح فرصة إلقاء نظرة على العديد من صنوفها من فوق. وعندما بلغت سن العاشرة ارتقيتُ أول جبل لي، جبل سينالبشتوك، الذي تقع قريتنا الصغيرة نيميكون عند أسفله. ثم كان أن شاهدت للمرة الأولى رعب الجبال وسحرها. أخاديد شاهقة وعميقة مملوءة بالجليد وبالثلوج نصف الذائبة، وجلاميد كالزجاج خضراء اللون، وملساء، وركام حجارة تبث الرعب في القلوب، وتخيم على هذا كله كالناقوس، عالية تشبه القبة، السماء. وعندما تكون قد عشت عشر سنين، محصوراً بين الجبل والبحيرة، ومكبلاً بمرتفعات مجاورة، لا تنسى بسهولة يوم لقائك الأول مع سماء شاسعة ممتدة فوقك وأمامك أفقٌ لا حدود له. حتى أثناء الارتقاء دُهلت إذ وجدت أن صخوراً ناتئة وجروفاً،

تعودت أن أراها من أسفل، مهيمنة وهائلة الحجم. والآن وأنا مغمور بتأثير اللحظة الراهنة، يستولي عليّ شعور بالرعب والبهجة الطاغية، رأيت فجأة هذا الفضاء الشاسع يندفع نحوي. يا الله ما أكبر العالم! إن قريتنا كلها، الضائعة في الأعماق السفلى، لم تكن أكثر من نقطة صغيرة ملونة بالأضواء. والذرى التي كانت تُرى في وادينا كنت أظنها مضمومة معاً، إذا بمسافة مسير بضع ساعات تفصل فيما بينها. ثم بدأت أدرك أني حتى الآن لم أشاهد من العالم غير لمحة خاطفة، وليس مشهداً حقيقياً، وأنه في البعيد، يمكن للجبال أن تنهض أو تنهار، ولأحداثٍ جُلّى أن تقع بدون أن تصل همسة واحدة تندُّ عنها إلى مسامع قريتنا الألبية النائية، ولكن في الوقت نفسه ارتعش في داخلي شيء أشبه بإبرة البوصلة توقاً، لا إرادياً ولا رادَّ له، إلى تلك الأماكن النائية. ولم أتوصل إلى تقدير مدى جمال الغيوم وحزنها إلا عندما رأيت المساحات اللامتناهية التي تغطيها.

مدح الشخصان اللذان رافقاني أسلوبي في الارتقاء، وجلسا ليرتاحا قليلاً على القمة القارسة البرد، ويضحكان من حماستي المفرطة. ولكن بعد أن أفقتُ من ذهولي الأوليّ الأعظم، رحت أخور كثور، من فيض بهجتي وفرحي. وكانت هذه هي أول ترنيمة خرساء أتغنى بها بالجمال. توقعت أن أسمع صدى مدوياً، لكن صوتي تلاشى ولم يحظ بجواب بين القمم التي يرين عليها السكون كصرخة واهنة لطائر فشعرت بالخجل ولزمت الصمت.

ذاك اليوم كان علامة في مسيرة حياتي. ثم أخذت الأحداث تتلاحق. أولاً كان الرجال كثيراً ما يصحبونني معهم في

رحلات ارتقائهم للجبال، حتى الصعبة منها. وقد تمكنت من سبر الأسرار العظمى لقممها بإحساس غريب بالنشوة القلقة. ثم جعلوا مني راعياً للماعز. وفي إحدى المنحدرات التي كنت آخذ حيواناتي إليها ركن محمي ضد الرياح؛ كان مرصعاً بأزهار الجنطيانا ذات لون أزرق الكوبالت وكاسر الحجر الأحمر المشرق. وكان ملاذي المفضل. من هناك لم تكن القرية مرئية، وبعيداً من فوق الصخور لم يكن يُرى غير شريط لامع ضيق من مياه البحيرة، لكن الأزهار كانت تتوهج بألوانها النضرة، والسماء الزرقاء معلقة كالظلة فوق الذرى المتجهمة، المجللة بالثلوج، وكان رنين أجراس الماعز الرفيع يُسمع على خلفية غرغرة مسقط المياه القريب، المتواصلة. هناك كنت أستلقي في الدفء. أحدق يملؤني العجب إلى الغيوم البيضاء الصغيرة وأدندن بصوت مسموع لنفسي إلى أن أخذ الماعز يستغل كسلي ويقوم بكافة الأعمال المؤذية. حتى خلال الأسابيع الأولى عانت فترات استراحتي من مقاطعة فظة عندما سقطتُ مع معزاة في أخدود. ماتت المعزاة وجُرح رأسي؛ وتلقيتُ أيضاً ضرباً بلا رحمة، وهربت من والديّ، ثم أعاداني إلى المنزل وسط سيل من اللعنات والنواح.

كان يمكن لتلك المغامرات أن تكون الأولى والأخيرة. وفي هذه الحالة ما كان هذا الكتاب قد كُتِبَ وكنت وفرت على نفسي العديد من التجارب والكثير من الحماقة. ربما كنت تزوجت إحدى قريباتي وتجمدت في نهاية المطاف حتى الموت على حافة جلمود. كان يمكن أن ينتظرني مستقبل أسوأ. لكن الأمور لا تجري على هوانا، ولا فائدة من مقارنة ما لم يحدث بما حدث فعلاً.

كان والدي عادة يقوم ببعض الأعمال الصغيرة من وقت إلى آخر في دير فلسدورف. وذات مرة مرض وأمراني أن أبلغ الدير أنه لن يتمكن من الحضور. لكني بَدَلَ أن أفعل هذا، استعرت قلماً وورقة من أحد الجيران ودبَّجتُ رسالة كيِّسة إلى الرهبان سلمتها باليد إلى المرأة التي تنقل الرسائل، ورحت أتجول وحدي بين الجبال.

ذات يوم، خلال الأسبوع الذي تلا، عدت إلى المنزل فإذا بي أجد قساً ينتظر الشخص الذي دبّج تلك الرسالة الدمثة. فشعرت بشيء من الخوف، لكنه أخذ يمدحني وحاول أن يقنع والدي بالسماح له بتعليمي. وطُلب من خالي كونراد، الذي كان عندئذ قد استعاد حظوته، أن يبدي رأيه. وطبعاً كان متحمساً لحصولي على الدراسة لكي أصبح في نهاية المطاف عالماً وسيداً محترماً. واقتنع والدي، وأصبح مستقبلي واحداً من باقي مشاريع خالي المحفوفة بالمخاطر، مثل الفرن المضاد للنار والقارب الشراعي.

على الفور بدأت ببرنامج تدريس مرعب تضمن اللاتينية، واللاهوت، وعلم النبات، والجغرافيا. وقد وجدت ذلك كله مسلياً جداً لكني لم أدرك أن هذه المعرفة غير المترابطة قد تكلفني فقدان بيتي، وسنوات السعادة. ولم تكن اللغة اللاتينية وحدها السبب. وكان والدي الذي سيجعل مني فلاحاً حتى وإن حفظت Viri Illustres[1] كلها غيباً. لكن القس الداهية كان قد سبر أعماق مزاجي الخاص، مستقر الكسل الكؤود، ومركز جاذبيتي والإثم الملحاح. وأخذتُ أتفادى العمل ما أمكنني ذلك وأنطلق إلى

---

[1] "أشهر الرحال".

الجبال أو البحيرة وأستلقي في مخبئي على سفح التل؛ أقرأ، وأحلم وأتكاسل. ولما أدرك والدي هذا تركني أخيرا لشأني.

يبدو أنه بات مناسباً عند هذا الحد أن أذكر كلمة موجزة عن والديّ. لقد كانت أمي جميلة في شبابها، أما الآن فلم يتبقّ من جمالها غير بنيتها المتينة، وقامتها المستقيمة، وعينيها الداكنتين، الجذابتين. وكانت طويلة القامة، وتتحلى بقوة جسدية هائلة، بالإضافة إلى كونها مجتهدة في عملها وهادئة. وعلى الرغم من أنها كانت حتماً لا تقل مهارة عن والدي وتتفوق عليه في القوة الجسدية، لم تكن هي المهيمنة على البيت، بل تركت له أمر إملاء الأوامر. وكان هو ذا معتدل البنية، ولكن أطرافه كانت نحيلة، بل هشة، ورأسه يدل على العناد والخبث، ووجهه ناعم البشرة، وتغطيه تجاعيد صغيرة، عادة متحولة. وكانت له تغضنات طولانية، منخفضة على جبينه الذي أضحى داكن اللون، وكان كلما عبس أضفى عليه تعبيرا متألماً، وكئيباً. كان يبدو وكأنه يجاهد ليتذكر قضية ما خطيرة الأهمية، ولكن عبثاً. وكان يمكن ملاحظة كآبته الموروثة، لكنها كانت تمر بدون أن يلاحظها أحد، لأن سكان منطقتنا كلهم تقريباً هم ضحايا كآبة رقيقة، دائمة، تعزّزها بدون أدنى شك فصول الشتاء الطويلة وما يصاحبها من أخطار، والكفاح المرير لتأمين الحياة والانعزال عن العالم الخارجي.

لقد ورثتُ عن والديّ عناصر هامة من مزاجي الخاص. فمن أمي ورثت حكمة دنيوية متواضعة، والإيمان بالله، وميلاً إلى الهدوء، والصمت. ومن والدي، من ناحية أخرى، أخذت الخوف من اتخاذ القارات الصارمة، وعدم القدرة على الاحتفاظ بالمال وعادة الشرب عن عمد أكثر مما ينبغي. لكن

هذا العيب الأخير لم يتكشف في تلك السنين الغضة. من جهة المظهر، كان لدي عينا والدي وفمه، ومشية والدتي البطيئة، الثقيلة، وبنيتها وقوتها. ومن والدي وقومي بشكل عام ورثت مكر الفلاح الفطري، ولكن أيضاً كآبتهم وميلهم إلى إصابتهم بنوبات حزن لا تعليل لها. ولما كان قدري أن أختلط على مدى سنوات مع الأجانب، بعيداً عن مسقط رأسي في القرية، كنت أكثر ميلاً إلى المرح والجذل.

انطلقت في رحلتي في الحياة مزوداً بهذه المؤن، وبتشكيلة جديدة من الملابس. وأفادتني هِبات والديّ في صمودي، فقد خرجت إلى العالم، ومنذ ذلك الحين، وأنا أقف على قدميّ. ولكن ظل هناك نقص ما لم تستطع حتى المعرفة والتجربة أن تعوِّضه. وحتى هذا اليوم ما زال في مقدوري أن أهزم جبلاً، وأن أسير على قدميّ عشر ساعات بلا توقف، وأن أجذف قارباً، وإذا لزم الأمر أستطيع أن أقتل رجلاً بيدي المجردتين، أما فن الحياة فلا يزال يروغ مني. وقد سمح اتصالي المبكر، المخلص، بالتربة، بنباتاتها وحيواناتها، لبعض الفضائل الاجتماعية أن تزهر داخلي، ولا زالت أحلامي حتى الآن تشكل برهاناً ساطعاً على ميلي غير المناسب إلى الحياة الحيوانية النقية. فأنا دائماً أحلم بأني مخلوق مائي، حيوان فقمة عادة، ينتابني شعور قوي بالسعادة بحيث أني حين أستيقظ أستعيد منزلتي الإنسانية، ليس بشعور بالفخر والابتهاج، وإنما فقط بالأسف.

لقد تثقَّفتُ بالطريقة المعتادة مجاناً في المدرسة المتوسطة، وكان يُراد لي أن أكون ذا ثقافة كلاسيكية. يعلم الله لماذا، إذ ليس هناك مقرر دراسي أشد منه بعثاً على الضجر وأكثر مني بعداً عن الإلمام به.

مرت سنوات تلمذتي كومض البرق. كنت بين المشاحنات والدروس أقضي ساعات في الحنين إلى البيت، وفي الحلم بخطط جريئة عن المستقبل؛ ساعات من تعبُّد ورع للمعرفة. ولكن هنا أيضاً كان كسلي الفطري يتدخل، ويستجلب عليّ كافة صنوف العقاب، ومن ثم تأخذ حماسة جديدة تتملكني بالتدريج.

قال لي أستاذ اللغة اليونانية: «بيتر كامينتزيند، أنت شخص عنيد، فردانيّ، وذات يوم سيتحطم رأسك على جدار صلب». رحت أعاين الأستاذ البدين، ذا النظارة. وأنصتُّ إلى كلامه، ووجدته مسلياً.

وعلّقَ أستاذ الرياضيات قائلاً: «بيتر كامينتزيند، أنت عبقري في الكسل وأسفي الوحيد هو على أنه لا توجد علامة أقل من الصفر، لأني اليوم قدّرتُ نتيجة تمرينك فكانت علامتين ونصف تحت الصفر!». حدقتُ إليه بنظرة عطف لأنه كان أحول، ومملاً إلى أقصى حد.

وقال لي أستاذ التاريخ في إحدى المناسبات: «بيتر كامينتزيند، أنت تلميذ سيء، لكنك ستصبح مؤرخاً جيداً. مع ذلك. أنت كسول، لكنك تعرف الفرق بين الأشياء العظيمة والأشياء التافهة».

ولكن حتى هذه الميزة لم أر فيها صفة هامة. ومع ذلك، كنت أنظر إلى الأساتذة باحترام تام، لأني كنت أعتقد أنهم يحتكرون المعرفة، وكان للمعرفة في قلبي رهبة مبهمة، غامضة. وعلى الرغم من أن الأساتذة كلهم اتفقوا على كسلي إلا أني أحرزت بعض التقدم وكان ترتيبي فوق المتوسط في الصف. وأدركت أن المدرسة والمعرفة المدرسية يتألفان من مزيج غير وافٍ، لكني كنت أنتظر فرصتي المناسبة. وقال لي حدسي إن

معرفة معينة بالحقيقة، جلية، صافية، العقلية بكل معنى الكلمة، تكمن خلف تلك الاستعدادات والتلمسات المترددة، وإني ذات يوم، في إحدى ممالك المعرفة سوف أكتشف مغزى فوضى التاريخ الكئيبة، والمعارك التي تنشب بين الأمم والسؤال المخيف الذي يتردد داخل كل روح إنسانية. لكني كنت مدركاً لتوق أقوى وأشد. إنه توقي إلى صديق.

كان هناك صبي جديّ، بني لون الشعر، يكبرني بسنتين، اسمه كاسبر هاوري. كان هادئاً وتبدو عليه الثقة بالنفس، يشمخ برأسه برجولة، وتصميم وجدية، ولا يكاد يتبادل الكلام مع رفاقه. وبقيت على مدى أشهر أراقبه بمهابة عظيمة، وألاحقه كيفما اتجه في الشارع، وأتوق إلى الفوز بحظوة عنده، وأغار من كل شخص ممل يحييه، ومن كل منزل رأيته يلجه أو يغادره. لكني كنت دونه بصفين في المدرسة، ولا شك في أنه كان يشعر لتوه بتفوقه على صفه. ولم نتبادل كلمة واحدة. وبدلاً عنه التصق بي صبي سقيم، تافه، بدون أي تشجيع مني. كان أصغر سناً مني، رعديداً ولا يتصف بكثير من الذكاء، ولكن كانت له عينان جميلتان مشوبتان بالألم. ولأنه كان ضعيف البنية وعلى شيء من التشوه، كان يتعرض للكثير من التنمّر في صفه، وكان يرنو إليّ طلباً للحماية لأني كنت قوي البنية وأحظى بالاحترام. وسرعان ما منَعَتْه شدة المرض عن حضور الدروس. ولم أفتقد غيابه، وسرعان ما نسيت أمره.

ثم كان هناك فتى مرح صخّاب، أشقر الشعر في صفنا، وذا مواهب عديدة ومتشعبة. كان موسيقياً، ومحاكياً، ومهرجاً. فزت بصداقته بعد بذل بعض الجهد، وكان هذا الصغير الذي يساويني في السن دائماً يتخذ موقفاً متعالياً قليلاً عليّ. ومع ذلك

حظيت به صديقاً. كنت أفتش عنه حتى أجده في غرفة مكتبه الصغيرة، وقرأت معه بضعة كتب، حللتُ له تمارين اللغة اليونانية، وفي المقابل لجأت إلى مساعدته لحل واجبي في مادة الرياضيات. وخرجنا معاً أيضاً في نزهات ولا شك في أننا كنا نبدو ثنائياً متنافراً. كان هو الذي يحتكر الكلام كله، وكان مرحاً، وظريفاً وعلى كامل سجيته، وكنت أنصت إليه، وأضحك، وأنا سعيد لأني حظيت بمثل هذا الرفيق الخلي البال.

وفي بعد ظهر أحد الأيام قابلت مصادفة هذا المنافق الصغير وكان قد باشر أحد الفصول الأثيرة لديه أمام ثلة من الأصدقاء في رواق المدرسة. وكان يجسّد شخصية أحد الأساتذة وكان عندئذ يهتف: «احزروا مَنْ هذا!»، وفي الوقت نفسه باشر بتقليدي بأمانة، بتقليد وقفتي الخرقاء، وأسلوبي العصبي في القراءة، ونبرة كلامي الريفية الخشنة وعادتي الدائمة عندما أركز التفكير في أني أطرفُ بإحدى عيني وأغمض الأخرى. كان المشهد مسلياً جداً والأداء لا يعرف الرحمة. وبعد أن أغلق الكتاب وحظي بما يستحق من تصفيق عن جدارة، مشيت أتبعه بخطى واسعة وانتقمت منه. خذلتني الكلمات، لكني استجمعت كل ما استطعت من نقمة، وإحساس بالخجل وحنق في صفعة واحدة، عنيفة ذات عزم، سددتها إلى أذنه. بعد ذلك وعلى الفور بدأ الدرس، فلاحظ الأستاذ صوت نشيج والوجنتين الحمراوين المتورمتين لصديقي السابق الذي كان أيضاً تلميذه المفضل.

«من فعل هذا بك؟».

«كامينتزيند».

«كامينتزيند، تعال إلى هنا! أصحيح ما يقول؟».

«نعم يا سيدي».

«لماذا ضربته؟».

لا جواب.

«هل لديك سبب لفعلك هذا؟».

«كلا، يا سيدي».

وهكذا نلت قصاصاً قاسياً، وتمرغت في نعيم الاستشهاد البريء. ولكن بما أني لم أكن رواقياً ولا قديساً وإنما تلميذ مدرسة، وبعد أن تم تأديبي أبرزت لساني لعدوي، وحتى آخره. أصيب الأستاذ بالرعب فسدد إليّ ضربة عنيفة.

«ألا تخجل من نفسك؟ ما معنى هذا؟».

«إنه يعني أنه جرو قذر وأنا أحتقره. وهو جبان أيضاً».

وهكذا انتهت صداقتي مع المحاكي. لم يخلفه أحد، وأمضيت سنوات مراهقتي بلا صديق. وعلى الرغم من أن آرائي في الحياة وفي الجنس البشري قد تغيرت إلى حد ما منذ ذلك الحين، فكلما تذكرت تلك اللكمة التي تلقيتها على أذني أشعر بارتياح عميق. وأعتقد أن صديقي ذا الشعر الأشقر أيضاً لم ينسها.

في سن السابعة عشرة وقعتُ في حب ابنة محام. كانت جميلة وأنا فخور بأني على امتداد حياتي كلها لم أقع إلا في حب نساء غاية في الجمال. أما ما عانيته منها ومن نساء أخريات فسوف أرويه في موقع آخر. كان اسمها روزي غيرتانر ولا زالت حتى هذا اليوم تستحق حب رجال أفضل مني.

في ذلك الوقت كان عنفوان الشباب النضر ما يزال يجري في أوصالي. وكنت دائم التشاجر مع رفاقي في المدرسة، وأتباهى بأني أفضل مصارع، ولاعب كرة، وعدّاء ومجدّف ومع ذلك كله

كنت دائم الحزن. ولم يكن لهذا علاقة بعلاقتي العاطفية، بل كانت مجرد كآبة أول الربيع المحببة، وكان تأثيرها عليّ أبلغ منها على الآخرين، بحيث كنت أستمدُّ منه متعة من الأخيلة المحزنة، والتفكير في الموت، ومن التأملات المتشائمة. وطبعاً كان هنالك أيضاً صديق يمدني بأشعار هاينة الغنائية في طبعات رخيصة لكي أقرأها! ولم تكن المسألة فقط مسألة قراءة. بل كنت أصبُّ مكنون قلبي الفياض بما فيه من الأبيات الجوفاء، وأعاني مع الشاعر، وأؤلف أشعاري الخاصة المشابهة لأشعاره وأثمل بالشعر الذي ربما كان يناسبني كما يناسب الكشكش عنق خنزير. وحتى ذلك الحين لم تكن لدي أي فكرة عن "الأدب الرفيع". ثم تعرفت إلى ليناو، وشيللر، ثم غوته، وشيكسبير، وفجأة ارتقى الأدب المثالي الباهت إلى مرتبة الألوهية.

برعشة لذيذة شعرت بدفق منعش وعطر ينساب من هذه الكتب إليّ، واستنشقت الهواء الشديد النقاء لحياةٍ على الرغم من واقعيتها إلا أنها بدت وكأنها لا تنتمي إلى هذا الألم. هذه الحياة أرسلت أمواجها الهادرة لتضرب بقوة على قلبي المترع وكنت تواقاً إلى مشاركة مصيرها. كنت أقرأ وأنا قابع في زاوية من العلّية. هناك، حيث لا يصلني إلا قرع نواقيس برج قريب والرفرفة الجافة لأجنحة لقالق تبني أعشاشها، كانت شخصيات غوته وشيكسبير تدخل عليّ وتخرج. وامتثل أمامي الجانب الهزلي والإلهي للإنسانية برمتها. لغز قلبنا الجامح، المنقسم، وحقيقة تاريخ العالم وأعجوبة الروح الجبارة التي تنير حياتنا الوجيزة، ومن خلال قوة البصيرة، يخرج وجودنا الحقير إلى عالم الضروري والأبدي. وكنت كلما أطللت برأسي من

النافذة الضيقة أرى الشمس تشرق على السقوف والشوارع الضيقة، وأسمع مذهولاً ضجيج العمل والحركة اليومية يتصاعدان مندمجين معاً، وأشعر بوحشة علّيتي وسرّيتها، المسكونة بأرواح الماضي العظيمة، تكتنفني كحكاية خرافية ذات جمال أخاذ. وشيئاً فشيئاً، مع تقدم قراراتي وازدياد تأثري بشكل غريب بمشهد أعالي المنازل الذي أطل عليه والشوارع والحياة اليومية الجارية في الأسفل، كان يستولي عليَّ إحساسٌ، ممزوج بشكوك وترددات، بأني أنا أيضاً ربما رؤيوي، وأن العالم الممتد أمامي ينتظر مني أن آخذ نصيبي من كنزه، وأن أرفع الحجاب عن العَرَضي والمبتذل، وأن أنقذ، من خلال طاقتي الشعرية الخلاقة، ما يسعني اكتشافه من الدمار وأخلده.

بدأت، بشيء من الخجل، أؤلف مقطوعة شعرية صغيرة وأخذت الدفاتر تمتلئ تدريجياً بالأبيات الشعرية، والمسودات والقصص القصيرة. وقد ضاعت كلها ولعلها لم تكن تساوي شيئاً، غير أنها أمدتني بقدر كبير من المتعة والنشوة السرية. وببطء أخذت طاقاتي النقدية وقدرتي على النقد الذاتي ترافق هذه المحاولات، وفي سنتي الأخيرة في المدرسة عانيت للمرة الأولى تجربة خيبة الأمل العظمى، التي لا مفر منها. كنت قد بدأت لتوي أرمي لهو فترة الشباب وأتفحص كتاباتي بريبة وذلك عندما تصادف أن وقعت على بعض مؤلفات غوتفريد كيللر. وللتو قرأت هذه الكتب وأعدت قراءتها مرتين وثلاثاً على التوالي. ثم أدركت بإلهام مفاجئ كم كانت أوهامي الفجة بعيدة عن الفن الأصيل، والبسيط والحقيقي، فأحرقت أشعاري وقصصي القصيرة، ورحت أتأمل العالم يعتصرني الألم والانقباض، بحزن ووجوم.

2

يجب أن أعترف أني في مجال الحب بقيتُ طفلاً طوال حياتي، لأن حب النساء كان دائماً بالنسبة إليّ عمل تكريس مُطهِّر. لهباً متصاعداً[1] يتعالى من كآبتي، ويدين ممدودتين نحو السماء الزرقاء تبتهلان. ولطالما نظرت إلى جنس النساء باحترام، يحدوني إلى ذلك حبي لأمي وشعور داخلي مبهم، بوصفه جنساً غامضاً وغريباً يتفوق على جنس الذكور بفضل جماله الفطري وفردانية كيانه، ولكونه قدسياً لأنه، مثل النجوم وذرى الجبال الزرقاء، ناءٍ عنا، ويبدو أقرب إلى السماء. وبما أن الحياة لم تعفني من العديد من التجارب القاسية، فقد عانيت من لوعة حب النساء المرَّة وتذوقت حلاوته، وعلى الرغم من أنهن لم ينزلن عن مكانتهن العالية، إلا أن دوري كمساعد رصين تحول بسهولة تامة إلى دور المهرج المحتَقَر، المضحك المبكي.

كنت أقابل روزي غيرتانر تقريباً في كل يوم وأنا في طريقي إلى المنزل وقت العشاء. كانت فتاة في السابعة عشرة، قوية البنية لكنها طرية. ووجهها النحيل ببشرته الصافية السمراء كان يشع بالجمال الروحاني، الهادئ، نفسه الذي ما زالت أمها تحتفظ به والذي كانت جدتها وجدة جدتها تتمتعان به من قبلها. وهذه العائلة العريقة والشهيرة كانت قد أنجبت سلسلة طويلة رائعة من النساء، وكل منهن تتميز بجمال هادئ، راق،

ولا تشوبه شائبة. إن لوحة "صورة فتاة شابة من عائلة فوغر" التي رسمها رسام كبير مجهول في القرن السادس عشر ما زالت موجودة وأعتبرها إحدى أروع ما رأيت من لوحات. ونساء آل غيرتانر كلهن يشبهنها وروزي ليست استثناءً.

طبعاً أنا لم أكن واعياً لهذا كله في ذاك الوقت. فقط أراها تتنقل بسيمائها النبيلة، الهادئة والمرحة، وكنت واعياً لشخصيتها المتميزة، غير المتكلفة. كنت أجلس متأملاً في عتمة المساء إلى أن أستحضر صورتها بوضوح أمامي. وتسري في قلبي الفتيّ رعشة لذيذة. لكن لحظات السعادة هذه كانت سرعان ما تتلاشى في العتمة وتخلف لدي حزناً مريراً. ثم أدركت فجأة كم هي بعيدة عني: فلا هي تعرفني ولا تسأل عن صحتي: لقد كانت رؤياي الحبيبة مجرد تدخل في وجودها المُسْعِد. وحتى عندما شعرت أني أعي بحدة وبألم ظلت صورتها تتراءى أمامي كأنها حقيقية وتدب الحياة فيها فتغمر موجة دافئة مبهمة قلبي، وتوجع كل عصب في جسدي.

أثناء النهار كانت هذه الموجات تغمرني فجأة أثناء الدرس في الصف أو خلال مشادة مع أحد الصبية. كنت أغمض عيني وأترك يدي تتراخيان وأشعرني أنزلق إلى هوة دافئة إلى أن يهزني صوت أستاذي أو لكمة من زميلي وتعيدني إلى الواقع الفظ. عندئذ أندفع إلى الخارج وأحدق إلى العالم الأبعد ينتابني إحساس بحالة حلم رائعة. وفجأة أدرك مدى جمال كل شيء وغناه بالألوان: وكيف يتغلغل النور والأنفاس في كل كائن حي، ومدى شفافية خضرة مياه النهر، ومدى إشراق حمرة الأسطح، وعمق زرقة الجبال. لكن هذا الجمال الكلي الوجود لم يبلبلني: بل رحت أتذوقه بهدوء وحزن. وكان كلما ازداد جمال

كل شيء، ازداد استغرابي لأن الذين يقفون خارجه لا دور لهم فيه. وهكذا عادت أفكاري الخرساء أدراجها إلى روزي. وكيف أنها، لو أنني أموت في تلك اللحظة، لن تعرف بالأمر ولن تستفهم عنه، ولا حتى ستشعر بالحزن. ومع ذلك لم يكن الفوز بلفت انتباهها هو أهم شيء بالنسبة إليّ. بل كان سيسعدني أن أؤدي عملاً باهراً أو أقدم قرباناً لها بدون أن تعلم من هو المُحسن. وفي الحقيقة لقد قمت بعدة إنجازات لأجلها. حدث ذلك خلال فترة عطلة وجيزة حين أرسلتُ إلى المنزل. وهناك رحت أعرِّض نفسي في كل يوم لكافة أنواع الاختبار، وكله إجلالاً لروزي وتمجيداً لها. ارتقيت قمة جبل شاقة من الجانب الأشد انحداراً، وخرجت في رحلات قصيرة لا تصدق في البحيرة، قطعت خلالها مسافات هائلة في فترات زمنية قصيرة. ولدى عودتي من إحدى تلك الرحلات، وأنا مُسْتَنْزَف وجائع، خطر لي أن أخرج بدون تناول أي طعام أو شراب حتى المساء، وكله إكراماً لروزي غيرتانر. لقد حملتُ اسمها ومجدها إلى ذرى شاهقة وأخاديد جبلية لم تطأها قدم بشرية. وفي الوقت نفسه عثر فيض شبابي، الذي أضحى سقيماً جداً بتأثير من المدرسة، على مُتنفَّس بهيج في هذا المسار. وعَرُضَ كتفاي، وتأثر وجهي وعنقي بتقلبات الطقس وانتفخت عضلاتي وتمددت.

في اليومين الأخيرين من فترة العطلة أخذت لحبيبتي باقة زهر، حصلت عليها بعد أن تعرضت لخطر فادح. فقد كنت أعلم طبعاً أن زهر الإيدلفايس ينمو على صدوع ضيقة ممتلئة بالتربة على حواف منحدرات عديدة تغري بارتقائها، لكن تلك الزهرة السقيمة، الفضية الخالية من العطر أو اللون طالما بدت لي بلا حياة أو جاذبية. ومن ناحية ثانية كنت أعلم بوجود بضعة

أنواع من ورود جبال الألب المنفردة، منعزلة في أعلى جرف سحيق، كانت قد تأخرت في الإزهار، وكان الوصول إليها يشكل تحدياً. ولكن كان لا بد لي أن أنالها. ولما كان لا شيء مستحيل بالنسبة إلى الشباب والحب، بلغتُ أخيراً مرادي بعد أن تشققت يداي وتشنجت ساقاي. وكان من المستحيل جسدياً أن أهتف من شدة الفرح وأنا في وضعي المخيف لكن قلبي كان يزغرد بين ضلوعي وأنا أقطع بعناية السيقان القاسية وأحمل فريستي بين يدي. ثم كان لا بد لي أن أقوم برحلة الهبوط، مطبقاً عل الأزهار بأسناني، ولا يعلم غير الله كيف نجحت، بعد إنجاز هذه المأثرة المتهورة، في الوصول إلى أسفل جدار الجرف سليماً. وكانت الورود الألبية النابتة على طول سلسلة الجبال قد ذوت منذ وقت طويل، لكني كنت أحمل بين يدي آخر نفحات الموسم منها، وهي في أول تفتحها وازدهارها.

في اليوم التالي حملتها وهي داخل وعاء بيدي طوال رحلة خمس ساعات. وعند الانطلاق أخذ قلبي يخفق من فرط الإثارة والشوق للوصول إلى بلدة روزي الحلوة؛ وكنت كلما ابتعدت الجبال الشاهقة ورائي، يقوى شعوري بحبها المتأصل داخلي. إنني ما أزال أذكر تلك الرحلة بالقطار بجلاء تام. كان جبل السينالبشتوك قد غاب عن الأنظار منذ وقت طويل؛ ثم أخذت التلال الوعرة تختفي واحداً بعد آخر وكل منها كان يغيب عن نظر قلبي ليتركني مع شعور بالأسف. ثم تلاشت صور تلك الذرى المألوفة كلها ليحل محلها مشهد طبيعي، مترامي الأطراف، أكثر انخفاضاً، ذو خضرة يانعة. كان مشهداً فشل في أن يؤثر بي خلال رحلتي الأولى. ولكن هذه المرة كان القلق، والخوف والكآبة هي سيدة موقفي، وكأنما حكم عليّ أن أرحل أبعد فأبعد داخل

سهول منبسطة وأفقد إلى الأبد هضابي والحياة الحرة في مسقط رأسي. وفي الوقت نفسه كانت صورة وجه روزي النحيل ماثلة أمامي، شديد النقاء، والغرابة واللامبالاة بي حتى أن أنفاسي تجمدت مرارة وألماً. وانسابت تلك القرى البهيجة، النظيفة، بأبراج كنائسها النحيلة وقبابها البيضاء، واحدة إثر أخرى وأنا أحدق من نافذة مقصورتي. المسافرون يدخلون ويخرجون، يثرثرون، يتبادلون التحيات، يضحكون، يدخنون ويتمازحون. كلهم من سكان الأراضي المنخفضة المرحين، أناس بسطاء، لطفاء، وأذكياء. وأنا، شاب متبلّد قادم من الجبال، أجلس بينهم، صامتاً وكئيباً، غريباً عمن حولي. شعرت أني قد انتُزِعَتُ إلى الأبد من هضابي ولا أمل لي في أن أصبح مرحاً، وخبيراً، ولطيفاً وواثقاً من نفسي مثلهم. إن أمثالهم دائماً قادرون على أن يسخروا من أشباهي؛ وابنة آل غيرتانر جديرة بأن تتزوج واحداً منهم ذات يوم، وأياً منهم قادر على أن يعيق تقدمي ويسبقني.

تلك كانت الأفكار التي صحبتها معي إلى البلدة. وهناك، وبعد تبادل تمهيدي للتحيات صعدت إلى عليتي، وفتحت حقيبتي، وأخرجت منها صفيحة من الورق، ليست من النوع الجيد جداً، وبعدما لففت الورد الألبي بها وربطتها بقطعة من خيط جلبتها من المنزل لم تشبه كثيراً عربون حب. وحملتها بكل رصانة ونزلت إلى الشارع وتوجهت إلى منزل المحامي، هر غيرتانر، وعند أول فرصة مناسبة سنحت لي ولجت من الباب المفتوح وتلفّتُ حولي في الصالة المعتمة عند الغسق، ثم وضعت لفافتي الخرقاء على الدرج العريض الفخم. لم يرني أحد ولم أعرف قط إن كانت روزي غيرتانر قد انتبهت إلى لفتي. ولكن

تبقى حقيقة أني هبطت مرتفعات شاهقة وخاطرت بحياتي لأنثر نفحة عطرة من ورد الألب على درج بيتها، وأنه كان يغلف تلك المغامرة مرارة حلوة، وشاعرية شعت وهجاً دافئاً داخلي. ولا أزال أستطيع حتى هذا اليوم أن أستحضر ذاك الشعور. فقط في حالاتي النفسية الأشد يأساً يبدو لي أحياناً أن مغامرة روزي غيرتانر كانت عملاً دونكيخوتياً ولا يختلف في شيء عن علاقاتي العاطفية اللاحقة كلها.

إذن لم تثمر علاقتي العاطفية الأولى هذه، ولكن ظل صداها يتردد بشكل مبهم طوال سنوات شبابي ورافقتْ علاقاتي العاطفية اللاحقة كأختٍ هادئة أكبر سناً. ولا أنا نجحت في العثور على من هي أرقى، وأنقى، وأحب إليّ من ابنة الرجل الأرستقراطي، الشابة الناعسة العينين. وبعد ذاك بسنين عديدة، عندما شاهدت اللوحة التي تمثل ابنة آل فوغل، المجهولة الرسام، وذات الجاذبية الغريبة، في معرض تاريخي في ميونيخ، خيِّل إليّ أني أرى شبابي الحزين، المفتون ماثلاً أمامي يرسل إلي نظرة يائس من أعماق عينين لا يُسبر غورهما.

في تلك الأثناء أخذت أطرح عني ببطء ورصانة همي وأصبحت تدريجياً شاباً بكل معنى الكلمة. والصورة الفوتوغرافية التي التقطت لي في تلك الفترة تبين صورة فتى فلاح، مفرط النمو ونحيل، بزي المدرسة الرث، ذا عينين كليلتين وأطراف ضخمة وفظة. وحده الرأس يكشف عن قدر من العناد والنضج المبكر. وبنوع من الدهشة رحت أراقب نفسي وأنا أخلِّف ورائي سلوكي الصبياني، وأصبو إلى مرحلة دراستي الأعلى بترقب رزين. كان عليّ أن أتلقى دراستي في زوريخ، وإذا ما أحرزت تفوقاً فيها، كان أساتذتي ينوون أن يرسلوني في

جولة ثقافية. فأستَحْضَرَ هذا في مخيلتي لوحة كلاسيكية، جميلة، تراءى لي بستان مزين بتماثيل نصفية لهومر وأفلاطون وتخيلتني جالساً هناك منكباً على قراءة مجلدات تثقيفية، يكتنفني مشهد رحب، صاف، يشرف على بلدة، من خلفها تبدو بحيرة وجبال تشكل منظراً طبيعياً رائعاً. وكنت قد أصبحت أكثر اتزاناً ولكن أكثر نشاطاً وصرت أتطلع إلى ما ينتظرني من مستقبل زاهر مزوداً بقناعة راسخة بأن عليّ أن أثبت جدارتي به.

خلال سنتي الأخيرة في المدرسة انهمكت في دراسة اللغة الإيطالية، وتعرفت للمرة الأولى إلى كتّاب القصة القدامى الذين انتقيتهم ليكونوا موضوع رسالتي الخاصة في النصف الأول من العام الدراسي في الجامعة. ثم جاء يوم وداعي لأساتذتي وحزم أمتعتي في صندوقي الصغير، ولدى مغادرتي، يمتزج داخلي الحبور والحزن، توقفت قليلاً خارج منزل روزي.

فترة العطلة التي تلت ذلك منحتني فكرة مسبقة مريرة عن الحياة وسرعان ما وضعتْ حداً لأحلامي المثالية. وأول صدمة تلقيتها أني وجدت أمي مريضة. كانت تلازم السرير، لم تتكلم ولم تنتبه إلى وصولي. ولم أكن ميالاً إلى رثاء الذات، إلا أنني اضطربت لأن فرحتي وريعان شبابي لم يلقيا أي صدى لديها. ثم صرّح والدي لي أنه لا يمانع في أن أكمل دراستي لكنه لن يستطيع أن يزودني بالمال اللازم لذلك. فإذا كانت قيمة المنحة الدراسية الصغيرة لا تكفي فسوف يتوجب عليّ أن أكسب المبلغ المكمّل من عرق جبيني، وأنه عندما كان قد وصل إلى مثل سني كان قد مضى عليه وقت طويل وهو يكسب عيشه بنفسه. وإلى ما هنالك..

لم أتمكن من الاستمتاع بالتمشي، والتجذيف وارتقاء الجبال كثيراً، ذلك لأنه كان لا بد أن أعمل إما في المنزل أو في الحقول، وفي أوقات الفراغ بعد الظهر أكون قد فقدت كل رغبة في القيام بأي شيء، حتى القراءة. وعندما أخذت أعي كم تتطلب المهام اليومية الاعتيادية من واجبات وتمتص كل ما تبقى لدي من نشاط وطاقة تولاني القلق والسخط. وعلى الرغم من أن والدي قد أزاح عن كاهله مشاكلي المالية، وربما أيضاً ارتاح مني أنا، إلا أنه لم يفقد عطفه علي. لكن هذا لم يواسني. كنت مضطرباً ومتألماً لأن تعليمي وكتبي لم يحظيا إلا بصمته، واحترامه الممزوج بالازدراء. ثم إن أفكاري كانت مركزة غالباً على روزي ومرة أخرى وعيت مع شعور بالبؤس والامتعاض عجزي كقروي عن أن أصبح أبداً شخصاً بالغاً يتصف بالاحترام والنشاط الفعال في العالم الخارجي. والحق، أني أمضيت أياماً كثيرة أتساءل إن لم يكن من الأفضل لي أن أنسى لغتي اللاتينية وآمالي وأن أواجه المعركة القاسية الشرسة لأكسب قوتي في مسقط رأسي. أخذت أحوم متوتراً وقلقاً، حول سرير أمي المريضة، دون أن أجد الراحة أو السكينة. وأخذتْ صورة بستان الحلم مع تمثال هومر النصفي تسخر مني، فدمرتها وكومتها مع كل ما يعتلج في كياني المعذب من عداء واستهجان. واستطالت الأسابيع ولم تعد تحتمل، وكأنما كُتب علي أن أبدد شبابي كله في هذه الفترة المفعمة بالغضب والإحباط العقيمين.

إذا كان قد أصابني الذهول والغضب وأنا أرى حياتي تدمر أحلامي السعيدة بسرعة هائلة تدميراً شاملاً، فإني وصلت بعد ذلك إلى مرحلة من الدهشة جراء القوة والسرعة اللتين

يمكن للمرء أن يتغلب بهما على العذابات الحاضرة. وكانت الحياة قد كشفت عن وجهها المبتذل الشاحب وإذا بها الآن تفغر فجأة أعماقها اللانهائية أمام تحديقي المرتبك وترمي على كاهل سنوات شبابي عبء القيام بتجربة متزنة ومؤثرة.

في صباح باكر من يوم صيفي حار استيقظت شاعراً بالظمأ فنهضت لأذهب إلى المطبخ حيث كان يوجد دائماً حوض يحتوي ماءً عذباً. ولكي أصل إليه كان لا بد أن أمر من خلال غرفة نوم والديّ فسمعت أنيناً يصدر عن أمي لجمني على الفور. اقتربت من السرير، لكنها لا رأتني ولا تفوهت بأي كلمة، وإنما فقط واصلت أنينها المخيف، الواهن: كان جفناها يرفان ويعلو وجنتيها شحوب مزرقّ. وعلى الرغم من شعوري بالقلق إلا أنه لم ينتبني قلق حقيقي. ثم لاحظتُ أن يديها ممدودتان بلا حراك على اللحاف مثل أخ وأخته نائمين. وقد أنبآني أن أمي تحتضر، فقد كانا يبدوان للتو منفصلين بشكل غريب وعليهما سيماء إرهاق الموت، خلافاً لما يبدو على يدي إنسان حي. نسيتُ أمر ظمأي، وركعتُ إلى جوارها، ووضعت يدي على جبينها وحاولت أن أقابل نظرة عينيها. وعندما تقابلت عيوننا أخيراً، كانت عيناها ثابتتين وهادئتين وتقتربان من الانطفاء. لم يخطر ببالي أن أوقظ والدي الذي كان مستغرقاً في النوم في مكان قريب. بقيت راكعاً هناك مدة ساعتين وشهدتُ معاناة أمي لسكرات الموت. فعلتْ ذلك بوقار هادئ مميز وتركتْ لي عِبرة نبيلة.

كان السكون يرين على الغرفة الصغيرة. وببطء أخذتْ تمتلىء بضياء نهار دان، كان المنزل والقرية هاجعين وكان لدي متسع من الوقت لأرافق في ذهني رحلة روح شخص يحتضر فوق

المنزل، والقرية، والبحيرة، والذرى المكللة بالثلوج إلى الحرية المنعشة في سماء صباح باكر، نقي. شعرتً بحزن قليل، ذلك لأن لغز الموت والرعشة الخفيفة التي صاحبت نهاية حياة إنسانية ملأتني بالرهبة وبالذهول. لقد كانت الشجاعة المثالية التي تحلت بها الروح الراحلة من السمو بحيث أن شعاعاً صافياً، منعشاً من النور انبث من بهائها المتواضع ونفذ إلى روحي. وقد ساهم في تجميد مشاعري أن والدي كان نائماً في مكان قريب، وعدم وجود كاهن وأن الروح العائدة إلى باريها لم تتناول السر المقدس ولا رافقها مصلّون في رحلتها الأخيرة. كل ما شعرت به نسمة من الأبدية تبث الرهبة في النفس اجتاحت الغرفة المضاءة بنور الفجر وامتزجت مع كياني. وفي اللحظة الأخيرة وبعد أن أغمضتْ عينيها، زرعتُ قبلة على شفتي أمي الباردتين، الذابلتين لأول مرة في حياتي. ثم شعرت برعب مفاجئ أرسلته القشعريرة الغريبة التي سببها هذا الاتصال فجلستُ على حافة السرير وأخذتْ دمعة كبيرة بعد أخرى تجري على وجنتيّ وذقني ويديّ.

بعد ذلك بقليل استيقظ والدي، ولما لاحظ جلوسي هناك سألني بصوت ثخين من تأثير النوم عما بي. حاولت أن أجيب لكني عجزت عن النطق. فخرجت مبهوراً، وعدت أدراجي إلى غرفتي، وهناك ارتديت ملابسي بحركات آلية. وسرعان ما ظهر والدي.

قال: «أمك توفيت. أكنت تعلم؟»، فأومأت برأسي إيجاباً.

«فلماذا تركتني نائماً؟ لم يكن معها حتى كاهن! فليـ..». وتلفظ بشتيمة هائلة.

شعرت بألم مبرح في رأسي وكأن شرياناً قد انفجر. ثم شددت يدي معاً بقوة، وحدقت إلى وجهه. عجزت عن قول أي شيء، أما هو فحافظ على هدوئه، بدا مبهوراً، وعندما مضينا معاً إلى حيث تستلقي أمي غمره هو أيضاً حضور الموت، وجلب تعبيراً وقوراً، غريباً، إلى وجهه. ثم اقترب من الجثة وأخذ يجهش بخفوت كطفل ببكاء واهن، أشبه بصرخات عصفور، فتركته وخرجت لأنشر الخبر بين الجيران. أنصتوا إلي، ولم يطرحوا عليّ أي سؤال، لكنهم كانوا يمدون أيديهم ويعرضون أن يقدموا قد ما يستطيعون من مساعدة لأسرتنا الثكلى. وركض أحدهم على الطريق يبغي الدير لكي يحضر كاهناً، ولدى عودتي إلى المنزل، كان أحد الجيران قد وصل إلى حظيرة الماشية وأخذ يعنى بالبقرة.

حضر الكاهن وتقريباً كل امرأة في القرية، وسار كل شيء بدقة ويسر وكأنما من تلقاء ذاته. حتى التابوت حضر بدون تدخلنا. ورأيت للمرة الأولى بوضوح مزايا تواجد المرء بين جموع قومه وانتماءه إلى مجتمع صغير، مكتف ذاتياً في وقت الأزمات. وربما كان ينبغي في اليوم التالي أن أولي الموضوع مزيداً من التفكير.

بعد تلاوة الصلوات على التابوت وإنزاله إلى القبر، شق الموكب الجنائزي الحزين، الرائع، طريقه عائداً إلى حجرة الملابس والقبعات العالية العتيقة الطراز، بالإضافة إلى قبعة والدي الفرو، الخشنة، عادت إلى صناديقها، فجأة انهار والدي، وأخذ يطلق العنان لرثاء ذاته، ويسهب في الحديث عن بؤسه بعبارات غريبة، توراتية في أغلبها، مشتكياً من أن ابنه الآن وبعد وفاة زوجته سيتركه وحده ويغادر إلى بلاد أجنبية. ولم

ينته. ورحت أنصت إليه يتملكني الرعب، حتى إني كدت أقطع له عهداً بأن أبقى معه. وفي تلك اللحظة ـ وكنت قد انتهيت لتوي من صياغة جوابي ـ غمرني شعور غريب. فجأة ومض أمامي كل ما كنت أحلم به وأتوق إليه منذ طفولتي ـ تلخص أمام عيني الداخلية التي انفتحت للمرة الأولى. تراءت أمامي مهام نبيلة تتضمن قراءة الكتب وتأليفها. وتناهى إلى سمعي هبوب رياح الفنون، ولمحتُ على البعد بحيرات وشواطئ، تشع ضياء الجنوب كله. رأيت أناساً بوجوه تنم عن ذكاء وموهبة، ونساء شهيرات، أنيقات، يمررن من أمامي. رأيت دروباً ريفية قاطعة الأصقاع. تراءى هذا كله لي في وقت واحد، ومع ذلك كان كل جزء منه محدداً وتام الوضوح ومنفصلاً، وخلف كل هذا المدى اللامتناهي امتد أفق صاف تقطعه سحب تعدو. المنحة الدراسية، الإبداع، السفر، المشاهدة ـ الحياة كلها غناها وخصبها سطعت أمام ناظري كومض فضي، متملّص. واستجاب شيء داخلي، مرة أخرى كما في أيام الطفولة، مع رعشة نشوة، للتحدي الهائل لمسافات العالم الشاسعة.

ران الصمت عليّ وتركت والدي يواصل كلامه، مكتفياً بهز رأسي وانتظار انفعاله ريثما يستنفذ نفسه. ولم يتحقق ذلك إلا مع حلول المساء. عندئذ شرحت له عزمي الصارم على إكمال دراستي والبحث عن مستقبلي في حقول الفكر. وفي الوقت نفسه قلت إنني لا أنتظر منه أن يعيلني مادياً، فكفّ عن التنمّر عليّ ولكن بدا عليه الحزن وهز رأسه. إذ حتى هو أدرك أنني بتُّ أكثر استقلالاً وأني قريباً سأغدو شخصاً غريباً تماماً عنه. وبينما كنت أدوِّن ما تذكرته من تلك الحادثة، تراءى لي والدي مرة أخرى في ذاك المساء جالساً على كرسي عند النافذة. رأسه

القروي، الصلب والدال على الدهاء مرتكز بلا حراك على عنق هزيل، وشعره المقصوص قصيراً يزداد شيباً، وتقاطيع وجهه المتجعدة والخشنة تكشف عن الصراع الذي تحرضه قوته الجسدية على شدّته ضد محن الحياة وأول هجمات الشيخوخة.

بقيت هناك حادثة ثانوية واحدة لكنها لا تقل أهمية فيما يخص والدي، ولا بد أن آتي على ذكرها. فذات مساء من الأسبوع الذي سبق رحيلي اعتمر قلنسوته وقبض على أكرة الباب. فسألته: «إلى أين أنت ذاهب؟» أجاب: «هذا ليس من شأنك»، قلت: «كنت أخبرتني لو لم يكن أمراً تخجل منه». فضحك وقال: «يمكنك أن ترافقني إذا شئت. لم تعد طفلاً». ورافقته إلى الحانة المحلية. هناك كان بضعة قرويين جالسين أمام إبريق من نبيذ "هالاور"، وعدد من الحوذيين الأجانب كانوا يشربون الأفسنتين، وبعض الشبان كانوا يمارسون لعبة تدعى "ياس" ويثيرون ضجيجاً. وكنت متعوداً على تناول كأسي المعتاد من النبيذ ولكن تلك كانت المرة الأولى التي أدعى فيها إلى حانة بدون أي سبب معين. وكان قد تناهى إلى علمي أنه كان في إمكان والدي أن يستهلك كمية كبيرة من الكحول. بل إنه كان يسرف في شرب الخمر، ومن النوعية الجيدة أيضاً، مما يعلل الحالة السيئة الدائمة التي كان عليها منزلنا، وإن لم يكن في الإمكان اتهامه جدياً بالإهمال. وقد لاحظت أن المضيف والضيوف أبدوا احتراماً واضحاً له. طلب ليتراً من نبيذ "فادو"، وطلب مني أن أصبّ منه وأريه كيف سأفعل ذلك. يجب أن تصبه بزاوية منخفضة، وأن تطيل الدفق وأخيراً أن تقرِّب الزجاجة قدر الإمكان من الكأس. هنا بدأ يبسط معرفته بأنواع مختلفة من النبيذ وكان متعوداً أن يستمتع بشربها خلال

زياراته النادرة إلى البلدة ورحلاته إلى القطاع الفرنسي من سويسرا. وتحدّث بنبرة طنانة مبالغة عن النبيذ القاتم اللون "فلتلاينر"، وميز بين الأنواع الثلاثة المختلفة. ثم انتقل من هذا ليتحدث بصوت رقيق، مُلحّ عن أنواع معينة من نبيذ "فادو". وأخيراً، ويهمس كأنه يفضي بسر وبتعبير على وجهه كأنه يحكي حكاية خرافية، تحدث عن أنواع نبيذ نوشاتل. ثمة أصناف من هذا تتشكل فيه الرغوة علامة النجمة عند صبها في كأس. ورسم نجمة على الطاولة بسبابته المبللة. ثم أخذ يسهب بشكل ممل في الكلام عن ميزة الشمبانيا ونكهتها والتي، بالمناسبة، لم يتذوقها مرة في حياته، وكان يتوهم أن زجاجة واحدة منها خليقة بأن تصرع عدداً من الناس.

بصمت وتأمل اشعل غليونه وبينما هو يفعل ذلك لاحظ أن لا شي معي أدخنه فأعطاني عشر سنتيمات لأشتري بها بعض السجائر. بعد ذلك جلسنا متقابلين، وكل منا ينفث الدخان في وجه الآخر، وأخذنا نجرع ببطء أول ليتر طلبناه. كان مذاق نبيذ الفادو الحريف، الذهبي، ممتازاً. وأخذ القرويون الجالسون على الطاولة المجاورة يشاركوننا بالتدريج في الحديث وأخيراً بدأوا ينتقلون، واحداً إثر آخر وهم يتنحنحون تعبيراً عن الاستنكار. وسرعان ما أصبحتُ مركز الاهتمام وبات جلياً أن براعتي الفائقة كمتسلق للجبال لم تُنس. وأعيدت رواية كل عملية تبسلق تنطوي على خطر وكل عمليات الهبوط المجنونة، ونوقشت وتم الدفاع عنها. وفي تلك الأثناء كدنا نأتي على الليتر الثاني واشتد احتقان عينيَّ. وبدأتُ أتباهى، بشكل يتنافى مع طبعي، وأعيد رواية عملية تسلقي المتهور إلى جدار جبل سينالبشتوك الأعلى من حيث كنت قد قطفت الورد الألبي

لروزي غيرتانر، ولم يصدقوني؛ فأبديت احتجاجي وضحكوا. ففقدت أعصابي وتحديث أياً ممن لم يصدقوني لمباراة في المصارعة وأضفت أنه إذا لزم الأمر سوف أصارعهم جميعاً. هنا تقدم قروي عجوز محني الظهر إلى نضد المشروبات وأحضر إبريقاً فخارياً كبيراً ووضعه بالطول على النضد. ضحك وقال: «ما دمت قوياً إلى هذه الدرجة، تعال وهشم هذا الإبريق بقبضة يدك، فإذا فعلت نقدم إليك ملأه نبيذاً، وإذا لم تنجح قدمتَ أنت النبيذ على حسابك».

وافق والدي. نهضت واقفاً، وعصبت منديلي حول يدي وضربت. الضربتان الأوليان لم يكن لهما أي أثر. أما في الثالثة فتطاير الإبريق شظايا. هتف والدي وقد أشرق بهجة: «ادفعوا الرهان!». ولم يُبد الرجل العجوز أي اعتراض، وقال: «عظيم، سأقدم من النبيذ قدر ما يحمل الإبريق، لكنه لن يكون كثيراً!». طبيعيٌ أن الشظايا لم تكن لتستوعب ملء إبريق كامل، ولكن كان لا بد لي أن أتحمل المزاح، بالإضافة إلى ما نالني من ألم في ذراعي. حتى والدي ضحك مني. فصرخت: «حسن لقد فزت علي!»، ثم ملأت أكبر الشظايا سعة من زجاجتنا وسكبتها على رأس الرجل العجوز. وجاء دورنا لنضحك ملء قلوبنا وفزنا بجولة من التصفيق من الزبائن.

تبع ذلك المزيد من المزاح السمج، ثم جرني والدي معه إلى المنزل، وفي حالة من الهياج النكد قطعنا أرض غرفة النوم بخطى ثقيلة، حيث كان تابوت أمي، قبل ثلاثة أسابيع من ذلك، قائماً. استغرقت في النوم كالميت وفي صباح اليوم التالي شعرت كأني كومة من الحطام. نظر إليّ والدي بسخرية، وكان مرحاً ومتهللاً ومن الواضح أنه كان مبتهجاً لتفوقه علي. لكني قطعت

عهداً على نفسي أن لا أقرب الخمر أبداً ورحت أعد الأيام السابقة ليوم رحيلي.

أخيراً جاء وانطلقت. لكني نقضتُ عهدي، لأني منذ تلك الأيام أصبحت خبيراً بنبيذ الفادو الذهبي، والفلتلاينر القرمزي، والنوشاتل الذي يشكل نجمة في الكأس، ناهيك عن أصناف النبيذ الأخرى. وأصبحنا أصدقاء حميمين.

3

حالما ابتعدتُ عن جو مسقط رأسي في القرية، الثقيل الوطأة، والممل، نشرتُ أجنحتي وحلقتُ صوب السعادة والحرية، وعلى الرغم من أن سوء الحظ غالباً ما أصابني في حياتي اللاحقة، فإني استمتعت أيما استمتاع بمباهج الشباب الفاتنة والغريبة. عشت مثل جندي شاب واقف عند حافة غابة خضراء، في حالة من القلق الممتع ما بين الحرب والاستمتاع بالحياة، ومثل عرّاف ممتلئ بالبشائر، وقفت على حافة تصدعات شاهقة ومظلمة، أنصت إلى هدير السيول والعواصف الجبلية، مشدود الانتباه علّي التقط ترجيع الأنغام الفطرية المتناسقة للكائنات الحية جميعاً. كنت سعيداً، وجرعت حتى الثمالة من كأس الشباب المترعة، وتحملت بصبر حزني العذب على نساء جميلات عبدتهن عن بُعد، وتذوقت حتى الارتواء متعة الصداقة النبيلة. وقد وصلت، وأنا ببذتي الجديدة من فرو الخلد مع صندوق صغير يحتوي كتباً وممتلكات أخرى، على أهبة الاستعداد لغزو جزء من العالم ولكي أثبت بأسرع وقت ممكن للرعاع في موطني أني جُبلت من طينة مختلفة كل الاختلاف عن طينة بقية آل كامينتزيند.

طوال ثلاثة أعوام مجيدة عشت في العلية نفسها بتيارات هوائها والمشهد الممتد المطلة عليه، درستُ، وكتبتُ الشعر،

يحدوني الشوق، وشعرتُ أن جمال الأرض كلها يطوقني بحضوره الدافئ. لم أكن أستطيع أن أحصل على وجبة ساخنة في كل يوم، لكن قلبي كان في كل يوم، وكل ليلة وكل ساعة، يغني ويضحك ويبكي، من فيض الفرح. وتعلقت بهذه الحياة العزيزة بعناق محبٍ، غامر.

كانت زوريخ هي أول مدينة كبيرة أشاهدها، أنا اليقطينة القروية، واستغرق مني تجاوز ذهولي بضعة أسابيع. ولم يخطر قط ببالي أن أتغنى أو حتى أحسد نمط الحياة في المدينة. كنت وأنا في غمارها أحدق إلى الأبنية والكنائس الضخمة؛ أراقب الناس المشغولين يحثون خطاهم متوجهين إلى أعمالهم في حشود هائلة، من طلاب يبددون الوقت، وسكان مميزين يقودون سياراتهم، ومتأنقين يتباهون بأنفسهم، وزائرين أجانب يتجولون، وكانت زوجات الأغنياء، التافهات، الأنيقات الملبس، يتبخترن كالطواويس في فناء الدواجن. جميلات، مغرورات، وغريبات الأطوار قليلاً. ولم أكن خجولاً حقاً؛ بل فقط أخرق وجريئاً، ولم يكن لدي أدنى شك في أني الرجل المناسب لاكتساب معرفة شاملة بهذه الحياة المدينية الكثيرة المطالب، وأني لاحقاً سوف أجد لنفسي فيها زاوية آمنة.

قابلت الشباب متمثلاً على هيئة شاب وسيم كان يدرس في البلدة نفسها ويستأجر غرفتين جميلتين تقعان في الطابق الأول في منزلي. كنت في كل يوم أسمع عزفه على آلة البيانو تحتي، وأفقت للمرة الأولى على سحر الموسيقى، أشد الفنون أنثوية وعذوبة. ثم صرت أرى الشاب الوسيم يغادر المنزل حاملاً كتاباً أو مجموعة نوتات موسيقية في يده اليسرى وسيجارة في اليمنى، وكان ذيل من الدخان يتصاعد متعرجاً خلفه أثناء

سيره بخطى خفيفة ولينة. ومع إني انجذبت إليه بحياء، لكنني بقيت بعيداً، خشية أن أقيم أي علاقة مع شخص لا يعمل عَدَمُ تكلّفه، كياسته ووضعه المزدهر إلا على جعل فقري وافتقاري إلى معرفة الحياة مثيرين للسخرية. ولكن حصل أنه هو تقرب مني. فذات مساء سمعت قرعاً على بابي. خفت قليلاً لأنها كانت المرة الأولى التي أتلقى فيها زيارة من أحدهم. دخل الطالب الوسيم، ومدَّ يده إليّ، عرَّف عن نفسه بأسلوب مرح ومنطلق، كأنه صديق قديم.

قال بصوت ودي: «وددتُ أن أسألك إن كنت ترغب في أن تشاركني في عزف بعض المقطوعات الموسيقية». لكني لم أكن قد لمست أي آلة موسيقية في حياتي. أخبرته بهذا، وأضفت قائلاً إن إنجازي الوحيد هو الصياح المنغَّم، إلا إني كنت غالباً ما أنصت باستمتاع إلى الأصوات الساحرة التي تتناهى إليّ من آلة البيانو خاصته.

قال بمرح: «كم يخطئ الإنسان! من مظهرك، كدت أقسم أنك موسيقي. ما أغرب هذا! أتقول أنك تحسن الصياح المنغّم؟ أوه، أسمعني أرجوك، مرة واحدة فقط! أحب كثيراً أن أستمع».

بوغتُّ تماماً وشرحت له أنه لا يمكن لي أن أصيح حسب الطلب، وحتماً ليس بين أربع جدران. يجب أن يحدث ذلك فوق جبل أو على الأقل في الهواء الطلق، وبالتالي فهو أمر تلقائي تماماً.

«إذن هيا وصِحْ فوق أحد الجبال! فلننقل غداً؟ أتوسل إليك. يمكننا معاً أن نصعد قرابة المساء. سوف نتجول ونتسامر، ومن ثم تصيح. وبعد ذلك نتناول طعام العشاء في إحدى القرى. هل لديك وقت لهذا؟».

«أوه، نعم، لدي وقت كاف»، ووافقت بسرعة. ثم طلبت منه أن يعزف لي مقطوعة ما وهبطنا إلى غرفة جلوسه الكبيرة والمنعشة، عدد من الصور داخل أُطُر حديثة، آلة البيانو، وشيء من الفوضى المحببة ورائحة صنف غالي الثمن من السجائر، كل هذا كان ينم عن نوع من الرهافة المريحة، وجو أليف كان جديداً كلياً عليّ. جلس ريتشارد عند آلة البيانو وعزف بضع نغمات.

قال مومئاً إليّ: «أظن أنك تعرف هذه؟». بدا رائعاً وهو يميل برأسه الوسيم نحوي وعيناه تحملان تعبيراً عن اللهفة.

أجبت: «كلا، إنني جاهل تماماً».

رد بدوره: «إنه فاغنر، من أوبرا مايستر سينغر». ثم تابع العزف. كانت الموسيقى تتسم بسلاسة قوية، وبدت مفعمة بالحيوية، والحماس والتوق، وكانت تنساب حولي وكأني أستحم بمياه دافئة منعشة. وفي الوقت نفسه كانت عيناي تستمتعان بالنظر إلى عنق العازف الأهيف وظهره ويديه الخليقتين بموسيقي. وبينما أنا كذلك، انقضّ عليّ شعور الإعجاب والحب نفسه الذي تملكني في سنوات عمري الأولى عندما نظرت إلى تلميذ المدرسة ذي الشعر الكستنائي. كان ممزوجاً بتوقع خجول أن يصبح هذا الوسيم والمميز حقاً صديقي وبهذا يحقق أمنيتي القديمة ولكن اللامنسية في عقد تلك الصداقة.

في اليوم التالي عرَّجتُ عليه. وانطلقنا نرتقي إحدى التلال، ونحن نتحدث طوال الوقت، وننظر إلى أسفل مشرفين على البلدة، والبحيرة، والحدائق ونعبُّ حتى الامتلاء من فيض جمال أول المساء.

قال ريتشارد: «والآن، صِحْ لأجلي! إذا كنت ما تزال تشعر بالحياء، أدِر ظهرك لي، ولكن ارفع صوتك، أرجوك!».

يبدو أنه كان راضياً وذلك لأني رحت أصيح بجنون وتهلل في المدى المسائي المتوهج مستخدماً كل انتقال وتنويع في الصوت. وعندما سكتُّ كان يعلق بالكلام لكنه أحجم فجأة، وأشار إلى الجبال وراح ينصت. ومن الذروة الأعلى جاء جواب، رقيقاً، طويلاً وممدوداً، ثم أخذ يتضخم. كان تحية من راع أو سائح. وأخذنا نحن الإثنان نصغي بصمت وسعادة. خلال فترة الصمت هذه سرت رعشة الابتهاج على طول عمودي الفقري لأني كنت أقف لأول مرة جنباً إلى جنب مع صديق، أحدق معه إلى البعد الفاتن للحياة التي تعج أمامنا، تخيم علينا سحب مهدبة باللون الوردي. وعلى هدى ضوء المساء دبت الحياة في مياه البحيرة بعبث الألوان الرقيق وقبيل غروب الشمس رحت أراقب بضع ذرى متغطرسة، ومتحدية من جبال الألب تندفع فوق الضباب.

قلت: «هناك وطني. الذروة الوسطى "روته فلوه"، وإلى اليمين "غايزورن"، وإلى اليسار وأبعد مهما "سينالبشتوك" المخروطية الشكل. في أول مرة وقفت فوق تلك القمة العريضة كنت في عمر العاشرة وثلاثة أسابيع».

ركزت عيني لأرى ذروة أخرى في أقصى الجنوب. وبعد قليل علق ريتشارد بشيء حيرني.

فقلت: «ماذا قلت؟».

«قلت إنني الآن أعرف ماذا تعمل».

«ماذا؟».

«أنت شاعر».

علت حمرة الخجل وجهي وشعرت بالارتباك، وفي الوقت نفسه تعجبت كيف عرف ذلك.

هتفت: «كلا، أنا لست شاعراً. لقد خربشت عدداً من الأبيات الشعرية وأنا في المدرسة ولكني لم أكتب أي شيء منذ زمن بعيد».

«هلا أطلعتني عليها في وقت لاحق؟».

«لقد أحرقتها، لكني ما كنت لأدعك تراها حتى ولو كانت ما تزال بحوزتي».

«أعتقد أنها كانت من الشعر الحديث الذي يدين بالكثير إلى نيتشه!».

«من هذا؟».

«نيتشه؟ يا إلهي العظيم، ألا تعرفه؟».

«كلا، ومن أين لي أن أعرفه؟».

ابتهج لأني لم أكن أعرف، لكني شعرت بالحنق وسألته كم جلمود جليد عبر. وعندما أجاب: «ولا واحد»، أبديت له الدهشة الساخرة نفسها التي أبداها. فحط يده على ذراعي وقال بجدية هادئة: «أنت شديد الحساسية. لكنك لا تدرك كم أنت إنسان بريء وجدير بأن تُحْسَدْ وما أقل أمثالك. اسمع، في غضون عام أو اثنين سوف تعرف من هو نيتشه وكل شيء عنه أفضل من معرفتي أنا، لأنك أكثر اجتهاداً وذكاءً. لكنك تعجبني كما أنت الآن. إنك لا تعرف نيتشه وفاغنر لكنك ارتقيت العديد من الجبال المغطاة بالثلوج وتحمل وجهاً جبلياً قوي التقاسيم. وأنت أيضاً وبدون أدنى شك شاعر. أستشفُ ذلك من عينيك ومن جبينك».

دُهلت لأنه كان ينظر إليّ ويعبر عن وجهة نظره بصراحة تامة وبدون أي حرج. وجدته نوعاً فائقاً للعادة. بل إن دهشتي وفرحي كانا أعظم بعد ذلك بأسبوع في حديقة البيرة التي كثيراً ما كنا نتردد عليها، وذلك عندما أقسم على إقامة صداقة أبدية معي، وقفز واقفاً أمام الزبائن كلهم، قبلني وعانقني، وأخذ يدور معي حول الطاولة وكأنما مسه الجنون.

عاتبته بحياء قائلاً: «ماذا سيظن الناس؟».

«سيظنون أننا نحن الاثنان إما في سعادة غامرة أو في حالة سُكر قصوى! على أي حال إن أغلبهم لن يأبه للأمر!».

على الرغم من أنه كان أكبر سناً مني، وأشد ذكاءً، وأفضل تنشئة، وأكثر حذقاً وتضلعاً في كل شيء، إلا أن ريتشارد كثيراً ما بدا طفلاً بالمقارنة معي. في الشارع، مثلاً، كان يغازل بشبه سخرية بنات المدارس الصغيرات؛ كان يتوقف بلا داع عن عزف أشد مقطوعات البيانو جدية ليلقي أسخف النكات، وفي إحدى المرات عندما كنا في الكنيسة التفت إليّ فجأة وسط الموعظة وعلّق بنبرة رصينة: «ألا ترى أن الكاهن أشبه بأرنب عجوز وقور؟». كان تشبيهاً ملائماً، لكني رأيت أن عليه أن يحتفظ بملاحظته حتى وقت لاحق، وصرَّحتُ له بذلك.

قال غاضباً: «ومع ذلك كانت مجرد ملاحظة عابرة! ربما كنت نسيتها لاحقاً».

نكاته لم تكن دائماً ظريفة؛ كانت غالباً تعتمد على اقتطاف فيلهلم بوش[1]، لكن ذلك لم يقلقني أو يقلق أي إنسان آخر، لأن ما أحببناه وأثار إعجابنا فيه لم يكن في الحقيقة

---

(1) فيلهلم بوش (1832 ــ 1908): رسام وشاعر ألماني هزلي.

ظرفه وذكاءه بقدر ما كان المرح غير المسؤول الذي يصدر عن مزاجه الطفولي، المنطلق، وينبجس في كل لحظة ويحيطه بهالة من البهجة. وقد يجد له منفذاً من إيماءة، من ضحكة رقيقة، من نظرة مرحة؛ ومن المؤكد أنه لم يكن يبقى مستتراً طويلاً. إنني مقتنع بأنه حتى أثناء نومه كان أحياناً يضحك أو يقوم بإيماءة خفيفة.

كان ريتشارد دائماً يجعلني على اتصال بشبان آخرين. طلاب موسيقيين، رسامين، كتّاب، أجانب من أرجاء العالم كله، إذ كان يبدو أن كل المثيرين للاهتمام وذوي المواهب الفنية المتميزة في البلدة يدورون في فلكه. ومن بينهم العديد من ذوي العقول الجادة والفعالة، من طلاب فلسفة، والجماليين، والاشتراكيين. وقد تعلمت الكثير من هؤلاء جميعاً وتلقيت معرفتي تدريجياً من أشد مجالات الحياة تنوعاً. ثم عملت على إكمالها وقمت أيضاً بقراءات واسعة، وبدأت أكوِّن فكرة عن المواضيع التي كانت تعذِّب أشد أرواح العصر حيوية وتفتتها، واكتسبتُ، زيادة على ذلك، بصيرة حكيمة ومحفزة داخل نخبة أهل الفكر العالمية. وجدت أهدافهم، وطموحاتهم، وعملهم ومُثُلهم العليا ساحرة ومفهومة، وإن لم يحثني أي دافع داخلي قوي على أن أتطابق مع أي مجموعة منهم. فقد لاحظت أن أغلبهم يكرّس طاقات فكره وشغفه كلها لقضايا تهتم بحالة المجتمع، وشؤون السياسة، والعلم، والفن، وأصول التدريس، وقليل جداً منهم كان يشعر بالحاجة إلى بناء شخصيته وإقامة تفاهم مع الحياة والأبدية، بعيداً عن أي قضية عملية. وحتى ذلك الحين حتى أنا لم أكن أعي هذه الحاجة، إلا في فترات متباعدة.

لم أعقد أي صداقات أخرى بسبب تعلقي الغيور والاستثنائي بريتشارد. بل لقد حاولت أن أبعده عن صديقاته اللائي كان يخرج معهن كثيراً وكانت علاقته بهن حميمية. وعندما كنا نتفق على موعد للقاء كنت دائماً دقيقاً حتى الوسوسة في الالتزام بموعدي بغض النظر عن مدى تفاهة المناسبة، وأغضب كثيراً إذا ما تركني أنتظر. وذات مرة طلب مني أن أعرّج عليه في وقت معين لكي نمارس التجذيف. فذهبت، لكنه كان قد خرج. انتظرت عودته ثلاث ساعات، ولكن عبثاً. وفي اليوم التالي عنّفته بشدة لإهماله.

دُهش، وضحك ثم قال: «لماذا لم تذهب لتجذف وحدك إذن؟ لقد غاب الأمر كله عن بالي. أمتأكد أنت من أني لم أسبب لك أي أذى فادح؟».

أجبت بشيء من الانفعال: «إنني متعود على الالتزام بكلمتي بدقة متناهية، لكني أيضاً متعود على تجاهلك هذه الحقيقة وعلى تركي أنتظر. ولكن طبعاً عندما يكون للمرء من الأصدقاء قدر ما لديك..».

نظر إليّ بدهشة كاملة.

«يا إله السموات، إنك بحق تأخذ أمراً تافهاً بجدية كاملة!».

«صداقتي ليست أمراً تافهاً بالنسبة إليّ».

"«هذا القول ترك أثراً بليغاً،

حتى أنه سرعان ما أقسم على أن ينتقم..!»".

هذا ما اقتطفه ريتشارد برصانة، ثم أمسك برأسي وأخذ يحف ذؤابة أنفه بأنفي، على الطريقة الشرقية، ويداعبني إلى أن

انتزعتُ نفسي منه وابتعدت أتقلب ما بين الغضب والضحك، ولكننا عدنا أصدقاء.

وجد الفلاسفة والشعراء، والنقاد المحدثون ـ في كتب مستعارة، وغالباً فخمة ـ ومقالات أدبية من ألمانيا وفرنسا، ومسرحيات جديدة، وصحف باريسية وأعمال نقاد رائجين من البندقية، أقول وجد هؤلاء كلهم طريقهم إلى عليّتي. لكني كنت أقرأ بسرعة وأولي انتباهاً أكبر وأستمد متعة أكثر من كُتّاب القصة الإيطالية القدامى والدراسات التاريخية المفضلين لدي. فقد كان هدفي أن أتخلى عن اللغات بأسرع وقت ممكن وأتكرس حصرياً للاهتمام بالتاريخ. فإلى جانب الأعمال التي تُعنى بالتاريخ العام والمنهج التاريخي، قرأت مصادر ودراسات حول أواخر العصور الوسطى في فرنسا وإيطاليا. وأثناء انهماكي في هذا تعرفت عن قرب إلى شخصيتي المفضلة، الأقدس والأكثر ألوهية بين البشر، القديس فرانسيس الأسيزي. وهكذا تمثلت أمامي الرؤيا التي منحتني قبساً من خصب الحياة والروح، وأخذت تزداد واقعية في كل يوم وتدفئ قلبي بالمثالية، والفرح، وتيه الشباب. في قاعة المحاضرات كان انتباهي ينجذب إلى الثقافة الجادة والشاقة نوعاً ما، وأحياناً المملة. وفي المنزل كنت أعود إلى حكايا من القرون الوسطى، الورعة أو المعذّبة بشكل مريح، أو إلى القصاصين القدامى المتروين الذين أواني عالمهم الجميل، الرحيم مثل ركن ظليل، ضبابي في أرض السحر. وأحياناً كنت أشعر بموجة المثل العليا والشغف الحديثة العاتية تجتاحني. أنصتُّ أيضاً إلى الموسيقى، وشاركت ريتشارد المزاح، واشتركت في تجمعات أصدقائه، وتبادلتُ الحديث مع فرنسيين وألمان وروس، واستمعت إلى مقاطع قُرأت من كتب غريبة

معاصرة، ودخلت إلى محترفات رسامين أو ظهرتُ في حفلات ساهرة، أحاط بي خلالها حشد من الشبان المرتبكين المهتاجين وكأني في كرنفال خيالي.

ذات يوم أحد ذهبت مع ريتشارد إلى صالة عرض صغيرة للوحات الجديدة. فتوقف صديقي أمام لوحة تمثل جبلاً عليه بعض الماعز. كانت مرسومة بعناية وأناقة ولكن بأسلوب عفا عليه الزمن، وخال من أي موهبة فنية. وكان في الإمكان مشاهدة الكثير من مثل تلك اللوحات التافهة، الجميلة في كل صالون، لكنها أثلجت صدري لأنها كانت تمثل بصدق تام مراعي موطني. وسألت ريتشارد عما أعجبه في اللوحة.

قال وهو يشير إلى اسم الفنانة في الزاوية، الذي لم أتمكن من فك طلسم توقيعه باللون الأحمر القاني: «هذه».

«ليس في اللوحة أي شيء مميز. هناك كثير من اللوحات أجمل منها، ولكن جمال الفنانة لا يجاريه جمال. اسمها إرمينيا أغلييتي. إذا شئت نعرِّج عليها غداً ونقول لها إنها فنانة عظيمة».

«أتعرفها؟».

«نعم. لو أن لوحاتها كانت جميلة مثلها، لأضحت فاحشة الثراء ولكفت عن ممارسة الرسم من زمن بعيد. بعبارة أخرى، إنها ترسم بلا أي حماس، ولا تعرف وسيلة أخرى لتكسب بها عيشها».

نسي ريتشارد ما قاله ولم يأت على ذكره ثانية إلا بعد ذلك ببضعة أسابيع.

«بالأمس قابلت إرمينيا أغلييتي. كنا قبل مدة نودُّ أن نقوم بزيارتها، فما رأيك أن نفعل الآن؟. هل لديك ياقة

نظيفة؟ إنها تلاحظ مثل هذه الأشياء». كانت ياقتي نظيفة فذهبت معه، تنتابني بعض الهواجس، ذلك لأن علاقات ريتشارد غير التقليدية بأصدقائه من رسامات وطلاب لم تعجبني قط. فالرجال منهم كانوا خرقاً، وأحياناً جلفين ومتهكمين، والفتيات عمليات، وحاذقات وداهيات، مجردات من الهالة الوردية التي أحب أن أرى النساء من خلالها.

دخلت المحترف يتولاني قليل من الارتباك. وكنت لتوي متعوداً على الجو العام للمحترفات عموماً، ولكن كانت تلك أول مرة أزور فيها محترفاً يخص امرأة. وقد بدا مجرداً من أي قطعة أثاث ومرتباً. كانت هناك ثلاث لوحات منتهية أو أربع مؤطرة ومعلقة على الجدران، بالإضافة إلى أخرى غير منتهية موضوعة على حامل لوحات. باقي الجدران كانت مغطاة بسكيتشات فائقة الجمال والإتقان ومنفّذة بالقلم الرصاص وبمكتبة نصفها خال من الكتب. لم تستقبلنا مضيفتنا بمودة خاصة. بل حطت فرشاتها، واتكأت على خزانة بردائها السرولي، وكان جلياً أنها حريصة على أن لا تضيع معنا الكثير من الوقت.

أغدق ريتشارد بالمديح على اللوحة التي كانت ترسمها. فضحكت رافضة أن تقبل إطراءه.

«ولكن، فراولين، إنني قد أشتري اللوحة! على أي حال، البقرات منفّذة جيداً..».

قالت بهدوء: «إنها ماعز».

«ماعز؟ طبعاً، ماعز. ولها عيون أرى أنها حقاً مذهلة. إنها حية، كأنها ماعز حقيقي. اسألي صديقي هنا، كامينتزيند، الذي هو ابن الجبال ـ سوف يؤيد قولي».

كنت أنصتُ، متقلباً بين السرور والارتباك، إلى الحديث، وشعرت بنظرة الرسامة الناقدة تقيّمني. ظلت تملي نظرها مني فترة طويلة، وبهدوء تام.

«إذن فأنت من سكان الجبال؟».

«نعم».

«هذا واضح. والآن ما رأيك أنت في عنزاتي؟».

«إنها بدون أدنى شك جيدة جداً. على الأقل أنا لم أخطئ فقلت إنها أبقار، كما فعل ريتشارد».

«عظيم. هل أنت موسيقي؟».

«كلا، بل طالب».

لم تقل أي شيء آخر وبات في وسعي عندئذ أن أتفحصها على راحتي. كان قوامها مخبأً ومشوهاً بالرداء السروالي الطويل. لم أجد جمالها أخاذاً. كانت قسماتها حادة، وعيناها قاسيتين قليلاً، وشعرها غزيراً، وفاحماً وناعماً. أما أشد ما فيها إزعاجاً وبشاعة فبشرتها. ذكرتني بجبن الغرغنزولة، وما كنت لأدهش لو رأيت عروقاً خضراء فيها. لم أكن قد صادفت قط مثل ذاك الشحوب الجنوبي وقد بدا تحت نور الصباح القاسي داخل المحترف شحوباً مفزعاً. لا أقصد أنه مثل الرخام وإنما كحجر شديد الشحوب بفعل تقلبات الجو. وكنت أيضاً متعوداً، بأسلوبي الصبياني، على أن أحكم على وجه امرأة من ريعانه، وبشرته الوردية والبيضاء وجاذبيته وليس من تكوينه.

ريتشارد أيضاً خرج خائب الأمل من زيارتنا. لذا فقد ضاعف من دهشتي وفزعي عندما أخبرني بعد ذلك بفترة من الوقت أن إرمينيا أغلييتي ترغب في رسمي. وكان هذا يعني

مجرد بضع اسكيتشات. فهي لم تكن تحتاج إلى وجهي ولكن كان واضحاً أن بنيتي المربوعة تتسم بسمة محلية.

ولكن قبل أن يحدث أي شيء، وقعت حادثة صغيرة أخرى حوّلتْ مجرى حياتي كلها. فذات صباح استيقظت لأجدني وقد أصبحت كاتباً. فبتحريض من ريتشارد رسمت بأشد ما استطعت من دقة وبدافع التدرُّب الصرف على الكتابة الأدبية، شخصيات ممن يحيطون بنا، وحوادث ثانوية، وأحاديث وما إلى ذلك. وكتبت أيضاً بعض المقالات حول مواضيع أدبية وتاريخية. وكان ريتشارد قد دخل غرفتي ووضع خمسة وثلاثين فرنكاً على لحافي، وقال بنبرة صوت رجال الأعمال: «هذه تخصك». وبعد أن فشلت في فهم ما يقصد، أخرج صحيفة من جيبه نُشرتْ فيها إحدى قصصي القصيرة. وكان واضحاً أنه قد أخرج نسخاً من مخطوطاتي، وأخذها إلى أحد أصدقائه الناشرين وباعها له نيابة عني. عندئذ أمسكت بأول مقطوعة نشرت لي مقابل أجر. وانتابتني مشاعر متضاربة لم أكن قد عرفتها قبل ذلك. وبصورة ما انزعجتُ لأن ريتشارد تلبَّس دور العناية الإلهية، ولكن أخيراً تغلبتْ أولى نفحات الإبداع اللذيذة، والجائزة المالية الرائعة، والتفكير في الشهرة الأدبية الصغيرة، على غضبي.

رتّب ريتشارد لي لقاءً مع الناشر في إحدى المقاهي. وطلب الناشر السماح له بالاحتفاظ بالمقطوعات الأخرى التي كان ريتشارد قد عرضها عليه ودعاني لإرسال المزيد من الإسهامات. لقد وجد في كتاباتي شخصية مميزة خاصة في المقالات التاريخية؛ وقال إنه يسعده أن يتلقى مزيداً من الإسهامات وإنه سيدفع ثمنها كالمعتاد. وكنت بالكاد بدأت أستوعب

أهمية الأمر كله. ولم يتوقف تأثير ذلك فقط على قدرتي على تناول وجبات منتظمة وتسديد ديوني الصغيرة وإنما سرعان ما توقفت عن تلقي الدروس التي اضطررت إلى متابعتها، وأخذت أعمل في المجال الذي اخترته، معتمداً كلياً على عائداتي المالية. وفي تلك الأثناء كان الناشر يرسل إليّ، على فترات منتظمة، كومة من الكتب لمراجعتها. وكنت بواسطتها أؤمن لقمة عيشي وأبقى مشغولاً طوال أسابيع. ولما كانت أجوري لا تدفع إلا في نهاية الفصل، وكنت أعيش حياة أكثر رفاهية بفضلها، وجدتني ذات يوم خالي الوفاض من أي قرش واضطررت من جديد إلى اللجوء إلى "علاج الجوع". وصمتُ بضعة أيام في عليتي على حمية الخبز والقهوة، غير أن الجوع أجبرني على الخروج واللجوء إلى أحد المطاعم. أخذت معي ثلاثة كتب للمراجعة لأودعها أمانة بدل دفع فاتورتي. وكنت قد قمت لتوي بمحاولة عقيمة لبيعها في محلات بيع الكتب المستعملة. كانت الوجبة رائعة ولكن عندما وصلت إلى مرحلة شرب القهوة بدأت أشعر بالقلق. واعترفتُ للنادلة ينتابني شيء من الخوف بأني لا أملك مالاً وأني أرغب في ترك الكتب كرهن. فتناولت أحدها، وكان مجموعة من الشعر، وقلّبت صفحاته بفضول وسألتْ إن كنت أسمح لها أن تقرأها. فهي شديدة الولع بالقراءة ولكن لم يكن يتاح لها قط أن تحصل على أي كتاب. وشعرتُ بالأمان واقترحتُ عليها أن تقبلٍ مني الكتب الثلاثة مقابل الوجبة. وافقتْ، وبهذه الطريقة خلّصتني بالتدريج من كتب بقيمة سبعة عشر فرنكاً. ومقابل مجموعات أصغر من الشعر طلبتُ خبزاً وجبناً، ومقابل الروايات الطعام نفسه بالإضافة إلى النبيذ؛ والقصص القصيرة المفضلة لم تكن تجلب لي غير كوب من

القهوة مع شطيرة. وحسب ما تسعفني الذاكرة، كانت الكتب في معظمها من النوع الخفيف، الموشى بأسلوب مفرط في عصريته، ولا بد أن النادلة الطيبة قد كوّنت فكرة غريبة جداً عن الأدب الألماني المعاصر. وأنا أحمل ذكريات ممتعة عن أوقات الصباح تلك حين كنت أجهد نفسي بقراءة أحد الكتب بسرعة فائقة، ثم أخطّ بضعة أسطر حوله لكي أتمكن بحلول منتصف النهار من مبادلته بشيء من الطعام. وقد حاولت أن أخفي فقري عن ريتشارد لأني كنت أشعر بلا داع بالخجل منه، حتى إني قبلت على كرهٍ شديد مني مساعدات متفرقة منه.

لم أكن أرى في نفسي شاعراً عظيماً. وما كتبته كان مجرد شعر مجلات، وليس شعراً حقيقياً. غير أني في قرارة نفسي كنت أغذّي أملاً سرياً في أن يُقدَّر لي أن أكتب ذات يوم شعراً حقيقياً، أغنية للحياة وللتوق، جريئة وطموحاً. كان يغشى مرآة روحي البهيجة والبراقة على فترات ما يشبه غمامة من الكآبة؛ وفيما عدا ذلك لم يكن يكدر صفوها مكدّر. كان يستولي عليّ أحياناً سحابة يوم كامل، وأحياناً خلال الليل، شعور مبهم بالوحشة والغم ثم يتلاشى فجأة، ولا يعاودني إلا بعد أسابيع أو أشهر أخرى. ومع مرور الوقت تعودت عليه كصديق صدوق إلى أن أضحى أقرب شبهاً بالقلق المزعج ذي الحلاوة الخاصة منه إلى العذاب. وعندما كان يغير عليّ ليلاً كنت أتخلى عن النوم وأستلقي عند النافذة طوال ساعات لا أعدّها، أحدق إلى مياه البحيرة المظلمة، وحدود صورة الجبال على صفحة السماء الشاحبة، وإلى النجوم الرائعة فوقها. في مثل تلك الأوقات كان كثيراً ما يغلبني إحساس رائع حتى العذاب وكأنَّ هذا السحر الليلي كله يرنو إليّ بنظرة عتاب لها ما يبررها. وكأن النجوم،

والجبـال والبحـيرة تتـوق إلى مَـنْ يفهمـها ويعـبّرعـن جمالهـا ومعاناتها في وجودها الأخرس، وكأني ذاك الشخص الذي كُتبَ عليه أن يترجم صمـت الطبيعـة بشِعره. ولم أكـن قـد وصلـت إلى مرحلة التفكير في تحقيق ذلك. كنت فقط أشعر بـالليل السـاحر، الرصين، ينتظرني متلهفاً بتوق أبكـم. ولم يحـدث قـط أن قمـت بتـأليف أي شـيء وأنـا في هـذا المزاج الخـاص. ومـع ذلـك كنـت أشـعربمـا يشبه المسؤولية نحـو هـذه الأصـوات الغـامضـة، وبعـد انقضـاء مثـل تلـك الليـالي كنـت عـادة أقـوم بنزهـات سـيراً علـى الأقدام وحدي على مدى أيـام عدة، شـاعراً أن ذاك هـو أسـلوبي الخـاص لأُبدي قدراً مـن الحـب للأرض التي تـهبني ذاتـها بتضـرُّع أعجم. هذه الفكرة كانت تدفعني إلى الضحـك مـن نفسـي. وقـد أضحت تلك النزهات إحدى دعائم حيـاتي اللاحقة، فمنذ ذلك الحين وأنـا أمضـي الجـزء الأعظـم مـن حيـاتي متجـولاً طـوال أسـابيع وأشـهر متنقلاً بين عدد مـن البلدان. وأصبحـت متعـوداً على أن أهيم على وجهي سيراً على الأقدام لا أحمل في جيبي غير قليل من النقود وقطعة من الخبز، أقضي أياماً بأكملها في عزلة تـامة وكثيراً ما أمضي الليل في العراء. وكان انهماكي في الكتابة قد أبعد إرمينيـا أغلييتي تماماً عـن تفكيري. ثـم وصلتني رسـالة منها.

«إنـني أقيـم حفلـة شـاي لأصدقـاء مـن الجنسـين في يـوم الخميس القادم. تعال وأحضر صديقك معك».

ذهبنـا فوجدنـا عُصبـة صغـيرة مـن الفنـانين. كـانوا في معظمـهم مـن المغموريـن، والمـهملين والفاشـلين. وقـد أثـار ذلـك شفقتي عليهم إلا أنهم جميعاً بدوا مرحين جداً. وقُدِّم لنـا الشـاي، والخبزوالزبد، ولحم الخنزير والسلطة. ولمـا لم أكـن أعـرف أحـداً

هناك وكنت متحفظاً بطبيعتي، استسلمت إلى جوعي وظللت آكل بهدوء واستمرار فترة تقارب النصف ساعة، بينما كان الآخرون يرشفون الشاي ويتسامرون. وعندما باشروا بتناول الطعام، عرفوا أني قد استهلكت لحم الخنزير كله، ولم أبق منه شيئاً، متوهماً أنه ما يزال يتوفر على الأقل ملء صحن كَامل منه. وبما إني أصبحت عندئذ موضوعاً للضحك والنظرات المتهكمة شعرت بالغيظ ورحت في نفسي ألعن الإيطالية ولحم خنزيرها. نهضت واقفاً، وباشرت بالمغادرة على عجل، وأنا أشرح لها أني في المرة القادمة سوف أحضر وجبتي الخفيفة الخاصة معي. وعندما تناولت قبعتي انتزعَتْها إرمينيا ورمتني بنظرة دهشة هادئة. وتوسلت إلي كي أبقى. سقط الضوء الذي يرسله مصباح محمول على عمود على قسمات وجهها، وفي غمرة غضبي إذا بي فجأة أُفتَنُ بجمالها الناضج، المبهر. وعلى الفور شعرت أني أحمق إلى أقصى حد وعاجز كلياً. فاتخذتُ لي مجلساً في ركن بعيد في الغرفة مثل تلميذ مدرسة تلقن تأنيباً قاسياً. وبقيتُ هناك جالساً أقلب صفحات ألبوم يضم صوراً لبحيرة كومو. وكان الآخرون يشربون الشاي، يتمشون في المكان، يضحكون وكل منهم يطلب من الآخر أن يخفض صوته. وفي مكان ما في الخلفية كان يُسمع صوت دوزنة آلات كمان وآلة تشيللو ورُفع ستار وإذا بنا نواجه أربعة شبان جالسين أمام مقاعد مرتجلة لعزف الموسيقى، مستعدين لأداء رباعية وترية. هنا اقتربت إرمينيا مني وجلست إلى جانبي. باشر الأربعة العزف واستمروا وقتاً طويلاً، لكني لم أسمع شيئاً منها؛ اكتفيت بالتحديق تعجباً إلى السيدة الهيفاء، الرقيقة، الأنيقة الملبس، الجالسة إلى جواري، والتي كنت أشك في جمالها، والتهمتُ

وجباتها الخفيفة. وتذكرتُ، بمشاعر يمتزج الفرح فيها بالخوف، أنها رغبت في أن ترسمني. ثم انتقلتْ أفكاري إلى روزي غيرتانر، وارتقائي للجدار الجبلي بحثاً عن الورود، وقصة ملكة الثلوج، وبدا لي أنها جميعاً مجرد توطئة لهذه اللحظة الراهنة.

عندما انتهى عزف الموسيقى لم تنهض إرمينيا وتخرج كما خشيتُ أن تفعل، بل ظلت جالسة بهدوء، وبدأت تحدثني. هنأتني على إحدى قصصي القصيرة التي كانت قد قرأتها في الصحيفة. ومزحت حول ريتشارد، الذي كان مركز جذب مجموعة من الصبايا وكان ضحكه المنطلق يرتفع على فترات فوق ضحك الآخرين كلهم. ومرة أخرى طلبتْ أن ترسمني. ثم خطرت لي فكرة. إذ فجأة انتقلتُ إلى التحدث بالإيطالية، فكسبت بذلك فقط نظرة دهشة سعيدة من عينيها البحر أوسطيتين، المفعمتين بالحيوية وإنما أيضاً حظيتُ ببهجة الاستماع إليها تتكلم لغتها الأصلية التي كانت تلائم شفتيها، وعينيها، وبنية جسدها ـ "لغة توسكانية" رخيمة، سريعة، مع أثر فاتن من نبرة منطقة تيتشينو السويسرية. من ناحيتي لم أكن أحسن أو أتكلم بطلاقة أياً منهما، لكني لم أقلق قط لأني كنت سأُرسَم في اليوم التالي.

قلت عند افتراقنا: «"Arrivederla" "إلى اللقاء"»، وانحنيت انحناءة كبيرة.

ابتسمتْ وقالت: «"Arrivederci domoni" "إلى اللقاء غداً"»، وأومأتْ موافقة.

رحت أمشي بخطى واسعة نشطة مبتعداً عن منزلها إلى أن وصل الطريق إلى أعلى تلة والمشهد الطبيعي المظلم الممتد أمامي يرين عليه جو ليلي من الاسترخاء والسكينة. كان هناك

في البحيرة قارب وحيد ذو مصباح أحمر يتهادى ويلقي بضعة أشعة قرمزية خفاقة على المياه السوداء التي كان سطحها الهادئ لا يشوبه إلا تموج عابر فضيّ الحواف. وفي حديقة قريبة، تصاعد نقرٌ على آلة المندولين في الجو ممزوجاً برنين ضحك. كادت السماء تكون سوداء ثم هبت ريح قوية، دافئة، على التلة. وبينما الريح تداعب أغصان شجر الفاكهة والقمم السوداء لأشجار الكستناء، ثم تسوطها بقوة وتثنيها حتى تئن، وتضحك وترتعش، كان ذلك أشبه بصدى مشاعري الخاصة العنيفة. فركعت وتمددت على كامل طولي، ثم قفزت ناهضاً ثانية، وأنا أئن، وضربتُ قدمي بالأرض، ورميت قبعتي في الجو، ودفنتُ وجهي في العشب، وهززت جذوع الأشجار، بكيتُ، ونشجتُ، وغضبتُ، ومرة أخرى شعرت بالخجل من نفسي، وبالسعادة ومن ثم غرقت في حالة يأس تام. وخلال ساعة من الزمن استُنزف جسمي بأكمله وخنقتني نوبة من الاكتئاب. أصبح عقلي فارغاً، لم يعد في مقدوري أن أقرر أي شيء، أو أشعر بأي شيء. هبطت أسفل التل وكأني أسير أثناء نومي، ومشيت حتى وصلت إلى قلب البلدة، فوجدت حانة ما تزال تفتح أبوابها في شارع جانبي، فدخلتها، وشربت ليترين من نبيذ الفيلتلاندر وأنا في حالة انبهار، ووصلت إلى المنزل أجرُّ نفسي جراً عند انبلاج الفجر، وأنا في حالة سكر قصوى.

بعد ظهر اليوم التالي عندما عرَّجتُ على فراولاين أغلييتي أصيبتْ بخوف شديد.

«ماذا دهاك؟ أأنت مريض؟ تبدو في حالة مزرية».

قلت: «لا شيء يستحق الذكر. أعتقد أني أفرطت في الشرب مساء أمس هذا كل شيء. فلنبدأ من فضلك!».

أجلستني على كرسي وطلبت مني أن ألزم الهدوء. وقد فعلتُ كما أمرتْ لأني سرعان ما نعست ونمت طوال فترة بعد الظهر في المحترف. والحلم الذي رأيته أثارته ربما رائحة التربنتاين، إذ كان يدور حول قاربنا في مسقط رأسي. كان قد دُهن حديثاً وكنت أستلقي على الحصباء الرملية قريباً منه، أراقب والدي يدور حوله حاملاً فرشاة الدهان وعلبة الدهان. وأمي أيضاً كانت موجودة، وعندما سألتها أليست ميتة، أجابت بهدوء: «كلا، فلولا وجودي هنا، لأصبحتَ نذلاً كأبيك».

أثناء استيقاظي سقطتُ عن الكرسي ودُهلت إذ اكتشفت أني في محترف إرمينيا أغلييتي. ولم أكن أراها في الواقع لكني كنت أسمعها وهي في الغرفة المجاورة، تقرقع بالأكواب والسكاكين، وتوصلت في تقديري إلى أننا أصبحنا في وقت العشاء.

نادتني: «استيقظت؟».

«نعم، هل أطلت النوم؟».

«أربع ساعات. ألا تخجل من نفسك؟».

«نعم، لكني رأيت حلماً ساراً».

«احكه لي».

«سأفعل إن خرجتِ وسامحتني».

وخرجتْ، لكنها لم تسامحني إلا بعد أن رويت لها الحلم. وأثناء روايتي للحلم غصت من جديد في أعماق طفولتي المنسية. وعندما سكتُّ أخيراً، وكان الظلام في الخارج قد أصبح حالكاً، حكيت لها الحكاية الكاملة لسنوات عمري الأولى. فأعطتني يدها، ومسَّدت سترتي المجعدة، ثم دعتني للمجيء من أجل

جلسة رسم أخرى في اليوم التالي. وشعرت أنها تفهمت سلوكي الفظ وسامحتني.

خلال الأيام التالية جلستُ أمامها ساعات طوال. لم نكن نتبادل أي كلام. كنت أجلس بهدوء تام كالمسحور، أنصتُ إلى صريف قلم الفحم الناعم، وأستنشق الرائحة الخفيفة لزيت الألوان. إحساسي الإيجابي الوحيد كان شعوري بقربي من امرأة أحببتُها، ومعرفتي أن عينيها مثبتتان دائماً عليّ. كان نور المحترف الشاحب ينزلق على طول الجدران، وتطنُّ بضع ذبابات ناعسات على زجاج النافذة وفي الغرفة الصغيرة المجاورة كان لهب مدفأة الكحول يئن. فقد كانت بعد كل جلسة تقدّم إليّ فنجاناً من القهوة.

في المنزل، كانت أفكاري دائماً تدور حول إرمينيا. وعدم تذوقي لفنها لم يؤثر أو فلأقل لم يُضعف من افتتاني بها. هي نفسها كانت فائقة الجمال، والرقة، والهدوء، فما همني من لوحاتها؟ كان في دأبها شيء مميز؛ رأيت فيها امرأة تكافح لتكسب رزقها، بطلةً رابطة الجأش، مُعانية وشجاعة. ولكن لا شيء أقل فائدة من المبالغة في التفكير فيمن تحب. إن هذه السلسلة من الأفكار أشبه بالأغاني الشعبية والوطنية التي تقع فيها ألف حادثة وحادثة، ولكن اللازمة تتكرر برتابة قاسية حتى بعد أن تصبح بعيدة كلياً عن الموضوع.

هذه إذن هي صورة حبيبتي الرسامة الإيطالية الجميلة كما خُزّنتْ في ذاكرتي. إنها ليست بالضبط مبهمة ولكن مع ذلك تفتقر إلى الكثير من التفاصيل الصغيرة التي نلاحظ وجودها عند الغرباء وأكثر ما يميزها عند القريبين منا. فمثلاً لم أعد أذكر كيف كانت تصفف شعرها أو كيف كانت ترتدي

ملابسها، ولا حتى إن كانت ممشوقة القامة أو قصيرة. وكلما فكرت فيها يتراءى لي شعر أسود ورأس نبيل التكوين، وعينان ليستا كبيرتين كثيراً على وجه شاحب، جميل التشكيل، وفم ناضج، غير حِسِّي. لا أستطيع أن أتصورها أو أن أتصور افتتاني بها بدون أن أتذكر ليلة وقفتُ فوق التل والريح الدافئة تهب على البحيرة عندما بكيت، وأنا في حالة شبه هستيرية من فرط السعادة، وليلة أخرى سأسرد وصفها الآن.

عندئذ كان الوقت قد حان لأُدلي لها بما يشبه الاعتراف وأعلن عن حبي. ولو لم نكن على علاقة حميمية لأسعدني أن أعبدها عن بُعد وأن أعاني في صمت. ولكن كما هو منطق الأمور، بعد أن رأيتها، ودخلت منزلها وقلبي يتلوع من العذاب، لم يعد في إمكاني أن أكبح نفسي. فقد أعدَّتْ حفلاً خاصاً للفنانين، ولأصدقائها، أقامته على ضفاف البحيرة، في حديقة غنّاء. استقبلتْ مياه البحيرة الهادئة المجاذيف بغرغرة رقيقة؛ وعامت قوارب هناك وهناك، معتمة، لا تكاد تبدو للعيان على السطح الساكن، لكني لم أولها أي اهتمام، لأن عيني كانتا مثبتتين بشدة على الموجِّهة، وإعلاني المُعَدّ عن حبي يثقل على قلبي الرعديد كخاتم من حديد ثقيل. وجمال الأمسية وشاعريتها ونحن جالسان في القراب، والنجوم، والبحيرة الهادئة والدافئة. كل شيء كان يرهبني، كان أقرب شبهاً بديكور مسرحي يُنتَظَر مني أن أمثل أمامه مشهداً عاطفياً. وأخذت أجذف بكل طاقتي، يملأني الخوف ويخرسني السكون العميق. إذ لم ينطق أي منا بكلمة.

علَّقتْ قائلة في تألم حالم: «ما أقواك!».

قلت: «ألا تقصدين أني بدين؟».

ضحكت: «كلا. أقصد أنك مفتول العضلات».

«نعم، أنا قوي».

لم تكن بداية ميمونة. وتابعتُ التجذيف وأنا منقبض الصدر وغاضب. وبعد قليل طلبت منها أن تحكي لي طَرَفاً من حياتها.

«ماذا تريد أن تسمع؟».

قلت: «كل شيء. والأفضل أن تكون قصة حب. بعد ذلك سأحكي لك قصة من حياتي - في الحقيقة هي الوحيدة. وهي قصيرة جداً وحلوة، وسوف تتسلّين!».

«رائع! هيا ابدأ».

«لا، أنت أولاً! إنك تعرفين للتوعني أكثر بكثير مما أعرفه عنك. أود أن أعرف إن كنتِ قد مررت بعلاقة حب حقيقي، أم أنكِ - كما أتوقع - مفرطة الذكاء والكبرياء!».

فكرتْ إرمينيا قليلاً.

قالت: «إن هذه إحدى أفكارك الرومانسية، أنت تُنصت إلى امرأة تتحدث عن ماضيها هنا في قلب الليل فوق مياه مظلمة، لكني أخشى أني لا أستطيع أن أتفضّل عليك بهذا. إنكم معشر الشعراء عندكم كلام جميل لكل شيء وتعتبرون مَنْ لا يتباهون بمشاعرهم قساة القلوب. لقد أسأتَ فهمي؛ لأني لا أعتقد أن أحداً قادر على حب أقوى وأعمق مني. إنني أحب الرجل المرتبط بامرأة أخرى ويحبني في الوقت نفسه. ومع ذلك لا أحد منا يعرف إن كنا سنتمكن أبداً من الارتباط. إننا نتبادل الرسائل ونتقابل على فترات...».

«هل لي أن أعرف إن كان هذا الحب يجلب لك السعادة أم فقط الحزن؟ أم كليهما؟».

«للأسف، إن الحب لا يوجد ليسعدنا. أعتقد أنه يوجد ليبيِّن لنا إلى أي حد نستطيع أن نصمد في وجه الحزن والمحنة».

على الأقل لقد فهمت هذا الكلام، ولم أتمكن من كبت الأنين الخافت الذي أفلت من بين شفتيّ كجواب. وسَمِعَتْهُ.

قالت: «آه، إذن فأنت أيضاً تعي ذلك؟ لكنك ما زلت شاباً صغيراً. هل ترغب في أن تحدثني عنه؟ فقط إن كنت ترغب حقاً في أن...».

«في مناسبة أخرى ربما، سينيورة أغلييتي. على أي حال، إنني اليوم أشعر بالتوتر. أخشى أني ربما أفسدت عليك أيضاً أمسيتك».

«كما تشاء. كم نبعد عن الشاطئ؟».

لم أجبها. ضغطتُ المجذافين على صفحة الماء مُحدِثاً طرطشة، واستدرتُ بالقارب ورحت أجذف وكأن عاصفة شمالية شرقية تهب. انساب القارب بسرعة على صفحة المياه، ووسط فوضى الأسى والكبت الجسدي المضطربة داخلي، أحسستُ بالعرق يجري على وجهي بقطرات كبيرة إلا أني كنت أشعر ببردٍ شديد. ولما أدركت كم كنت قريباً من لعب دور المتودد الراكع على ركبتيه، والعاشق المرفوض بتفهم أمومي، سَرَت الرعشة في عمودي الفقري. على الأقل لقد وفرت على نفسي ذلك، وأصبحت المسألة الآن تتعلق بالأثر الناتج عن محنتي. ورحت أجذف باتجاه الشاطئ كالممسوس.

لدى وصولنا إلى الضفة، بوغتتْ السينيورة قليلاً عندما تركتُها على عجل واقفة وحدها. كانت مياه البحيرة ساكنة، والموسيقى مرحة والمصابيح الصينية ذات حمرة احتفالية كما تركناها، غير أن كل شيء عندئذ بدا أحمق ولا معنى له. خاصة

الموسيقى. شعرت أني على استعداد أن أضرب ضرباً مبرحاً الطالب بالعباءة المخملية الذي كان ما يزال يلوح بقيثارته المعلقة بحامل من الحرير العريض. وكانت الألعاب النارية توشك أن تبدأ. كم بدا كل شيء صبيانياً!.

استدنت بضعة فرنكات من ريتشارد، وشددت قبعتي على الجزء الخلفي من رأسي وانطلقت خارج ضواحي البلدة، أقطع ميلاً بعد ميل سيراً على قدمي حتى استنزفني التعب فاستلقيت في أحد الحقول وبعد ساعة من الزمن استيقظت لأجدني منقوعاً حتى الجلد بالندى، متيبس الجسم وشبه متجمد من الصقيع، وواصلت مسيري حتى بلغت القرية التالية. كنا في الصباح الباكر، والحاصدون في طريقهم لجمع البرسيم يمشون الهوينة قاطعين الدروب المغبرة، وعمال مزارع ناعسون حملقوا بي من أبواب الحظائر، وكان نشاط المزارعين الصيفي يتجلى في كل مكان. قلت لنفسي وأنا أسير بخطى واسعة، كان يجب أن تظل فلاحاً، وأسرعت في خطاي، شاعراً بالخجل، مخترقاً القرية، إلى أن بدأت أشعة الشمس تصبح دافئة وسمحَتْ لي بالتوقف. وعند حافة غيضة من شجر الزان ارتميتُ على العشب بين حقلين ونمتُ تحت الشمس المحرقة حتى قرابة المساء. وعندما استيقظت ورأسي مفعم برائحة العشب وأطرافي خدرة بتعب ممتع، كما يحدث دائماً بعد النوم فترة طويلة على أرض الله الطيبة، بدت لي مظاهر الاحتفال، والجولة في البحيرة والقصة كلها بعيدة نائية، تثير الشجن وشبه منسية كرواية قرأتها قبل أشهر عديدة.

غبت عن المنزل ثلاثة أيام كاملة، تاركاً الشمس تسفع جلدي وأتساءل هل أعود مباشرة إلى موطني وأساعد والدي في

جمع المحصول الثاني من التبن أم لا. طبعاً مرَّ وقت طويل قبل أن أبرأ من حزني. وعندما رجعت أخذت أتجنب صديقتي الرسامة وكأنها وباء، لكن تلك المرحلة سرعان ما انقضت وأصبحتُ كلما نظرتْ إليّ أو كلمتني، أشعر بغصة.

4

حقق إخفاقي في الحب أمراً يتجاوز قدرات والدي على إدراكه. لقد دفعني إلى معاقرة الخمر. وكان الأثر أبعد مدى من أي شيء أتيت على ذكره حتى الآن في هذه الرواية. لقد أضحى إله الخمر الجميل، القوي، صديقي الصدوق. ولا زال حتى يومي هذا. بمن يمكن مقارنته؟ مَنْ أشد منه وسامة، وأكثر نزوات، ووفرة، ومرحاً وكآبة؟. إنه معاً بطلٌ وساحر، مغوٍ وشقيق لإيروس[1]. في استطاعته أن يحقق المستحيل، ويملأ القلوب الإنسانية المسكينة بشعر جميل، رائع. لقد حولني من ناسك وقروي إلى ملك، وشاعر وحكيم. إنه يملأ شرايين الحياة الفارغة بأقدار جديدة ويعيد المنعزلين إلى التيار العام النابض.

هذه هي طبيعة الخمر، ولكن، وككل الهبات والفنون النفيسة، يجب بذل أقصى الجهود للسعي وراءها، وتذليلها وفهمها وتلطيفها. قليلون يقدرون على تحقيق ذلك، لذا يعمل هذا الإله على تدمير الآلاف منهم. إنه يشيخهم قبل الأوان، أو يقتلهم أو يخمد فيهم جذوة الروح. والأثيرون لديه يدعوهم إلى ولائمه، وينشئ لأجلهم جسوراً من قوس قزح، يعبرونها إلى جزر المباركين. وعندما يتعبون يوسِّد رؤوسهم ويعانقهم، وعندما

[1] إيروس: إله الحب عند الإغريق.

يقعون فريسة للحزن يضم رؤوسهم برفق بين ذراعيه كأمٍ مواسية. إنه يحول فوضى الحياة إلى أساطير عظيمة، ويعزفُ ترنيمة الخلق على قيثارته العُلوية.

في أحيان أخرى يتخذ شكل طفل ذي شعر حريري طويل، وكتفين ضيقين وأطراف نحيلة. يستكنُّ بالقرب من قلبك ويرفع وجهه الصغير نحو وجهك ويرنو إليك بنظرة حالمة من عينين مدلهتين، مستفهمتين، تنبجس من أعماقهما ذكريات من الفردوس المفقود والبراءة المستعادة، تلمعان كنبع مياه منعشة وسط الصقيع. والإله الجميل أيضاً أشبه بغدير مندفع، عميق، يسافر في ليل ربيعي؛ وكبحر يهدهد الشمس والعاصفة، على أمواجه الباردة. وعندما يتسامر مع أخياره، يصب عليهم سيلاً عاصفاً من الأسرار، والذكريات، والشعر والأشواق. ويتقلص العالم المعروف ويتلاشى، وتقفز الروح بفرح مرتعش إلى فجوة المجهول الغامضة حيث كل شيء غريب لكنه مألوف، وحيث تُعتمَد لغةُ الموسيقى، والشعراء والأحلام، لغة رسمية.

ولكن يجب أن أعود إلى مسار حكايتي. أحياناً أجد في إمكاني أن أنسى نفسي وأصبح جذلاً مرحاً على امتداد ساعات طويلة. وتابعت دراساتي وكتبت واستمعت إلى موسيقى ريتشارد. ولكن لم يكن يمر يوم واحد بدون أن أعاني من انقباض القلب. كان يكتفي بالإغارة عليّ وأنا في سريري أثناء الليل وعندئذ كنت أتوجع بصوت عال، فأنتصب في جلستي وأخيرا أظل أنشج حتى يغلبني النوم. أو قد يعاودني بعد لقاء سينيورة أغلييتي. إلا أنه في الغالب كان يحدث في أول المساء، مع بداية أمسيات الصيف الرخية الدافئة. في مثل تلك المناسبات كنت أتوجه إلى البحيرة وأستقل قارباً، وأظل

أجذف إلى أن ترتفع حرارة جسمي وينالني الإرهاق، وأعجز عن العودة إلى المنزل، فألجأ إلى حانة وهناك أتذوق عدة أنواع من النبيذ، ثم أشرب وأطيل التفكير، وفي اليوم التالي أمرض. مرات كثيرة وقعتُ ضحية مثل نوبة الانقباض والغثيان هذه حتى إني قررت أن أكف عن شرب الخمر. لكني كنت دائماً أعود إليه. وشيئاً فشيئاً تعلمت أن أميز بين أنواع النبيذ المختلفة، وأقدر آثارها عليّ وبدأت أستمتع بشربها بخبرة خاصة، ولكن، يجب أن أعترف أن ذلك حدث بأسلوب بدائي وساذج. وأخيرا قررت لصالح نبيذ فيلتلاينر الأحمر القاني. وكان لمذاق كأسي الأول حرافة مثيرة خاصة، ثم غشي أفكاري فأصبحتْ هادئة وحالمة. ومع استمراري في الشرب، أخذ يلقي سحره عليّ ويؤلف شعره الخاص. ومن خلال أبخرته وصفتُ كل المشاهد الطبيعية التي فتنتني، كانت تغلّفني بما يشبه الضوء السحري، ودخلت إليها، غنيت، حلمت وانتابني إحساس بأن ثمة كائناً قوياً، ودودا يحوم حولي. وكان الأمر ينهي معي بمزاج حزين رائع؛ وذلك إذا ما تناهى إلى سمعي عزف أغان شعبية قديمة على آلات الكمان، فأشعر أن ثمة سعادة عظمى قريبة تنتظرني وأني مررت بها وغفلت عنها.

وبدون قصد مني كنت قليلاً ما أشرب وحدي وغالباً ما أجدني وسط صحبة مختلطة. فحين تحيط بي أرواح لطيفة، يكون تأثير الخمر عليّ مختلفاً؛ أصبحُ ثرثارا بدون أي انفعال، وكأني أعاني من حمى باردة، غريبة الشكل. ثم أزهرَ جانب جديد من شخصيتي ـ لم أكن أعي وجوه قط ـ بين ليلة وضحاها، لكنه كان ينتمي إلى عالم الشوك والقراص أكثر منه إلى أزهار الحديقة. فمع تنامي فصاحتي أخذت تخيم عليّ روح حادة، باردة، تجعلني متماسكاً، متعالياً، انتقادياً وظريفاً. فإذا كان

بين الحضور من لا أحبذ صحبتهم، فإني أعمل على إبعادهم بإلقاء الطُرَف الماكرة أو النكات الفظة. ومنذ أيام طفولتي لم أكن أحب أخوتي في البشرية أو أجد أنه لا غنى عنهم، أما الآن فبدأت أتفحصهم بسخرية منتقدة. فقد كنت أستمتع، فوق أي شيء، باختراع قصص صغيرة وروايتها، تتجلى فيها العلاقات بين البشر من خلال ازدراء مدمر، وعملي وهمجي. لم أكن أدري لماذا أفعل ذلك. كان الأمر يتفجر من كياني مثل خراجات متقرحة استغرق مني التخلص منه عدة سنوات. ولا أزال حتى الآن، وأنا وحدي في المساء، أحلم بالجبال والنجوم والموسيقى الحزينة.

خلال تلك الفترة كتبت سلسلة من المقالات حول المجتمع، والثقافة والفن في عصرنا، وألّفتُ كتاباً صغيراً حقوداً، هو ثمرة أحاديثي التي أجريتها في الحانة. ألحقت بعدد من المقطوعات التاريخية المعتمدة على بحثي الكاد جداً في مجال التاريخ، مما كان يمدني بنوع من خلفية صلبة من أجل أهاجيّ[1]. وبفضل هذا العمل عُيِّنتُ مساهماً دائماً في صحيفة هامة جداً، واستطعت تقريباً أن أعيل نفسي من عائدات كتاباتي. وقد نشرتُ المقالات بعد ذلك مباشرة على شكل كتاب وحظيت بقدر من النجاح. في ذلك الوقت تخليت عن دراساتي ونسيتها. وفي تلك الأثناء كنت قد أمضيت بضع سنوات في الجامعة، وكنت على اتصال مع اثنتين من الدوريات الألمانية، وقد ساهم هذا في رفع مركزي من الخمول السابق إلى دائرة المؤلفين المعروفين. أصبحت أكسب لقمة عيشي، وعلّقتُ

---

[1] أهاجي: جمع أهجوّة: مقطوعة هجائية.

اعتمادي على منحتي الدراسية المتعبة، واتجهت بسرعة إلى حياة لا أحسد عليها لأديب محترف صغير.

لكن على الرغم من إحراز هذا النجاح، وإعجابي بنفسي، وعلى الرغم من الأهاجي وقصة حبي المخفقة التعيسة، إلا أن وهج الشباب الدافئ لم يغادرني قط وسط تعاستي وبؤسي. وعلى الرغم من نزعتي الساخرة وحنكتي المعتدلة، ظل في أفكاري توجه، هدف من السعادة وتحقيق الذات. ولم أكن أعرف في أي شكل ستظهر. كل ما شعرت به أن الحياة حتماً ستنثر قدراً رائعاً من الحظ عند قدمي، ونوعاً من الشهرة، وربما الحب، وإشباعاً لاشتياقي وارتقاء بكياني. لقد كنت ما أزال أقرب شبهاً بوصيف يحلم بسيدات نبيلات، بالفروسية وبمظاهر التشريف. كنت أؤمن بأني أضع قدمي عند نقطة صعود منحدر شاهق. ولم أدرك أن كل ما كنت قد خبرته حتى ذلك الحين، ما هو إلا مجموعة من المصادفات، وأن طريقي في الحياة ما يزال يفتقر إلى نوع من التوق لا يشبعه حب ولا شهرة ولا يحيطان به. وهكذا رحت أستمتع بنجاحي التافه، الفج نوعاً ما، بفورة الشباب كلها. كان يطيب لي أن أكون بصحبة رجال أذكياء وظرفاء وأمامي كأس من النبيذ، أراقب عيونهم ترنو إلي بلهفة وانتباه عندما أتكلم.

أحياناً كنت أُصْدَم بتوق أبناء جيلي الجامح لإيجاد حل لمشاكلهم وبالدروب النائية التي يطرقونها. كان الإيمان بالله يعتبر شيئاً أحمق، ويكاد يكون بذيئاً، أما باقي التعاليم والأسماء - شوبنهاور، وبوذا، وزرادشت على سبيل المثال - فكانت تلقى قبولاً واسعاً. كان هناك شعراء شبان مغمورون يؤدون صلواتهم الوقور أمام تماثيل ولوحات في منازلهم الحديثة

الطران. كانوا يخجلون من الانحناء أمام الله لكنهم يركعون أمام زيوس أو تريكولي. وقد كان هناك نسّاك عانوا الأمرَّين من تقشفهم، وأصبحوا أشبه بالفزاعات. "ربهم" كان تولستوي أو بوذا. وكان هناك فنانون سعوا لبلوغ جو أرقى من خلال ورق الجدران الممتان، والموسيقى وفن تناول الطعام، وأنواع النبيذ، والعطور، والسيجار. كانوا يتحدثون بفصاحة عن بيت من الشعر مفعم بالموسيقى، وانسجام الألوان،وما إلى ذلك، وكانوا دائماً في حالة بحث عن "اللمسة الفردية" التي تكمن في الغالب في شذوذ أو خداع ذات صغير، بريء. لقد وجدت أن الوضع العام الشاذ برمته عجيباً ويثير السخرية، لكن ذلك لم يمنعني من إدراك، ورعشة الرعب تهزني، كم من إلهام جاد وطاقة عقلية حقيقية سطعت بهذه الطريقة، ثم انطفأت.

لا أعرف كم من الشعراء والفنانين والفلاسفة الرائجين ذوي المكانة الذين كان يبهجني ويذهلني عندئذ أن أقابلهم، مَنْ حقق أي شهرة حقيقية. وكان هناك شاب من شمال ألمانيا في مثل سني، محبب مرهف وجذاب، دقيق وحساس في المسائل الثقافية كافة. وكان يعتبر أحد أعظم الشعراء الطالعين وبعض أشعاره التي سمعتها ما زال له، كما أذكره حتى يومنا هذا، عبير نادر وجمال أثيري. ولعله كان الوحيد بيننا الذي يمتلك مقومات الشاعر الحقيقي. ولاحقاً تصادف أن سمعت طرفاً من قصة حياته القصيرة. لقد فقد صاحب هذه الروح الفائقة الحساسية ثقته بنفسه لأنه لم يحقق نجاحاً أدبياً، وانسحب من النشاط الاجتماعي ثم وقع بين يدي راع عديم الضمير، وبدل أن يمده بالشجاعة والنصح السديد، تسبب في دماره. وانغمس الشاعر في حوارات جمالية زائفة في دارات تخص راعيه بين

سرب من النسوة الطفيليات، كن ينظرن إليه بوصفه بطلاً مُساءً فهمه، وقد عمل تناوله المستمر لجرعات زائدة من موسيقى شوبان والمبادئ الجمالية الماقبل رافائيلية[1]، على تدمير عقله تدميراً منظماً. إنني لا أقوى على كبح تأثري وتألمي وتعاطفي كلما تذكرت تلك المجموعة من أغرار الشعراء المجعدي الشعور والغريبي الملابس، والأرواح النقية، إذ لم أدرك إلا لاحقاً الأخطار التي كانت تلطي لتلك الحلقات. في تلك المرحلة، هبت فطرتي القروية الجبلية إلى نجدتي ومنعتني من الدخول إلى حلبة المنافسة.

لقد كانت صداقتي أسمى وأجزى عندي من الشهرة، والخمرة، والحب والحكمة. هي فقط هبت لانتشالي من كآبتي المتأصلة وحافظت على سنوات شبابي نضرة، نقية ووهاجة كنور الفجر. إنني حتى هذا اليوم لا أعرف علاقة أنْفَس من صداقة متينة وقوية تربط بين الناس، وإذا ما حدث واستسلمتُ في لحظات من الاستغراق في التأمل لما يشبه الحنين إلى الماضي، فإنه يكون حنيناً إلى صداقاتي في المدرسة.

منذ افتتاني بإرمينيا أهملتُ ريتشارد. في أول الأمر لم أنتبه إلى ذلك، ولكن بعد مرور بعض الوقت تلقيتُ صفعة من ضميري. فاعترفت له بخطأي؛ فقال لي إنه كان يتابع سير العلاقة الفاشلة كلها بحزن عميق، وأنه في استطاعتي الآن أن أستعيد علاقتي القديمة معه بصدق وبلا تحفظ. وأنا الآن أدين له بكل ما نلته من مباهج الحياة الصغيرة، الممتعة والمنطلقة.

---

[1] الماقبل رافائيلية: مذهب فني ظهر في عام 1848. تبنته مجموعة من الرسامين والكتاب، وينادي بمواجهة تقليدية الرسم الأكاديمي، وإحياء الإخلاص للطبيعة وواقعية الألوان.

كان وسيماً يفيض بالحيوية، جسداً وعقلاً، وكان يبدو كأنه لا يعرف شيئاً من هموم الحياة. كان إنساناً ذكياً وحيوياً، ولا يحمل أي وهم حول نزعات عصرنا وأخطائه، لكنها كانت تنسل منه بأمان. وكانت مشيته، وطريقته في الكلام، وكيانه كله، تتسم بالليونة، والخفة والود. وكم كان يضحك! ولم يكن يحبذ أبحاثي في أنواع النبيذ. وأحياناً كان يصحبني إلى حانة، ولكن كان دائماً يكتفي بكأسين من النبيذ ويراقب استهلاكي الهائل منه بدهشة ساذجة. ولكن عندما رأى أنني ضحية لا أمل يرجى منها لنوبات من الكآبة، كان يعزف لي أو يقرأ ويصحبني للتنزه. وأثناء تلك النزهات كنا نصبح صخابَيْن كتلميذين في مدرسة. وفي إحدى المناسبات، بينما كنا نقضي قيلولة في واد كثيف الأشجار، أخذنا نتراشق بكيزان الصنوبر وننشد أشعاراً سفيهة على أنغام عاطفية. وكانت مياه الغدير الصافي، السريع الجريان، ترشش منعشة وتغوينا همساً في آذاننا ونحن نتجرد من ملابسنا ثم نستقر في المياه الباردة. ثم بدأنا نلهو بجنون. فجلس القرفصاء على صخرة تنمو عليها الطحالب متظاهراً بأنه لوريلاي[1] وأبحرتُ أنا ماراً به من تحت. أنا البحّار في قاربه الصغير. بدا أقرب شبهاً بفتاة ومحتشماً، وكان يرسم تعابير مضحكة على وجهه حتى إني، أنا الذي من المفروض أن "رعباً فظيعاً" يشلني، لم أتمالك نفسي من الضحك. وفجأة سمع أصواتاً. وظهرت مجموعة من السياح على الدرب وكان لا بد لنا من أن نستر عرينا بسرعة كبيرة تحت مكان مجوف كان النهر

(1) لوريلاي: في الأساطير الجرمانية، هي حنيّة يقال إنها كانت تقيم فوق صخرة على حافة نهر الراين. ــ المترجم.

قد حفره، بينما أخذت المجموعة تمر بدون أن ترانا والحمد لله. وأخذ ريتشارد يصدر سلسلة من الأصوات، والنخير، والصرير والهس، الغريبة. فتوقف السياح، وتلفتوا حولهم، وحدقوا إلى المياه، وكادوا يكتشفون مكاننا. ثم برز ريتشارد قليلاً من الفجوة وألقى نظرة إلى المجموعة الساخطة، وتلبس هيئة كاهن وهتف بنبرة صوت عميق، رنان «امضوا بسلام!» وعلى الفور غاص عائداً إلى مقره، وقرص أذني. قال: «هذا يشبه تمثيلية تحزيرية[1] أيضاً».

سألته: «وماذا تمثل؟».

ضحك وقال: «تمثل "بان" وهو يُجَفِّلُ الرعاة، ولكن للأسف كان بينهم بعض النسوة!».

لم يبد ريتشارد أي اهتمام بدراساتي، لكنه سرعان ما أخذ يشاركني ولعي بالقديس فرانسيس الأسيزي، على الرغم من أنه كان قادراً على أن يفبرك نكاتاً عنه تثير حنقي. فتتبعنا خطى القديس الصبور في تجواله خلال الطبيعة الأومبرية، مرحاً ومحباً، مبتهجاً بريه ومترعاً بالحنو على البشر جميعاً. ومعاً قرأنا ترنيمته الخالدة للشمس، وحفظناها تقريباً عن ظهر قلب. وذات مرة، وكنا عائدين إلى المنزل من رحلة قمنا بها على متن سفينة في البحيرة ونسيم المساء يغض سطح الماء الذهبي، سألني بهدوء: «ماذا يقول القديس عن هذا؟». فاقتطفت ما يلي:

«مبارك، ربي، في أختي الريح وأخي النسيم وفي السحاب السرمدي!»[2].

---

[1] تمثيلية تحزيرية: مشهد تمثيلي يصور مقاطع كلمة معينة، ثم يطلب من المشاهد أن يحزر معناها.

[2] الأصل بالإيطالية.

عندما كنا نتشاجر ونتبادل السباب كان يرميني بسيل هائل من الألقاب الحمقاء، ودائماً بشبه مزاح وكأنه تلميذ مدرسة، حتى إني لم أكن أقوى على مغالبة الضحك، وكانت الكلمة اللاذعة تستمد من الشجار. ولم يكن ريتشارد يتصرف بجدية نسبية إلا عندما يستمع إلى موسيقى مؤلفيه المفضلين، أو حين يعزف مؤلفاتهم، وحتى عندئذ كان يتوقف فجأة لكي يلقي مزحة. إلا أن حبه للموسيقى كان ينطوي على تبجيل صادق، ونقي وقد بدا لي أن لديه حساً داخلياً أكيداً بما هو أصيل وهام. وكان يتمتع أيضاً بفهم رائع لفعل المواساة الرقيقة وقدرة على المشاركة العطوف في الأحزان كلما وقع أحد أصدقائه في ورطة. وعندما كان يجدني في مزاج غاضب يحكي لي عدداً لا يحصى من الحكايا المسلية إلى حد غريب، وكان في أسلوب سرده لها شيء مبهج ويشيع الحياة، ولا يقاوم.

كان يبدي قدراً من الاحترام لي لأني أكثر جدية، بل إن إعجابه ببنيتي الجسمانية كان أكبر. وكان يمدحني جهاراً أمام أناس آخرين، ويفخر بأن لديه صديقاً يمكنه أن يخنق إنساناً بيد واحدة. لقد كان يقدر كثيراً القوة الجسدية. وعلمني لعب التنس، ومارسنا معاً التجذيف والسباحة، وصحبني في ركوب الخيل ولم يهدأ إلا بعد أن أتقنت لعب البلياردو مثله. كانت لعبته المفضلة، وكان يمارسها بفن وتفوق، وعندما يلعبها يبدو أكثر حيوية، وظرفاً ومرحاً. وكثيراً ما كان يضرب ثلاث كرات تحمل أسماء معارفه ومع كل ضربة من عصا البلياردو كان يفبرك قصصاً كاملة، مفعمة بالظرف، والسخرية والتصوير الكاريكاتوري، وفقاً للموقع النسبي للكرات. غير أن هذا لم يكن يتعارض مع لعبه الأنيق، المتقطع والهادئ الذي كان متعة للناظر.

لم يكن أقل اهتماماً بكتاباتي مني. وذات مرة قال لي: «اسمع، منذ فترة وأنا أعتبرك شاعراً، وما زلت، ليس بفضل إسهاماتك الصحفية وإنما لأني أشعر أن في حياتك شيئاً رائعاً وعميقاً وآجلاً أو عاجلاً سيخرج إلى النور وكائناً ما كان، سيظل شعراً حقيقياً».

في تلك الأثناء تسربت الفصول الدراسية الجامعية كتسرب قطع النقد الصغيرة بين الأصابع، وفجأة وجدنا نفسينا نواجه لحظة فراق ريتشارد وعودته إلى وطنه. ورحنا نتذوق حلاوة الأسابيع المسرعة بشيء من الحماس المصطنع، وكنا متفقين على أن نختتم تلك السنين الرائعة بمرح، وبما يليق بها وبقدرٍ من البريق والاحتفالية قبل حلول موعد وداعنا الأخير والحزين. واقترحتُ عليه أن نمضي فترة عطلة نتجول خلالها في سلسلة جبال الألب البرنيّة، لكن فصل الربيع لم يكن قد حل بعد، وكان الوقت باكراً جداً لارتياد الجبال. وبينما كنت أُجهد ذهني للخروج بأفكار أخرى، كتب ريتشارد رسالة إلى والده وأعد لي سراً مفاجأة كبرى ورائعة. فذات يوم وصل مع مبلغ كبير من المال ودعاني لاصطحابه إلى شمال إيطاليا كمرشد له. وخفق قلبي بمشاعر يمتزج فيها الخوف بالفرح. إن رغبة لطالما غذّيتها منذ أيام طفولتي، وتوقاً سكن قلبي وكان موضوع المئات من أحلامي يوشكان أن يتحققا. وأخذت أعدّ عدتي المتواضعة بحماس محموم، وزوّدت ريتشارد ببعض الجمل الإيطالية، وظللت مذعوراً حتى الدقيقة الأخيرة مخافة أن تفشل خططنا.

أُرسِلَ متاعنا قبلنا وجلسنا في عربة القطار. أخذت المروج والتلال الخضراء تمر منسابة واقتربت بحيرة أورن ونفق القديس غوثار، ثم القرى الجبلية الصغيرة، فالغدران والمنحدرات ذات

الجلاميد الصخرية ومقاطعة تتشينو بذرى جبالها المكللة بالثلوج، تبعتها أولى المنازل الحجرية على كروم العنب المنبسطة ثم المرحلة الأخيرة، الحبلى بالتوقعات، وهي المرور بالبحيرات الإيطالية، وعبور سهول اللومباردي الخصبة باتجاه مدينة ميلانو الجميلة والبغيضة بشكل غريب بنشاطها الصاخب.

لم يكن ريتشارد قد رسم أي صورة في ذهنه لكاتدرائية مدينة ميلانو، لأن كل ما عَرَفَهُ عنها أنها تحفة معمارية شهيرة. وكانت خيبة أمله الساخطة مسلية جداً. وبعد أن أفاق من صدمته الأولية، واستعاد خفة ظله، اقترح أن نصعد إلى سطحها لكي نتمشى بين العدد الهائل من التماثيل الحجرية هناك. وقد اكتشفنا بارتياح كبير أنه ليس هناك من داع لأن نصاب بخيبة الأمل، وذلك لأن أغلب التماثيل البائسة الغفيرة للقديسين المنصوبة على القباب المستدقة، والأكثر حداثة بينها اتضح أنه من النوع العادي المُصَنَّع بالآلات. استلقينا مدة تقارب الساعتين على السطح الرخامي المنحدر والرحب الذي أصبح دافئاً بفعل شمس نيسان المعتدلة. وبينما ريتشارد متمدد هكذا بكل ارتياح، اعترف لي: «أتدري، لا مانع لدي أن أمرّ بمزيد من خيبات أمل كهذه مع هذه الكاتدرائية الرائعة. كنت أخشى قليلاً أن تبهرنا كل "المشاهد الفخمة" التي قد نشاهدها في جولتنا، وها هي تبدأ بطريقة محببة وسخيفة بصورة إنسانية». ثم ألهمه جمع التماثيل الحجرية التي استلقينا بينها بالانغماس في كل صنوف التهور الغريب الأطوار.

بدأ بالقول: «أعتقد أن ذاك الموجود على البرج فوق مجموعة الملائكة، وهي أعلى نقطة من البناء، هو القديس الأرفع

مقاماً والأرقى. وبما أنه ليس من المريح الوقوف بتوازن فوق هذه الأبراج المستدقة، فمن الحكمة أن يرتاح ذلك القديس الأرفع مقاماً بين وقت وآخر ويرتفع إلى السماء. فقط تصوركم سيثير من جلبة في كل مرة يحدث هذا إذ من الطبيعي أن كلاً من القديسين المتبقين سوف يرتفع درجة وكلاً منهم سوف ينتقل بقفزة واحدة إلى البرج المستدق الذي كان يحتله سلفه. سوف يتحرك الجميع بسرعة كبيرة تأكلهم الغيرة من الآخرين الذين سبقوهم».

منذ ذلك الحين كلما مررت بميلانو أتذكر بعد ظهر ذلك اليوم وأتخيل تلك الحشود الرخامية من القديسين وهم يقومون بقفزاتهم الجريئة وأرسم ابتسامة حزينة.

في مدينة جنوا تذكرت تجربة غنية أخرى. حدث ذلك بعد ظهر يوم عاصف، صاف. وكنت أتكئ بمرفقي على حاجز عريض. البلدة الغنية بالألوان تقع خلفي وإلى أسفل امتدت مياه البحر المضطربة، الزرقاء. هاجمني العنصر الثابت، الأبدي، مصحوب بهدير مشؤوم، واشتياق مبهم، وشعرت أن شيئاً ما داخلي قد عقد صداقة سرمدية مع تلك المياه الزرقاء، المبقعة بالزبد.

لم يكن ما خلفه الأفق النائي يختلف عن ذلك. مرة أخرى تخيلتني في أيام الطفولة، تراءى لي كأن المدى الأزرق الرقيق يدعوني إليه كباب مفتوح. ومرة أخرى استولى عليّ شعوري بأني لم أخلق لحياة الاستقرار الدائم في مسقط رأسي بين أبناء بلدي في المدن والمنازل، وإنما للحج في أصقاع أراض أجنبية ولأمخر البحار مرتجلاً. انتابني الشوق القديم الكئيب لأرتمي على صدر الله وأدمج حياتي التافهة في اللامتناهي والسرمدي.

في رابالو استمتعت بمعركتي الأولى مع البحر، وتذوقت لذعة الماء المالح واختبرتُ قوة الأمواج. مياه زرقاء، صافية، تكتنفني، وجروف ذهبية، وسماء من سكون عميق، والبحر لا يكف عن التلاطم. وكنت طوال الوقت أسيرَ مشهد السفن النائية المناسبة، والسواري السوداء والأشرعة البيضاء أو شرائط دخان سفينة بخارية وهي تشق طريقها. إنني، بعد سُحُبي الحبيبة ومجدها التنقل، لا أعرف رمزا آخر أسمى وأبلغ تأثيرا يمثل توق الإنسان وترحاله الطويل غير سفينة تتهادى على البعد وتختفي أخيرا في الأفق المفتوح.

ثم وصلنا إلى فلورنسا. ظهرت المدينة تماماً كما تخيلتها من عدد من الصور ومئات من الأحلام. وضاءة، رحبة مضيافة، يقطعها نهرها الأخضر بما عليه من جسور عديدة، وما يكتنفها من تلال مشمسة. البرج البارز بوضوح لقصر بالاتزو فاكيو يشمخ متحدياً في وجه السماء الصافية. وعلى الأرض المرتفعة خلفه تقع بلدة فيزول الجميلة، بيضاء، ودافئة تحت أشعة الشمس، وكانت التلال كلها ملونة بالوردي والأبيض في موسم الإزدهار الكامل لأزهار الأشجار المثمرة. ونهضت الحياة البريئة، المرحة لتوسكاني كالمعجزة أمامي وشعرت وأنا هناك بإلفة لم أعرف لها مثيلاً في أرض وطني. وهكذا رحنا نملأ فراغ أيامنا في الكنائس، والساحات العامة والشوارع الضيقة، والممرات المقنطرة والأسواق، وكنا نمضي الأمسيات في الحلم ونحن في حدائق فوق التلال نَضَجَ فيها الليمون، أو نشرب ونتسامر في حانات بسيطة صغيرة. وبين هذا وذاك كانت هناك ساعات مجزية نبددها في معارض اللوحات الفنية والمتحف المحلي،

والأديـرة، والمكتبـات العامـة، والمَوْهِفـات[1]؛ وبعـد الظـهر نـزور بلدات فيزول وسان ميناتو، وسيتينيانو، وبراتا.

وفقاً لخطة تم الاتفاق عليها مسبقاً غادرتُ ريتشارد مدة أسبوع، واستمتعت بأروع وأنفس رحلة قمت بها في شطر شبابي في ريف الهضبة الأومبرية الخضراء، الخصبة. طرقتُ الدروب التي كان القديس فرانسيس قد وطأها ذات مرة وكثيرا ما كنت أشعر أنه يسير إلى جانبي، وقلبه،كقلبي، مترع بحب لا يعرف له قرار لمخلوقات الله جميعاً، يحيي كل طائر، وكل وردة بفرح وامتنان. قطفت الليمون وأكلته فوق هضاب مشمسة، ومشرقة، وقضيت ليال في قرى صغيرة، غنيت وألفت شعرا لمتعتي الخاصة، واحتفلت بعيد الفصح في أسيزي[2] في كنيسة القديس الخاصة به.

ما زلت أشعر أن رحلة الأسبوع في منطقة أومبريا كانت تاج شبابي، وأيضاً غروبه المجيد. في كل يوم كانت تتفجر في داخلي ينابيع جديدة وكنت أرنو إلى الطبيعة الربيعية، الجذلة، والمبتهجة، وكأني أنظر إلى العينين المحبتين لله ذاته.

في أومبريا تبعت بتواضع خطى القديس فرانسيس، عازف موسيقى الله، وفي فلورنسا نعمت بتكشف إبداع القرن الخامس عشر أمام عيني. وكنت عندئذ ألّفت لتوي أهاجي في أرض الوطن حول الخياة المعاصرة، ولكني لم أدرك حماقة الثقافة الحديثة للمرة الأولى إلا في فلورنسا. وهناك أيضاً اجتاحني للمرة الأولى شعور بأني سأظل دائماً غريباً في

---

[1] الموهفات: جمع مَوْهِف: غرفة المقدسات وملابس الكهنة في كنيسة. ـــ المترجم.

(2) أسيزي: البلدة الإيطالية التي ولد فيها القديس فرانسيس، وتكنى باسمه. ـــ المترجم.

مجتمعنا الحديث واستيقظ لدي لأول مرة دافع ليقود حياتي خارجه، باتجاه الجنوب إذا أمكن. هناك سيتاح لي أن أتحدث مع الناس وأستمتع بالحياة الطبيعية، النقية، التي أضفى تراث ثقافتها الكلاسيكية، والغابرة، نبلاً ورقياً.

مرت تلك الأسابيع الرائعة براقة وسعيدة، ولم أكن قد رأيت حتى ريتشارد من قبل منتشياً هكذا. وجرعنا كأس الجمال والفرح ونحن نفيض حيوية ومرحاً. ورحنا نتجول متنقلين بين القرى الجبلية، المنسية، التي تغتسل بنور الشمس، وعقدنا صداقات مع أصحاب الحانات، والرهبان، والقرويات، وكهنة القرى المتواضعين؛ واستمعنا إلى الأغاني الليلية المحلية وقدمنا الطعام والفاكهة إلى أطفال سُمر، مليحين، ومن أعالي جبال تغمرها الشمس أشرفنا على توسكاني وسط إشراقة الربيع بينما البحر الليغوري[1] يلمع على البعد. وانتابنا نحن الاثنين إحساس لا مفر منه باقتراب حياة جديدة، خصبة، نستحقها. كان العمل، والكفاح، والمتعة والشهرة من شدة القرب، والسطوع، وفي متناول أيدينا حتى إننا شعرنا أن في مقدورنا أن نستمتع بتلك الأيام السعيدة بلا أي عجلة زائدة. بل لقد قبلنا فكرة فراقنا الذي لم يكن إلا مؤقتاً، ذلك لأننا في ذلك الوقت بتنا ندرك بيقين يتعمق باضطراد أنه لا غنى لأحدنا عن الآخر وأن في استطاعة كل منا أن يعتمد على الآخر وحتى آخر حياتنا.

هذه هي حكاية شبابي. وعندما أعود بذاكرتي إلى الوراء تبدو لي قصيرة كليل الصيف. هي مزيج من الموسيقى، والظرف،

(1) البحر الليغوري: لسان بحري في شمال إيطاليا. ــ المترجم.

والحب، والغرور. لكنها أيضاً ممتعة، خصبة، وتنبض بالحياة كالأعياد الدينية الإليوسية[1].

وقد انطفأ بسرعة ومأساوية كشمعة في مهب الريح.

غادرني ريتشارد في زوريخ. وقد خرج مرتين من عربة القطار ليعانقني، وأومأ برأسه تعبيرا عن عاطفته من النافذة حالما تحرك القطار. وبعد ذلك بأسبوعين مات غرقاً في ألمانيا. ولم تر عيناي وجهه بعد ذلك. لم أكن موجودا في جنازته، ولم يصلني نبأه إلا بعد أن انتهى كل شيء ووري الثرى. فارتميت على أرض غرفتي الصغيرة في العلية، بكيت، وثار غضبي، ولعنتُ الله والحياة بعبارات ضخمة ورخيصة. ولم أكن قد أدركت قبل ذلك أن الشيء الوحيد المؤكد الذي ملكته طوال تلك السنوات كان الصداقة. وها هي قد ماتت واندثرت.

لم أتحمل فكرة المكوث أكثر من ذلك في البلدة التي وأنا فيها احتشدتْ فيّ جمهرة من الذكريات وخنقتني. لم يعد يهمني ما حدث. كنتُ مريض القلب، وكل أوجه الحياة كانت بغيضة في نظري. في ذلك الوقت لم تبدُ هناك بارقة أمل في أن تعود حياتي المحطمة إلى سابق عهدها وتنطلق بأشرعة جديدة مبحرة نحو سعادة رجولية أشد خشونة. لقد قضى الله بأن عليّ أن أتخلى عن أفضل ما في كياني إلى صداقة بهيجة ولا يعكر صفوها معكر. لقد اجتمعنا كقاربين صغيرين ينطلقان بسرعة.. قارب ريتشارد مرح، لا يعرف الهم، ثبّتُّ عليه نظري وكلي أمل في أن يحملني إلى غايتي المجيدة، لكنه غرق مطلقاً صرخة قصيرة، وها أنا الآن بلا دفة، تتقاذفني الأمواج وسط مياه غمرتها ظلمة شاملة.

---

(1) كانت تقام في اليونان القديمة. ــ المترجم.

كان لا بد لي عندئذ أن أنكب على اختبار الملاحة الصعب مهتدياً بالنجوم وأن أصارع شاقاً طريقي في رحلة جديدة لأنتوع تاج الحياة. كنت أؤمن بالصداقة، ويحب المرأة ويالشباب. وهذه الأشياء بدورها تخلت عني. لِمَ لمْ أثق بالله وأسلم أمري لذراعيه القويين؟ لكني طالما كنت طفلاً، رعديداً وعنيداً. كنت دائماً أنتظر أن تقتحمني حياتي الحقيقية، أن تجعلني غنياً وحكيماً وتحملني على جناحيها العظيمين إلى سعادة أكثر نضجاً. لكن الحياة بما هي عليه من حكمة سمحت لي بهدوء أن أواصل طريقي. لم تمطرني بعواصف ولا بنجوم، بل انتظرتْ إلى أن استعدت صبري واتضاعي وانكسرتْ كبريائي. تركتني أمثّل مهزلة كبريائي وتزمتي وراحت تراقب وتنتظر الطفل التائه ريثما يعثر على أمه من جديد.

5

وصلتُ الآن إلى تلك الحقبة من حياتي التي كانت ظاهرياً أكثر حيوية ومرحاً من أي حقبة سبقتها، والتي يمكن في أحسن الأحوال أن تشكل أساساً لرواية تافهة ورائجة. وهنا يجب أن أحكي كيف عُيِّنتُ ناشراً لصحيفة ألمانية، وأفلتُّ العنان لقلمي ولساني الخبيث إلى آخره، ونلت قصاصي ثم وجدتني من جديد أعاني وأتألم. ومن ثم كيف بدأت أعاقر الخمر وانتهى بي الأمر إلى التورط في أعمال مشبوهة، وتركت عملي وطلبتُ إرسالي إلى باريس كمراسل خاص. وكيف أني فيما بعد هدرتُ وقتي في تلك البقعة المهلكة، هدرت وقتي ومارست كافة أنواع المكر والخداع.

إذا ما ألغيت هذه الفترة الوجيزة في حياتي وخدعت الخسيسين الذين ربما يقرأونني الآن، فيجب أن لا يُنسب ذلك إلى جبني. إنني مستعد أن أعترف أني سلكت دروباً كثيرة مغلوطة، وخضت في شتى أنواع القذارة ولم أنج من التلوث. ومنذ ذلك الحين فقدتُ حماسي للحياة البوهيمية و"الرومانسية"، ويجب أن تسمحوا لي أن أتناول الجوانب الأفضل والأكثر حكمة من ماضي حياتي، وأن أنبذ السنين الضائعة وأنساها.

ذات مساء كنت جالساً وحدي في غابة بولونيا أتساءل هل أغادر باريس أم حياتي ذاتها. وللمرة الأولى، وأنا مستغرق

هكذا في التفكير، طفقتُ أستعرض حياتي الماضية، وانتهيتُ إلى أنه لا شيء لدي أخسره. غير أن ذكرى يوم نسيته منذ أمد بعيد عاودتني فجأة. ذكرى صباح باكر من يوم صيفي في قريتي الجبلية ورأيتني راكعاً بجانب سرير احتضار أمي. وتملكني الرعب وشعرت بالخجل لأني سمحت لذكرى ذاك الصباح أن تفلت من ذهني مدة طويلة. وهكذا تخلصت من أفكاري الحمقاء حول الانتحار، لأني متأكد من أنه لا رجل متمالكاً لقواه العقلية يفكر في الانتحار إذا ما شاهد انطفاء حياة إنسان آخر سليمة وطيبة. ومرة أخرى تراءت لي أمي المحتضرة، رأيت عمل الموت، الكئيب، والصامت، مرتسماً على وجهها، والوقار الذي خلعه عليها. بدا الموت شديد الصرامة لكنه في الوقت نفسه كان بمثابة الأب الجبار والرحيم، الذي يعيد إلى البيت طفلاً ضالاً. ومرة أخرى أدركت فجأة أن الموت أخ حكيم وطيب يعرف اختيار اللحظة المناسبة ويمكننا بكل ثقة أن نعتمد عليه. وبدأت أفهم أن الكآبة، وخيبة الأمل، والحزن لا توجد لكي تسبب لنا الأسى، وتجردنا من القيمة والكرامة، وإنما لتوصلنا إلى حالة النضج والتنوير الكاملين.

بعد أسبوع أرسلت أمتعتي إلى بازل، وانطلقت أنا سيراً على قدمي في منطقة ساحرة في جنوب فرنسا، وكنت في كل يوم أزداد وعياً بأن فترة وجودي السيئة في باريس، والتي تتشبث ذكراها بي كرائحة كريهة، تتلاشى بالتدريج. وأضحت حياتي أشبه بحضور محكمة الحب في القرون الوسطى. كنت أقضي الليل في قلاع، ومطاحن، وحظائر وفي صحبة قرويين، سُمر وثرثارين، وأنا أشرب من نبيذهم الدافئ والمنعش.

وصلت إلى بازل بعد ذلك بشهرين، وأنا هزيل، وملفوح بأشعة الشمس، وثيابي في أسوأ حال، وقد طرأ عليّ تغيير داخلي. وكانت تلك رحلتي الطويلة الأولى، لكنها أولى بين عدد كبير منها. فهناك أماكن تقع ما بين لوكارنو وفيرونا، وبازل وبريغ، وفلورنسا وبيروغيا لم أطأها مرتين أو ثلاثاً بجزمتي المغبرة، ألاحق أحلاماً لم يتحقق أي منها.

في بازل استأجرت منزلاً في إحدى الضواحي، واستقريت وباشرت العمل. كنت سعيداً بنزولي في بلدة هادئة لا يعرفني فيها أحد. وكان ما يزال لي ارتباطات مع صحف ومجلات ولدي ما يكفي من العمل وما يكفي من الموارد. انقضت الأسابيع الأولى على ما يرام وبلا أي حادث يذكر، ثم أخذتُ أقع تدريجياً ضحية الكآبة القديمة التي كانت تلازمني أياماً وأسابيع، والتي فشل حتى العمل في طردها. ومَنْ لم يعان من نوبات الكآبة لا يمكنه أن يفهم ما أقول. كيف أصف حالة كتلك؟ لقد كنت أعيش شعوراً فظيعاً بالوحشة؛ كان يفصلني عن بقية البشر والحياة في البلدة، والساحات والمنازل والشوارع بونٌ شاسع لا يمكن عبوره. وقد تقع مأساة رهيبة، وتظهر أحداث هامة في الصحف، لكنها لا تؤثر فيّ. وتقام احتفالات، ويدفن موتى، وتفتتح أسواق، وتقام حفلات موسيقية. ماذا تعني لي؟ وهربتُ، فررت إلى الغابات، والجبال، والدروب وكل ما أحاط بي من مروج، وأشجار، وحقول يرين عليها الصمت، كانت شهوداً خُرساً تحدق إليّ في تضرع أبكم كما لو أنها تتوق إلى أن تنقل رسالة ما، أن تقترب مني وتحييني. لكنها كانت عجماء، وفهمت عذاباتها وعجزتُ عن التعاطف معها بتخليصها منها.

فكرتُ في استشارة طبيب، ووضعت تاريخ حالتي كتابة، في محاولة لأصف شكواي. فقرأ ملاحظاتي، وطرح أسئلة عليّ وفحصني.

قال: «إنك تتمتع بصحة جيدة تُحسد عليها. من الناحية الجسدية أنت لا تشكو من شيء. حاول أن ترفّه عن نفسك بقراءة الكتب وبالموسيقى».

«إن مهنتي تتطلب مني أن أقرأ الكثير من الإنتاج الجديد في كل يوم».

«على أي حال في استطاعتك أن تعالج نفسك بالتمشي في الهواء الطلق».

«إنني أمشي ثلاث ساعات أو أربع كل يوم، وخلال فترة العطلة تتضاعف هذه المدة».

«إذن يجب أن تجبر نفسك على الانخراط في المجتمع. إنك مهدد بخطر الانعزال عن العالم».

«وما أهمية ذلك؟».

«إنه في غاية الأهمية. فكلما ازداد نفورك من الصحبة الآن، تطلَّبَ ذلك جهداً أكبر منك لتنخرط مع أقرانك من الناس. إن حالتك لا يمكن وصفها بأنها مَرَضية حتى الآن، ولا هي تبدو خطيرة، ولكن إذا ما بقيت تهيم على وجهك هكذا بلا هُدى، فسوف يفقد عقلك توازنه في النهاية».

كان الطبيب رؤوفاً ومتفهماً. كان يشفق عليّ. وزكّاني عند عالِم يمكن وصف منزله بأنه ملتقى الحياة الفكرية والأدبية. وتوجهت إلى هناك. كانوا يعرفون اسمي، وكانوا لطفاء، بل ودودين، وكثيراً ما ترددت عليهم.

في إحدى تلك الزيارات هناك. وكانت أمسية يوم خريفي مصقع. قابلت مؤرخاً شاباً وفتاة سمراء، شديدة النحول. لم يكن هناك غيرنا. صنعت الفتاة الشاي، وأكثرت من الكلام وكانت ظريفة على حساب المؤرخ. وبعد ذلك عزفتْ قليلاً على البيانو. ثم قالت إنها قرأت أهاجيَّ، لكنها لم تستمتع بها. وتركا لدي انطباعاً بأنهما حاذقين، بل شديدا الحذق ربما، وسرعان ما عدت إلى المنزل.

في تلك الأثناء أصبح شائعاً أنني أمضي الكثير جداً من الوقت في الحانات وأني أشرب وحدي منعزلاً. لم أدهش لسماع ذلك، ففي مثل تلك الحلقات الأكاديمية المختلطة بالذات تزدهر الفضيحة أكثر من أي مكان آخر. ولم تؤثر الفضيحة المذلة بأي حال على صلاتي الاجتماعية، بل على العكس، جعلتني مطلوباً أكثر، ذلك لأنه كان هناك حماس عظيم لقضية الاعتدال في شرب الخمر. فقد كان هناك منتسبون من كلا الجنسين إلى لجان من مختلف جمعيات الاعتدال في شرب الخمر وكانوا يتهللون فرحاً كلما وقعوا على آثم آخر. وذات يوم، بدأ أول هجوم مهذب. فقد أخذوا يُدخِلون في خلدي ما يحيط بارتياد الحانات من عار، ولعنة الإدمان على الكحول، وكل ذلك من وجهة النظر الصحية، والأخلاقية والاجتماعية، ودُعيت لحضور أمسية يقيمها نادي الاعتدال في شرب الخمر. وكانت تجربة مدهشة. فحتى ذلك الحين لم أكن أعرف شيئاً عن مثل تلك النوادي والحركات. فقد كانت الجلسة بما يرافقها من موسيقى وجو من الإنهاض المعنوي هزلية بشكل مؤلم، ولم أقم بأي محاولة لإخفاء ردود فعلي. وظلوا على مدى أسابيع بعد ذلك يزعجونني بودهم الصافي؛ وأصبحت المسألة برمتها مملة

إلى أقصى حد، وذات أمسية بينما هم يلحون في تنغيمهم على الموضوع نفسه، ويعبرون عن آمالهم في اهتدائي بأسرع وقت ممكن، انتابني اليأس وتوسلت إليهم أن يكفوا عن تقريعهم المطوّل. ومرة أخرى كانت الفتاة السمراء موجودة هناك. وكانت تنصت إليّ بانتباه وتقول: «أحسنت، أحسنت». غير أني كنت من فرط الانزعاج بحيث لم آبه لها كثيراً.

لذلك استمتعت أكثر بكثير في مشاهدة حادثة مشؤومة وقعت أثناء اجتماع حاشد وهام بخصوص الاعتدال في شرب الخمر. فقد اجتمع أعضاء الجمعية الغفيرين وأعداد ضيوفهم الهائلة في وليمة أعدت في مركز إدارتهم. وألقيت الخطب، وعقدت صداقات، ورُتّلت التراتيل، واحتُفل باحتفاء عارم وبهجة بما تحقق من تقدُّم. ووجد أحد الحاضرين، الذي عُيِّنَ حاملاً للراية، أن الخُطَب مملة جداً ولا تطاق، فانتقل إلى حانة قريبة، وعندما خرج الموكب والمظاهرة المهيبين إلى الشوارع، استمتع الخطاة الخبثاء بالمشهد المسلي للقائد الثمل الطروب حامل راية الصليب الأزرق وهي تترنح بين ذراعيه مثل سارية سفينة محطمة.

تخلصوا من الشخص الثمل لكنهم لم يتخلصوا من توافههم ودوافع غيرتهم ومكائدهم التي لا تعد ولا تحصى، والتي نشأت من داخل النوادي والجمعيات المتنافسة كل على حدة والتي ظلت تزدهر ويزداد عددها. وكان في داخل الحركة انشقاق، فقد أراد قطاع من أشد الأعضاء طموحاً أن يستأثر بالمجد كله، واعتبروا أن كل فاسد سكير لم يتم إصلاحه باسمهم جدير باحتقارهم. وكانوا يزدرون المتعاونين المحترمين الإيثاريين، وما كان أكثرهم. وسرعان ما أتيح للمتفرجين

اللامبالين أن يروا كيف يمكن أن تفوح رائحة مختلف أنواع الزلل الإنساني البغيض حتى تصل إلى السماء السابعة، حتى في ظل شعار مثالي. وقد علمت بأمر هذه النشاطات المضحكة من مصادر فريق ثالث، ولدى عودتي من انغماسي الليلي المتكرر في الشراب قلت في نفسي: «انظروا إلينا، نحن الأرواح الأشد طموحاً لسنا أسوأ منكم!».

تابعتُ دراساتي وأبحاثي باجتهاد في غرفتي الصغيرة المشرفة على نهر الراين. وكان من دواعي حزني العميق أن أراقب الحياة تمر من أمامي وتجتازني بدون أن أنخرط في أي تيار جارف. لم يتملكني أي وَلَه عنيف أو ينتزعني من أحلامي التافهة. صحيح أنه بالإضافة إلى مهامي اليومية كنت أعدُّ لتأليف كتاب حول حياة الرهبان الفرنسيسكان الأوائل، لكنه لم يكن عملاً مبدعاً، وإنما مجرد مؤلَّف متواضع وصبور لا يُشبع بأي قدر طموح إبداعي. وفي الوقت الذي كانت ذكريات زوريخ وبرلين وباريس ما تزال حية بدأت أفهم مطامح معاصريَّ، وهوسهم، وأفكارهم. أحدهم حدد لنفسه مهمة إقناع الناس بالتخلص من الأثاث، وأنماط وأشكال ورق الجدران العتيقة الطراز وتعريفهم إلى بيئة أجمل وأكثر حرية. وآخر كان منهمكاً في الترويج لمذهب هيكيل[1] في الأحدية[2] عن طريق كتابة المحاضرات والمؤلفات الرائجة. وآخرون صبوا جهودهم كلها للعمل من أجل استتباب السلام العالمي والدائم. وآخر كان

---

[1] إرنست هاينريش هيكيل (1834 ــ 1919): عالم أحياء وفيلسوف ألماني لديه نظرية في الارتقاء. كان مناصراً للأحدية المادية.

[2] الأحدية: مذهب يقول إن الحقيقة كلٌّ عضوي واحد.

يكافح لصالح المضطهدين الجائعين أو يخطب في الحشود الغفيرة لصالح إقامة مشاريع لإنشاء وافتتاح مسارح ومعارض فنية شعبية. وهنا في بازل كانوا يكافحون الإدمان على الكحول.

هذه الأعمال كلها كان وراءها دافع وحماس. لكني لم أر في تلك القضايا أهمية أو ضرورة، ولم تكن لتترك أي أثر على حياتي فيما لو تم بلوغ كل الأهداف المذكورة. غصت في مقعدي يسربلني اليأس، وأزحت كتبي وأوراقي جانباً، ورحت أتفكر. وهنا سمعت نهر الراين يجري متدفقاً، والريح تعوي، فأخذتُ أنصت، مفتوناً، إلى لغة ذاك التوق والحزن العظيمين وكأنهما يربضان في كمين أبدي. راقبت سحب الليل الشاحبة تنقضُّ عبر صفحة السماء كطيور فَزِعة، وتذكرتُ وأنا أنصت إلى هدير الراين موت أمي، والقديس فَرانسيس، وموطني الهاجع بين الجبال المغطاة بالثلوج، وفي ريتشارد الغريق، المسكين. رأيتني أرتقي من جديد جدران الجرف لأقطف الورود الألبية لروزي غيرتانر، وأنا في زوريخ، ثملاً بالأدب، والموسيقى والأحاديث. رأيتني أجذف في مياه البحيرة عند الغسق مع إرمينيا، ويتغلب عليّ اليأس إبان موت ريتشارد، وأرتحل، وأعود، وأشفى، ومن ثم يعاودني الألم. وما الهدف وراء هذا كله؟ ما النهاية؟ آه، يا رب، أيكون كل هذا إذن مجرد لعبة، مصادفة، لوحة مرسومة؟ ألم أصارع وأعاني العذاب في بحثي عن الروح والصداقة والجمال؟ أما ظلت أمواج الحب والشوق تتوغل داخلي؟ وكل ذلك بلا طائل؛ لم يجلب إليّ غير العذاب، ولم يجلب أي فرح لأي إنسان! في مثل تلك اللحظات كانت الحانة تناديني، فأطفئ النور، وأتلمس طريقي هابطاً الدرج اللولبي العتيق والشديد الانحدار وأذهب لألجأ إلى

إحدى الحانات التي تقدم نبيذ فيلتلاينر أو الفادو الأصيل. وهناك كنت أُستَقبل باحترام كزبون جيد لكني كنت عادة أتصرف بسلوك متحدٍّ وأحياناً شديد الفظاظة. وأقرأ Simplizissmus[1] التي لم تكفّ مرة عن إثارة غيظي، واشرب نبيذي وأنتظر ريثما اشعر بتأثيراته. ثم يلمسني الرب الحبيب بيده الأنثوية، الناعمة، ويُسري تعباً لذيذاً بين أضلعي ويقود روحي التائهة إلى أرض الأحلام الجميلة.

أحياناً كان أسلوب تعاملي الفظ مع الآخرين والتسلية التي أستمدها في السخرية منهم يثيران حتى دهشتي أنا. وفي الحانات التي كنت أتردد عليها، كانت النادلات يخشينني ويلعنني بوصفي كثير التذمر وقليل الذوق، لا أكف عن الشكوى. وإذا دخلت في نقاش مع بقية الزبائن أصبح خشناً وهازئاً، ويبدو أن الناس كانوا يتوقعون ذلك مني. ومع ذلك نجحت في الاحتفاظ بعدد من رفاق الشراب، وكلهم من الفاسدين الكهول الذين كنت أقضي معهم أحياناً أمسية كاملة وكنا على علاقة مقبولة. وكانوا يضمون عجوزاً متوحشاً، وآخر يعمل مصمّماً، وكارهاً للنساء وسكيراً بذيء اللسان من أسفل الأنماط. وكلما اجتمعنا في حانة في المساء دخلنا في مباراة من الشرب. فنبدأ بالتسامر وتبادل النكات، ثم نفتح زجاجة نبيذ أحمر وشيئاً فشيئاً نأتي على الجزء الأعظم منه، وتخمد وتيرة الحديث ويجلس كل منا قبالة الآخر بصمت ينفث دخان سيجاره البريساغو ويشرب من زجاجاته. وكنا متعادلين؛ كانت تُملأ كؤوس كل فريق منا في وقت واحد وينظر إلى الفريق الآخر

---

(1) سمبليتزيسموس: رواية للأديب الألماني غريملهاوزن (1625 ــ 17676).

بمزيج من الخبث والاحترام. وفي موسم جمع العنب في أواخر الخريف انتقلنا ذات مرة بين بعض القرى التي تزرع الكرمة في الماركغرافلرلند، وفي حانة "الوعل" في كيرشن روى لنا الوغد العجوز قصة حياته. وكانت حكاية غريبة الأطوار ورائعة في ذلك الحين لكني للأسف نسيتها تماماً. وكل ما أذكره هو وصفه لحادث شرب الخمر وقع خلال سنوات عمره الأخيرة. وكان ذلك أثناء احتفال قروي في مكان ما من الريف. وبما أنه كان ضيفاً على مائدة الشرف استدرج حتى القس وعمدة القرية إلى مباشرة الشرب في وقت مبكر من مراحل الاحتفال. والمشكلة هي أنه كان على القس أن يلقي خطاباً. وبعد أن نجحوا في جره إلى المنصة، تلفّظ ببعض الأقوال الشائنة وكان لا بد من إبعاده مسربلاً بالعار. وتقدم العمدة ليحل محله لكنه شحن خطابه المرتجل بعنف جعله فجأة يشعر بالغثيان واضطر إلى أن ينهيه بأسلوب غير تقليدي وغير محتشم إلى أقصى حد.

بعد ذلك أصبحت على استعداد لأنصت إلى الوغد العجوز، وهو يحكي لي هذه وما شابهها من القصص مرة أخرى باستمتاع جم، ولكن بعد أن نشب شجار بيننا في الأمسية التي تلت عيد الرمي تحوّلنا إلى عدوين لدودين، نتبادل الإهانات وافترقنا غاضبين. ومنذ ذلك الحين كلما تصادف أن اجتمعنا في حانة نجلس على طاولتين منفصلتين، ولكن بفعل العادة كنا نتبادل التحديق كل منا في وجه الآخر بصمت، ونشرب الكمية نفسها ونظل جالسين هكذا حتى لا يبقى غيرنا من الزبائن ويُطلب منا أن نغادر. ولكن لم نكن نصل قط إلى مرحلة المصالحة.

كانت نتائج أبحاثي الدائمة حول أسباب كآبتي وعجزي عن التأقلم مع الحياة عقيمة ومرهقة. لكني لم اشعر بأي إرهاق أو استنزاف؛ في الحقيقة كنت اشعر بوجود غليان مبهم في داخلي، واقتنعت أنه عندما سيحين وقتي سوف أنجح في إنتاج عمل قيّم وأنتزع على أي حال قدراً يسيراً من الثروة الطائلة لحياتنا الهشة هذه. ولكن هل ستأتي اللحظة المناسبة؟ ورحت أفكر، بشيء من المرارة في أولئك السادة العصريين العصابيين الذين نجحوا، بمساعدة حوافز اصطناعية مختلفة، في أن يستخلصوا بعض الإبداع الفني من أنفسهم، في حين أني كنت أعي أن مصادر القوة الكامنة التي تهجع داخلي، لم تُستهلك بعد. ومرة أخرى تفحصت نفسي لأعرف نوع العائق أو الروح الحارسة التي تسبب ركود روحي وتعمل باضطراد على شللٍ عن الحركة. كنت ممسوساً بالتفكير في أني دخيل، كائن بشري ناقص النمو لا يعرف أحد بمعاناته أو يفهمها أو يشاركه فيها. إن الجانب الشيطاني من وسواس المرض لا يكمن فقط في جعل الإنسان يمرض، بل ويركبه الغرور وقصر النظر، حتى درجة العجرفة. فيعتبر نفسه شخصية درامية، مثل أطلس، كما رسمه الصغير هاينه[1]، يحمل أحزان العالم وألغازه كلها على كتفيه، وكأنما لا يوجد الآلاف غيره يعانون الآلام ذاتها، وهم يهيمون بلا هدى علىٍ وجوههم في المتاهة نفسها. وإلى جانب كوني منفياً ومعزولاً، غاب عن ذهني أن أغلب مميزات شخصيتي ومواصفاتها لا تقتصر عليّ أنا بل هي إحدى سمات العائلة أو كأحد الأمراض التي تصيب آل كامينتزيند.

---

(1) هاينريش هاينه (1797 ـ 1856): شاعر ألماني.

كنت أتوجه إلى منزل البروفسور مرة كل بضعة أسابيع، وهناك أخذت أتعرف جيداً وبالتدريج على الزوار المترددين كلهم. كانوا في غالبيتهم من مدرِّسي الجامعة الشبان، بالإضافة إلى عدد من الألمان من مختلف الكليات، وعدد من الرسامين، والموسيقيين، وعدد ضئيل من المواطنين الأثرياء مع زوجاتهم وبناتهم. وكثيراً ما كنت أحدق مذهولاً إلى أولئك الناس الذين كانوا يعبرون عن قبولهم لي كزائر مؤقت بإيماءة من رؤوسهم. كنت أعرف أنه يرى بعضهم بعضاً كثيراً، أسبوعاً بعد أسبوع. فعمَّ كانوا يتحدثون طوال ذلك الوقت؟ وكان أغلبهم ينتمي إلى النمط التقليدي نفسه الـ homo socialis (الإنسان الاجتماعي)، وكلهم أعطاني انطباعاً بأن ثمة علاقة غامضة تربط الواحد منهم بالآخر بسبب وجود روح القطيع التي توازن فيما بينهم وكنت أفتقر إليها. وكان بينهم كثير من الأشخاص الحساسين والمدهشين الذين تقريباً لم يفقدوا أي قدر من نضارتهم وشخصيتهم المتميزة بتأثير هذه الزيارة الاجتماعية التي لا تنتهي. واستمتعت مع بعضهم بتبادل أحاديث طويلة وشيقة. أما ما لم أحتمله فهو اضطراري إلى الانتقال من شخص إلى آخر بعد تبادل حديث قصير معه، وإغداق النساء بالمديح، ومحاولة توزيع انتباهي في وقت واحد بين كوب الشاي وحديث ثنائي، وعزف انفرادي على البيانو. كم كرهت ذاك النقاش حول الأدب والفن وأدركت مبلغ شحّها بالفكر الحقيقي، وأن أغلب ما قيل كان نفاقاً. وهكذا اشتركت في اللعبة، لكن قلبي لم يكن يطيقها وبدت لي كل تلك الثرثرة العقيمة مملة وسوقية. وكنت أفضل أكثر بكثير أن أسمع أماً تتحدث عن أولادها أو حتى أن أتحدث عن أسفار، وأحداث يومية تافهة وغيرها من

الوقائع من حياتي الخاصة. في مثل تلك المناسبات كان في إمكاني أن أكون ودوداً جداً وأن أشعر بإلفة تامة. إلا أنه كثيراً ما كان يحدث، في ختام تلك الأمسيات، أن ألجأ إلى حانة وأرطب حنجرتي الظمأى وأشطف شعوري العصي على الوصف بالملل بجرعات من نبيذ فيلتلاينر.

في إحدى تلك الأمسيات الاجتماعية قابلت مرة أخرى فتاتي السمراء. كان هناك حشد غفير من الضيوف، وكانت الموسيقى تُعزف والثرثرة على أشدها. جلست في أحد الأركان، أتفحص ملء حقيبة من الرسوم التخطيطية لمنطقة توسكاني. لم تكن مشاهد واضحة، مبتذلة، بل رسوماً أكثر حميمية لأشياء تُرى من زاوية شخصية. هي في أغلبها هدايا من رفاق سفر ومن أصدقاء مضيفي. وكنت قد مررت لتوي بأحد الأكواخ الحجرية ذي نوافذ ضيقة، يقع في وادي سان كليمنته الموحش، لاحظت وجوده بعد طول فترة مكوثي هناك. والوادي قريب جداً من فيزول لكن افتقاره إلى البقايا الأثرية أنقذه من حشود المتفرجين الغفيرة. إنه واد ذو جمال قاس ولكن أخّاذ. قاحل، قليل السكان، محصور بين جبال جرداء وشاهقة؛ ناء، وكئيب، ونادراً ما يتلقى زيارة.

اقتربت الفتاة مني وأخذت ترسل نحوي نظرات مباشرة.

«لماذا تجلس دائماً وحيداً منعزلاً، هر كامينتزيند؟».

غضبتُ. إذ أنها لمّا شعرتْ أن أحداً من الرجال لم يولها أي انتباه ها هي الآن تأتي إليّ.

«حسن، ألا يوجد جواب؟».

«سامحيني، ولكن بماذا يمكن أن أجيب؟ إنني أجلس وحدي لأن هذا يعجبني».

«إذن فأنا أزعجك؟».

«أنت إنسانة غريبة!».

«شكراً لك؛ إنه شعور مشترك».

وجلستْ. أبقيتُ صفحة الورقة بعناد في يدي.

قالت: «أعتقد أنك من أوبرلند. أحب أن أسمعك تتحدث عنها. أخي يقول إنه في قريتكم لا يوجد غير اسم واحد. كامينتزيند. أهذا صحيح؟».

أجبت بحدة: «صحيح تماماً. إلا أنه يوجد هناك خباز يدعى فوسلي وصاحب حانة يدعى نايديغر».

«والباقي كلهم كامينتزيند! وهل تربط بينهم صلة قرابة؟».

«بشكل أو بآخر».

ناولتها الرسم التخطيط. أمسكتْ صفيحة الورق بحزم ولاحظتُ أنها عرفت كيف تنظر إليها فصرّحت لها بهذا.

ضحكت وقالت: «أنت تمدحني، ولكن على طريقة أستاذ المدرسة».

سألتها بخشونة: «أما زلت ترغبين في إطالة النظر إليها أم أعيدها إلى مكانها؟».

«وأين يمثل هذا الموقع؟».

«سان كليمنته».

«وأين هذا؟».

«بالقرب من فيزول».

«هل ذهبت إلى هناك؟».

«نعم، مرات عدة».

«وكيف هو شكل الوادي؟ إن الرسم لا يبين غير مقطع منه».

فكرتُ قليلاً. وتمثل الجمال الرصين، الكالح، للمنظر الطبيعي، أمام عيني اللتين أغمضتهما نضف إغماضة محاولاً أن أحتفظ بالصورة. مر وقت قصير قبل أن أتكلم ثانية، وكنت ممتناً لها لأنها انتظرت وهي صامتة. لقد أدركتْ أني أفكر. ثم وصفت لها سان كليمنته، وكيف يلفه السكون، يرقد محروقاً وجميلاً وسط حرارة ظهيرة الصيف. وذكرت لها أنه بالقرب منه في فيزول تنتشر مهن يدوية متنوعة؛ حيث تُنسَج قبعات القش وتُجدَل السِلال، وتُبَاع التذكارات والبرتقال، ويتعرض السياح للغش ويستجديهم الشحاذون الصدقات. وأعمق في الوادي تقع فلورنسا التي تضم بين جنباتها فيضاً من الذكريات القديمة والجديدة. ولكن لا يمكن رؤية أياً منها من سان كليمنته. هناك لم يعمل أي رسام، ولا يوجد أي آثار رومانية. لقد نسي التاريخ هذا الوادي المسكين. ولكن هناك تتصارع الشمس والمطر مع الأرض؛ هناك تكافح أشجار الصنوبر الملتوية للبقاء، وأشجار السرو العجفاء تتلمس الهواء بأغصانها الطويلة والنحيلة، علّها تستشف إشارة خفية باقتراب هبوب عاصفة عنيفة تختصر الحياة الكئيبة التي تتشبث بها جذورها. أحياناً تمر عربة تجرها ثيران قادمة من مزرعة مجاورة أو تمر عائلة من القرويين في طريق رحلتهم إلى فيزول. غير أن أولئك مجرد زوار بالصدفة، وتنانير القرويات الحمراء التي تبدو في مكان آخر زاهية وتشع حيوية تصبح مزعجة هنا، ولا يأسف المرء لغيابها عن نظره.

وحكيتُ لها عن رحلاتي التي قمت بها مع صديق في أيام شبابي وكيف اتكأت على أسفل أشجار السرو وارتحت على جذوعها النحيلة، وقلت لها إن جمال ذاك الوادي الغريب، الموحش والكئيب، يذكرني بالممرات الجبلية في مسقط رأسي.

ساد الصمت بيننا برهة.

ثم قالت: «أنت شاعر».

رسمتُ على وجهي تعبير استياء.

ثم أردفتْ: «لا أقصد هكذا، ليس فقط لأنك تكتب قصصاً وما شابه، وإنما لأنك تفهم الطبيعة. ماذا يهم بقية الناس إذا خشخشت شجرة أوراقها أو توهج جبل تحت أشعة الشمس؟ أما أنت فترى في ذلك حياة تستطيع أن تشاركهم فيها».

أجبت أنه لا أحد يفهم الطبيعة وأنه على الرغم من محاولة المرء تلمس طريقه ورغبته في الفهم، فإنه لا يواجه إلا بألغاز ويركبه الحزن. إن شجرةً تغتسل بأشعة الشمس، وحجراً مشققاً، وحيواناً، وجبلاً - هذه كلها لها حياتها الخاصة، وتاريخها؛ إنها تحيا، تتألم، تتحدى، تستمتع، وتموت، لكن هذا كله يتجاوز طاقتنا على إدراكه.

بينما كنت أتكلم، كانت تتملقني بانتباهها الهادئ الصبور، وبدأت أرمقها. فواجهتني وثبتت تحديقة مطولة على وجهي. كان تعبير وجهها هادئاً، منتشياً ومشدوداً باهتمام. كانت تنصت إليّ كإنصات طفلة، أو، كشخص راشد عندما ينصت ويستغرق وتسترد عيناه دون وعي منه، إحساس طفل بالدهشة. وبينما أنا أرنو إليها أخذت أدرك بالتدريج مع كل الفرح البسيط الذي يرافق الاكتشاف أنها جميلة جداً.

عندما سكتُّ عن الكلام، هي أيضاً لزمت الصمت. ثم طفرت وقد بهرها ضوء المصباح.

سألتها بدون تفكير: «ما اسمك؟».

«اليزابيث».

ثم ابتعدتْ وسرعان ما طُلب منها أن تعزف شيئاً على البيانو. فعزفتْ وأحسنتْ. ولكن عندما أخذتُ أقترب منها، لاحظتُ كأنها فقدت بعضاً من جمالها.

عندما هبطت الدرج العتيق الطران المريح، وأنا في طريق عودتي إلى المنزل، تناهى إلى سمعي بضع كلمات من حديث كان يدور بين اثنين من الرسامين، كانا يرتديان معطفيهما في الردهة.

قال أحدهما وهو يضحك: «لقد أمضى الأمسية ملازماً الجميلة ليسبت كظلها».

أجاب الآخر: «إنه داهية.. وأحسن الاختيار أيضاً!».

إذن فقد أصبح الأمر مضغة في أفواه مثل هذين الأبلهين، وفجأة تكشف لي أنني، رغماً عني، أفضيت بأخص ذكرياتي وبفترة كاملة من حياتي الحميمة جداً إلى هذه الفتاة المجهولة. كيف وصل بي الأمر إلى هذا الحد؟ وها هي الألسن الخبيثة قد بدأت لتوها تلوك! خنازير!.

ذهبت وتجنيت ذاك المنزل شهوراً طويلة. ثم تصادف أن استوقفني أحد تينك الرسامين المذكورين آنفاً في الشارع.

«لماذا لم تعد تتردد إلى هناك؟».

«لأني لا أحتمل الثرثرة اللعينة التي تدور بينهم!».

ضحك وقال: «آه، نعم، صديقاتنا النساء!».

أجبت: «كلا، بل أقصد الرجال، وخاصة الرسامين!».

خلال الأشهر الستة التالية شاهدت اليزابيث في مناسبات نادرة في الشارع، مرة وهي تتفرج على واجهة محل، ومرة في صالة عرض فنية. في الحالة العادية كانت تبدو جذابة وليست جميلة. كان في حركة جسدها النحيل شيء يميزها

ويمنحها فرادة وحُسناً، لكنه كان أحياناً يضفي عليها مظهراً من المبالغة والتكلف. أما وهي في صالة العرض بدت بحق جميلة. لم تلاحظ وجودي. كنت جالساً في زاوية جانبية، أقلّب صفحات البيان المصور وكانت هي واقفة في مكان قريب، مستغرقة تماماً، أمام لوحة كبيرة لسيغانتيني[1]، تمثل مجموعة من الفتيات القرويات يعملن في مروج يبدو عليها الفقر وفي الخلفية تلوح جبال كالحة. تشبه سلسلة جبال شتوكورن، وفوق ذلك كله غيمة عاجية اللون رُسمت بشكل رائع، يعصى على الوصف، على سماء باهتة، رائقة. وما يلفت نظر المتفرج، على الفور، حجمها الهائل، المختلط بشكل غريب. وكأن عناصرها قد جمعتها الريح للتو وعجنتها وباتت مستعدة لتصعد ببطء إلى عنان السماء. كان واضحاً أن اليزابيث تستحسن هذه الغيمة، لأنها كانت مستغرقة كلياً فيها. ومرة أخرى أشرقت روحها المتراجعة على صفحة وجهها من خلال التعبير المرتسم عليه، وضحكت برقة بعينيها الواسعتين، ورقّقَتْ فمها الصغير ومسدت التجاعيد القاسية المحفورة على جبينها، دلالة على التفكير العميق. لقد غمر عملٌ فني عظيم بجماله وصدقه روحاً، هي بحد ذاتها جميلة وصادقة؛ لقد كان وجهها يكشف عن أشياء كثيرة.

بقيتُ جالساً قريباً منها لا آتي بأي حركة، أتأمل غيمة سيغانتيني الجميلة والفتاة الجميلة الواقعة تحت تأثير سحرها. ثم مسّني الرعب من أن تستدير، فتراني وتحدثني، وتفقد بعملها هذا جمالها. فغادرت المعرض بسرعة وصمت.

---

[1] جيوفاني سيغانتيني (1858 ـ 1899): رسام إيطالي كان يرسم مناظر طبيعية لمنطقة جبال الألب. ـ المترجم.

في نحو ذلك الوقت استعدت استمتاعي بالطبيعة الصامتة وأخذتْ وجهة نظري منها تتغير. بدأت أنطلق باستمرار في رحلات إلى ضواحي البلدة الرائعة الجمال، مفضلاً سلاسل جبال يورا. كنت دائماً أرى الغابات والجبال، والمروج، والبساتين، والأجمات، واقفة بانتظار شيء ما. كنت أشعر أنها ربما تنتظرني أنا؛ ومما لا شك فيه أنها كانت تنتظر شكلاً من أشكال الحب. وهكذا أخذ حبي لهذه الأشياء شكله؛ تصاعد اشتياق قوي، لا يرتوي في داخلي لجمالها الصامت. هاج حب عميق واشتياق داخلي، وهو يكافح للوصول إلى تعبير واع، إلى الفهم والحب.

كثير من الناس يقولون إنهم "يحبون الطبيعة"، وهم يعنون بذلك أنهم لا يمانعون في أن يسمحوا لمفاتنها المعروضة أن تبهجهم. إنهم يخرجون ويستمتعون بجمال الأرض، ويطأون المروج ويجمعون باقات الزهور، وأغصان مورقة، ثم يرمونها أو يراقبونها وهي تذوي في منازلهم. هكذا يحبون الطبيعة. إنهم يتذكرون هذا الحب في أيام الآحاد عندما يكون الجو صافياً وعندئذ ينساقون مع عواطفهم. وهذا كرم منهم إذ أليس "الإنسان المجد الذي يتوج الطبيعة". لهفي، نعم، "التاج!".

وهكذا اكتشفت، بأشد ما يكون الحماس، أساسيات الحياة. سمعت الريح تتنهد فوق ذرى الأشجار، وفيوض الجبال تهدر هابطة الممرات الضيقة والغدران الهادئة تخرُّ وهي تقطع السهول. وعرفت أن الله يتكلم من خلال تلك الأصوات وأن توصُّلي إلى فهم تلك اللغة الغامضة بجمالها الفطري يعني أن أبلغ الفردوس. إن هذا لا يوجد في الكتب؛ الكتاب المقدس يحتوي على تعبير عن "أنين الخليقة ومخاضها". غير أني أدركت

في قرارة نفسي أن الناس في كل الأزمان، وهم أيضاً كانت تتغلب عليهم أشياء تتجاوز فهمهم، كانوا يتركون عملهم اليومي وينطلقون بحثاً عن السكينة لكي ينصتوا إلى همهمة الخليقة ويتأملوا تحركات السحب؛ والنساك، والتائبون، والقديسون متشابهون في هذا، مترعون بتوقٍ قلق، يمدون أيديهم نحو السرمدي.

هل سبق لك أن زرت الكامبو سانتو في بيزا؟ إن جدرانه مغطاة بجداريات جصيَّة[1] باهتة من العصور الغابرة، إحداها تمثل حياة نُسّاك الصحراء. وهذا الرسم الساذج، ما زال حتى يومنا هذا يشع، على الرغم من ألوانه الباهتة، بسحر السكينة التي ترفرف عليها السعادة حتى إن المرء ليرغب فجأة بقوة في أن يعترف بآثامه وشروره في مكان قصي ولا يعود منه أبداً. وقد حاول فنانون لا حصر لعددهم أن يعبّروا عن توقهم من خلال لوحات دينية، وأي من لوحات لودفيغ ريختر الرقيقة التي تمثل أطفالاً تحكي الحكاية نفسها التي ترويها جداريات بيزا الجصية. فمثلاً، لماذا يزوِّد تيتيان[2]، ذاك العاشق للجامد والملموس، لوحاته الواضحة، والموضوعية، بتلك الخلفية من أرقّ تدرجات اللون الأزرق؟ وهو يتألف فقط من شريط من اللون الأزرق الدافئ، العميق. وأنت لا تفهم إن كان يقصد به أن يوحي بجبال نائية، أم بأفق لا حدود له. إن تيتيان الواقعي لم

---

[1] الجدارية الجصية: لوحات فنية تُرسم بالجص، على الجدران، تمثل عادة جانباً من الحياة العامة. ـــ المترجم.

[2] تيتيان (اسمه الأصلي تيزيانو فيتشيليو) (1490؟ ـــ 1576): رسام إيطالي. أحد أعظم فناني عصر النهضة.

يكن يعي ذلك. إنه لم يرسم لوحته كما يحلو لمؤرخي الفن أن يؤكدوا على أساس تناغم الألوان وحده، إنه فقط تَقْدِمة منه إلى العنصر القلق، الذي لا يعرف السكينة، ويكمن حتى في روح إنسانه السعيد أثير الحظ السعيد المدلل. إن الفن بالنسبة إلي كان دائماً يبذل جهوداً مضنية ليعثر عن التوق المتأصل الحقيقي إلى الجانب القدسي فينا.

لقد عبر القديس فرانسيس عنه بأسلوب أكثر نضجاً، لكنه أكثر طفولية. والآن، وللمرة الأولى في حياتي أجدني أفهمه. إنه، بتضمينه الأرض برمتها، النباتات، والحيوانات، والأجسام السماوية، والرياح والمياه في حبه لله، إنما كان يستبق العصور الوسطى، حتى دانتي ذاته، واكتشف لغة يعبّر بواسطتها عن السمة الإنسانية الأبدية. اعتبر أن القوى والظواهر الطبيعية كلها "أخوة وأخوات أعزاء" له. وعندما أدانه الأطباء خلال سنوات حياته الأخيرة لكي يدعهم يسفعون جبينه بالحديد الحامي حتى الاحمرار، فإنه حتى في ذروة رعبه من التعذيب الشديد كان قادراً على تحية "أخته العزيزة، النار" في هذا الحديد الرهيب.

مع نمو الحب الشخصي للطبيعة داخلي وإنصاتي إلى صوتها وكأنه صوت صديق ورفيق سفر يتحدث بلغة أجنبية، أصبحتْ كآبتي، التي لم أشفَ منها، نبيلة ونقية. وازدادت حاسة سمعي وبصري رهافة، وتعلمتُ أن أحيط بأدق الأشياء وأرهف الفروق، وتقتُ إلى سماع نبض الحياة بكل تجلياتها بصفاء أشد وعن قرب. وحتى ربما لفهم هِبة التعبير عنها والاستمتاع بوسيلة شِعرية لكي يتمكن حتى الآخرون من الاقتراب منها ولينشدوا منابع كل نضارة، ونقاءٍ وبراءة طفولية بفهم عميق.

وحتى تحقّق ذلك ظل مجرد رغبة، وحلم. ولم أكن أدري إن كان سيتحقق يوماً، وفعلتُ ما هو أشد قرباً منه أي أن أحب كل ما هو مرئي ولم أعد أعامل أي شيء مما يحيط بي بازدراء أو لامبالاة.

أجد من المستحيل عليّ أن أصف الأثر المحيي والمريح لهذا على حياتي القاتمة. إذ لا شيء أشد نبلاً وقداسة من حب هادئ، ومستمر، ورزين، ولم أكن لأرغب في أكثر من أن أعرف أن بضعةً، ربما اثنين، أو حتى فقط واحداً من الذين يقرأون كلماتي هذه، سيتعلمون هذا الفن النقي، والمقدس على ضوء أمثولتي. إن هذا الحب متأصل في الكثيرين وهم يصبحون من غير قصد منهم مناصرين له من خلال حياتهم؛ إنهم أحباء الله، الطيبون والأطفال بين الرجال. وقد تعلمه الكثيرون من خلال تجربة حزن عميق. ألم تلاحظ مثل أولئك الناس بعيونهم الوادعة، المتأملة، البراقة بين صفوف المعاقين والمرضى؟ إذا كرهتَ الإنصات إلى كلماتي الفقيرة، اذهب إلى الذين تغيّروا واستناروا بتغلبهم على بلاياهم بالحب الإيثاري. إنني ما زلت حتى هذا اليوم بعيداً بشكل مفجع عن ذاك الكمال الذي اكتشفته في العديد من المرضى. إلا أنني طوال تلك السنين لم أُحرَم سلوى معرفة الطريق الصحيحة إلى مثل ذاك الشعور. وهذا لا يعني أنني كنت دائماً أسير عليها؛ بالأحرى لقد كنت أتوانى عند كل موقع للتوقف على طريقي وكنت مذنباً بالقيام بالتفافات خرقاء غير قليلة. وكانت في داخلي رغبتان أنانيتان تقاومان الحب الحقيقي: ولعي بالعزلة وإدماني على الخمر. لقد كنت انطوائياً وسكيراً. في الواقع كنت قد خفضتُ من استهلاكي للنبيذ بدرجة كبيرة، ولكن الإله المخادع كان يقنعني

أحياناً، بالارتماء بين ذراعيه. نادراً ما كنت أنطرح مخموراً على الطريق أو أنغمس في أشكال أخرى من المرح الليلي، إذ يبدو أن النبيذ يحبني واكتفى حتى ذلك الحين بغوايتي. ولكن ليس إلى درجة ترك روحينا المحترمتين تقيمان حواراً ودياً. كان ضميري يؤنبني بعد كل جولة من الشراب، ولكن اتضح في النهاية أن ولعي بالنبيذ أقوى من أن أتغلب عليه؛ كان إرثاً أخذته عن والدي ورعيته مع الهم والتقوى على مرّ السنين، وتطابقتُ تماماً معه. لذا لا بد لي أن أجد مهرباً وانتهيتُ إلى وضع ميثاقَ شبه حاد بين رغبتي وضميري؛ لقد أضفتُ "أخي العزيز النبيذ" إلى ترتيلة تسبيح القديس الأسيزي.

6

خطيئتي الأخرى التي كانت تتربص بي كانت أفدح: إن صحبتي لأقراني من الرجال لم تكن تمدني بأي متعة. عشت كناسك وكنت دائماً مهيأً لتناول القضايا الإنسانية بازدراء وسخرية.

في بداية حياتي الجديدة لم أكن أولي المسألة كبير اهتمام. كنت أرى من الصواب أن أدع أقراني البشر وشأنهم وأوفر حناني وتفانيّ واهتمامي بحب الطبيعة العجماء. فأولاً وقبل أي شيء كان هذا يرضيني كلَ الرضا. وقبل لجوئي إلى النوم ليلاً كنت أفكر فجأة في سفح التل وحافة الغابة، وفي شجرة منعزلة أثيرة لم أرها منذ وقت طويل. إنها هناك منتصبة في وجه الريح، هاجعة، وربما تحلم، وتئن، وتومئ بأغصانها. كيف كان شكلها؟ وأراني أغادر المنزل وأتجه نحوها، فأشاهد شكلاً غير واضح يلوح في الظلام. أعاينه بإعجاب محب وأحمل صورته المبهمة معي.

سوف تبتسم. لعل هذا الحب خطأ، لكنه لم يذهب هباءً. ولكن كيف كان لي من ذاك الموقع أن أعثر على الدرب المؤدي إلى حب البشر؟.

إنك حالما تنطلق في مسار ما، تجد أن أفضل النتائج تتحقق من تلقاء ذاتها. إن فكرة عملي الشعري العظيم تلوح أمام عيني، تبدو أبعد ما يكون عن منالي. وعندما منحني حبي

للطبيعة القدرة على التكلم بلغة الغابات والأشجار كشاعر، من الذي استفاد من ذلك؟ ليس فقط الطبيعة وما أحببته فيها، وإنما البشر جميعاً الذين من أجلهم جعلتُ من نفسي دليلاً لمزمور الحب وحامله. لكني كنت ما أزال أخرق، ومزدرياً وأفتقر إلى الحب في موقفي منهم. كنت واعياً لهذا الانقسام ولحاجتي إلى مقاومة هذا الجفاء الفظ، وإلى أن أظهر لأخوتي البشر شيئاً من التعاطف. لكن الأمر كان صعباً، ففي ظل هذا الاحترام اتحد القدر والوحدة ليجعلاني قاسياً وحروناً. لم يكن يكفيني أن أبذل مجهوداً في المنزل وفي الحانة، أن أكون أقل جلافة وأن أومئ للناس الإيماءة الودية العفوية عندما أقابلهم في الطريق. ثم إنه لم يكن في وسعي إلا أن ألاحظ إلى أي مدى أفسدتُ علاقتي بالناس، ذلك لأن مبادراتي الودية كان يُنظَر إليها بفتور وريبة وتُفسَّر على أنها تعطُّفٌ ساخر. وأسوأ ما في الأمر أني تجنبت التردد على منزل صديقي ومعلمي - وهو المكان الوحيد الذي كنت أستطيع أن أعرج عليه خلال الردح الأكبر من العام، ورأيت أنه لا بد لي أن أدق على بابه من جديد وأجد وسيلة ما لولوج الحياة الاجتماعية مرة أخرى بوصفي مقيماً في بازل.

هنا هبّت نقطة ضعفي الإنسانية المكروهة إلى نجدتي. فحالما عادت بي الذاكرة إلى ذاك المنزل تراءت لي اليزابيث، جميلة كما كانت وهي واقفة أمام غيمة سيغانتيني، وأدركت فجأة مدى ضخامة الدور الذي لعبَتْه في توقي وفي كآبتي. ثم فكرت جدياً وللمرة الأولى في حياتي في اختيار شريكة لحياتي. وكنت حتى ذلك الحين شديد الاقتناع بعدم أهليتي للزواج حتى إني قبلت الفكرة بسخرية لاذعة. فأنا قبل أي شيء شاعر، وجوّال، ومدمن على شرب الكحول، وذئب متوحد. أما الآن

فبتُّ أؤمن بأني أميّزُ قَدَراً تواقاً إلى تزويدي بجسر يصلني بعالم البشرية، على صورة شريكة في الحب. لقد بدا كل شيء جذاباً جداً ومؤكداً. وشعرت وأدركت أن اليزابيث لم تكن تمانع، إلى جانب أنها صاحبة شخصية نبيلة ومستجيبة. وتذكرت كيف انتبهت للمرة الأولى إلى جمالها في سياق حديثنا عن سان كليمنته، وأيضاً وهي واقفة أمام لوحة سيغانتيني. لكني كنت على امتداد سنين عديدة أعمل على ملء خزانة داخلية، نفيسة بالفن والطبيعة. سوف أعلّمها أن ترى الجمال الكامن في كل شيء. سوف أحيطها بالجمال والحقيقة حتى أنفض الحزن عن وجهها وروحها وسوف تصبح قادرة على أن تدرك إدراكاً تاماً إمكانياتها. والغريب في الأمر أني كنت غافلاً تماماً عن الجانب الفكه لتحولي المفاجئ. لقد انقلبتُ، أنا المتوحّد والمتنحي، بين ليلة وضحاها إلى أحمق شاب متيّم، يحلم بنعيم الزواج وببناء بيت.

وانطلقت مسرعاً إلى المنزل المضياف، فاستُقبِلتُ بعبارات العتاب الودي. ثم بدأتُ أتردد على ذلك المكان، وبعد قيامي ببضع زيارات قابلت اليزابيث مرة جديدة. إنها جميلة بدون أدنى شك. بدت بالضبط كما تصورتها كعروس لي. جميلة وسعيدة. ومكثتُ ساعة من الزمن أتنعم بجمال حضورها. نفحتني ترحيباً لطيفاً، كلا، بل حاراً، ووداً حميماً أثلج صدري.

أتذكرون تلك الأمسية على صفحة مياه البحيرة، في القارب، بمصابيحها الصينية، والموسيقى وتصريحي عن حبي، الذي قضى وهو في المهد؟ لقد كانت قصة غرام مراهق، حزينة

ولكن سخيفة. والأسخف منها والأشد حزناً قصة بيتر كامينتزيند، الرجل الراشد العاشق.

لقد سمعتُ عَرَضاً أن اليزابيث قد خُطِبتْ. وهنأتها، وتعرفت إلى خطيبها، الذي جاء ليصحبها، وهنأته هو أيضاً. وطوال الأمسية ثبَّتُ ابتسامة رقيقة على وجهي، أثقلتْ عليّ كقناع. بعد ذلك خرجت هارباً، ولكن هذه المرة ليس إلى الغابة ولا إلى الحانة. جلست على سريري أحدق إلى المصباح وأنا في حالة من الدهشة البكماء إلى أن أخذ يدخّن ثم ينطفئ. وأخيراً، عدت إلى هذا العالم. ومرة أخرى نشر الحزن واليأس أجنحتهما السوداء عليّ، وانطرحت منكمشاً وضعيفاً ومحطماً ورحت أنشج كطفل.

في صباح اليوم التالي حزمت أمتعتي وتوجهت إلى المحطة وانطلقت إلى أرض الوطن. كنت مشتاقاً إلى ارتقاء جبل سينالبستوك، والتفكير في عهد طفولتي ولكي أعرف إن كان والدي ما يزال حياً. كنا قد أصبحنا غريبين. كان والدي يتقدم في العمر وقد انحنت قامته قليلاً وضؤل حجمه. عاملني بحياء رقيق، ولم يطرح أي أسئلة، وأراد أن يتخلى عن سريره لأجلي، ولم يكن ارتباكه يقل عن دهشته من زيارتي. كان ما يزال يملك المنزل لكنه باع المروج وقطيع الماشية، وكان يتلقى راتباً سنوياً صغيراً. وكان يقوم بأعمال متفرقة.

بعد أن غادرني ذهبت إلى حيث كان يقوم سرير أمي، فتدفق الماضي كله، ماراً بي كنهر عريض، هادئ. كان الشباب قد غادرني وفكرت كم تمر السنون بسرعة وأني سوف أصبح عجوزاً محني الظهر ثم سأنطرح وأموت ميتة مريرة. وفي الغرفة الرثة، التي لم تكد تتغير التي تعلمت فيها ذات مرة اللاتينية

وشهدت احتضار أمي، كان اهذه الأفكار تأثير مهدئ. وتذكرت بامتنان تجربة شبابي الثرية كلها، والقصيدة التي تعلمتها في فلورنسا، وكتبها لوريتزودي ميديتشي، خطرتْ في بالي:

«مَهما كان الشباب جميلاً،
فإنه ينقضي بسرعة؛
ومن أراد أن يكون سعيداً مبتهجاً فليعلم
أن الغد غير مؤكد»[1].

في الوقت نفسه دُهشت إذ وجدتني أستحضر ذكريات عن إيطاليا، والتاريخ، ومملكة العقل الشاسعة إلى هذه الغرفة العتيقة في منزلي.

أعطيت والدي بعض النقود. وفي المساء ذهبنا إلى الحانة فوجدت أن كل شيء كان كسابق عهده، الاختلاف الوحيد هو أني في هذه المرة أنا الذي دفعت ثمن النبيذ وأنه عندما تحدث والدي عن نبيذ وشمبانيا "النجمة" ترك الاختيار لي، وأني في هذه المرة صمدت أكثر منه. وسألتُ عن القروي العجوز الذي سكبت ذات مرة النبيذ على رأسه الأصلع. لقد كان مضحكاً وأفضل من يلقي النكات، لكنه مات منذ زمن بعيد، وبدأ العشب ينمو فوق مزاحه. وشربت نبيذ فادو، وأنصتُّ إلى الحديث الدائر، وساهمت فيه قليلاً. وفي طريق عودتي إلى المنزل تحت ضوء القمر برفقة والدي، وكان لا يكف عن الثرثرة والإيماء بيديه في الظلام، شعرت شعوراً غريباً بأني خاضع لقوة سحرية، كما لم يحدث لي من قبل. كنت محاطاً بأشباح من الماضي - الخال كونراد، روزي غيرتانر، والدتي، ريتشارد وإرمينيا

---

[1] الأصل بالإيطالية.

أغليتي، ورحت أحدق إليهم كما يحدق المرء في كتاب مصور ومع تقليبه لصفحاته يصاب بالدهشة لأن كل شيء أكثر جمالاً وكمالاً من الواقع. ورأيت كيف أن كل شيء قد تلاشى، وبل ونُسي، ولكنه مع ذلك ظل يمثل أمام ناظري بوضوح لا تشوبه شائبة: إنه نصف حياتي، الذي حفظته ذاكرتي دون قصد منها لأجلي.

لم تعد أفكاري إلى اليزابيث إلا بعد أن وصلنا إلى البيت في وقت لاحق من الليل، عندما لف الصمت والدي، ومن ثم استغرق في النوم. بالأمس فقط حييتني؛ وأعجبت بها وتمنيت لخطيبها التوفيق. وكأن زمناً لا نهاية له مرّ منذ ذلك الحين. لكن حزني أفاق وامتزج مع فيض من الذكريات المستعادة وضربتْ على جدار قلبي الأناني، والسريع التأثر كما تضرب رياح الفون على الكوخ الألبي، المتهدم، المرتعش. لم أُطِقْ المكوث في المنزل. فارتقيت النافذة، وخرجت أتمشى في الحديقة حتى وصلت إلى البحيرة، حلَلتُ القارب الطويل المهمل، ورحت أجذف برفق داخل المياه المعتمة. كانت الجبال الفضية، القاتمة والواجمة بصمتها، تطوقني: تدلى القمر البدر في الليل الضارب إلى الزرقة، وكادت قمة جبل شفارتتزنشتوك تبلغه. كان الجو من السكون حتى أمكن سماع هدير شلال جبل سينالبشتوك الخافت. حفّتْ أرواح موطني وشبابي بي بأجنحتها الباهتة، وملأت قاربي الصغير وأخذت تتوسل إليّ ممدودة الأيدي بإيماءات متألمة، مبهمة.

ماذا كان معنى الحياة؟ لماذا مررتُ بكثير من المسرات والأحزان؟ لماذا كابدت ذاك الظمأ إلى الحقيقة والجمال، الذي لم يرتو حتى الآن؟ لماذا تحملتُ لواعج الحب بتحدٍ ودموع

وتعذبت من أجل تلك النسوة الشهيات. أنا الذي مرة أخرى اليوم أطأطئ رأسي خجلاً وأذرف الدموع على حب؟ ولماذا ابتلاني إله غامض بتوق ملتهب إلى الحب في حين أنه قدَّر لي حياة توحُّد بغيضة؟.

كانت المياه تلعق أضلاع قاربي وقطرات فضية تقطر من مجذافيَّ؛ وأطبقت الجبال بصمت عليّ من كل جانب. وتشتت ضياء القمر البارد من فوق ضباب الوديان. وانتصبت أشباح شبابي صامتة تهيمن عليّ، تتفحصني بعيونها العميقة. بل لقد تبيّنتُ اليزابيث الحلوة بينها، هي أيضاً أحبتني وكنت سأفوز بها لو كنت أسرع.

بدا لي أن أفضل ما يمكنني أن أفعله هو أن أغوص بهدوء إلى أعماق مياه البحيرة الباهتة؛ ولن يسأل عني أحد. ولكني عندما لاحظت أن القارب العتيق البالي يرشح أسرعت في التجذيف. وفجأة شعرت بقشعريرة البرد فعجلت في العودة إلى المنزل، وأويت إلى السرير. تمددت هناك وأنا في حالة من الاستنزاف اليقظ وفكرت في حياتي الماضية في محاولة حثيثة لأفهم ما خطبي، وما ينقصني لأعيش حياة مُرضية أكثر وحقيقية ولأرتبط بشكل أوثق بجوهر الوجود.

كنت أعرف معرفة كافية أن الحب يكمن في قلب كل طيبةٍ وفرح، وعلى الرغم من حزني العميق الأخير فيما يخص اليزابيث، يجب أن أبدأ تعلم حب البشرية بجدية تامة. ولكن كيف أحب ومَنْ؟.

عندئذ بالذات فكرت في والدي وأدركت للمرة الأولى أني لم أحبه قط كما ينبغي عليّ. عندما كنت طفلاً كنت كشوكة مغروزة في لحمه؛ ولاحقاً رحلتُ وتركته وحيداً حتى بعد وفاة

أمي، وغالباً ما كنت أغضب منه وأخيراً كدت أنساه تماماً. لم أستطع أن أخلِّص ذهني من صورته وهو مستلق هناك وحيداً ومنبوذاً على سرير موته، هو الذي كان غريباً عني، ولم أحاول قط أن أكسب حبه، وأنا واقف إلى جانبه أراقبه بينما روحه تتسلل منه.

وهكذا باشرت الفن الصعب والمُجزي لتعلُّم درسي من سكّير رث، عجوز، بدل أن أتعلمه من حبيبة جميلة، ومثيرة للإعجاب. كففتُ عن إعطاء أجوبة فظة لأبي، والتزمت بتلبية حاجاته بأقصى طاقتي، وقرأت له قصصاً من التقويم وتسامرت معه حول أصناف النبيذ التي ينتجونها ويشربونها في فرنسا وإيطاليا. شعرت أنه لا يمكنني أن أحرمه من عمله الصغير، لأنه سيضيع بدونه. ولم أنجح في إقناعه بشرب الخمر بهدوء في المنزل معي في الأمسيات. وقد حاولنا ذلك مرات عدة. أحضرت النبيذ والسيجار وقمت بكل جهد ممكن لكي أساعد العجوز على تزجية وقته. وفي الأمسية الرابعة أو الخامسة خيّم عليه الصمت واكفهر وجهه، وأخيراً عندما سألته عما به، قال: «أعتقد أنك لن تسمح لوالدك بعد الآن أن يتردد على أي حانة».

قلت: «هراء، أنت الأب وأنا الابن، وأنت من يقرر ما علينا أن نفعله».

رماني بنظرة متفحصة، ثم تناول كأسه بمرح وتمشينا قاصدين الحانة.

كان جلياً أن والدي لم يكن يرغب في أن أطيل فترة مكوثي، على الرغم من أنه لم يذكر ذلك شفاهة. ثم إنني وأنا في حالة التمزق الذهني تلك كنت في أمسّ الحاجة إلى الابتعاد عن مسقط رأسي لأشعر بتحسّن. سألته: «ماذا تقول إذا أبديتُ

رغبتي في الرحيل في أحد الأيام؟». حكّ رأسه، وهز كتفيه المحنيين، وضحك ضحكة مترددة، ماكرة: «كما تشاء». وقبل أن أرحل عرجت على عدد من الجيران والرهبان وطلبت منهم أن ينتبهوا إليه. ثم انتهزت فرصة يوم جميل آخر وارتقيت جبل سينالبشتوك. ومن فوق قمته العريضة والمستديرة استشرفت الجبال والوديان، والمياه اللامعة، والسديم المخيم فوق البلدان البعيدة. عندما كنت فتى، انطلقت لأغزو العالم النائي، الجميل، والآن ها هو يمتد من جديد أمامي، جميلاً وغامضاً كما كان دائماً وأنا مستعد لأنطلق وأقتحمه من جديد باحثاً مرة أخرى عن أرض السعادة.

كنت قد عزمتُ، لفائدة دراساتي، أن أقضي مزيداً من الوقت في مدينة أسيزي. فبدأت بالعودة إلى بازل حيث قضيت أموراً ملحة، وجمعت متعلقاتي وأرسلتها مقدماً إلى بيروجيا. أما أنا فلم أصل إلى أبعد من مدينة فلورنسا، ثم ارتحلتُ بوتيرة بطيئة، مريحة جنوباً. وهناك لم تكن ثمة حاجة للقيام بأي إنجازات لعقد صداقات ودية مع الناس. فحياتهم دائماً سطحية وهي بسيطة، ومنفتحة وغير متكلفة، بحيث يمكن للمرء بكل سهولة أن يعقد عدداً كبيراً من الصداقات أثناء انتقاله من بلدة إلى أخرى. ومرة أخرى شعرت بالارتياح والإلفة، وقررت أنني لدى عودتي إلى بازل سوف أبحث عن الحميمية الدافئة للعلاقات الإنسانية، ليس في المجتمع، وإنما بين صفوف الناس العاديين.

في بيروجيا وأسيزي اتخذ مؤلّفي في التاريخ زخماً جديداً صحياً. أما بالنسبة إلى حياتي اليومية فقد عشتها باستمتاع إضافي، وسرعان ما بدأت سجيتي تتعافى من الضياع الذي

سقطت في دوامته ومدت جسورا جديدة إلى الحياة. وفي أسيزي أعجبت صاحبة الدار كثيرا بي، إثر بعض الأحاديث التي دارت بيننا حول القديس فرانسيس وكانت السبب في اكتسابي صفة الكاثوليكي الراسخ الإيمان. وعلى الرغم من أني لم أكن أستحق ذاك الشرف إلا أنه وفّر لي امتياز الاختلاط بالناس، لأنهم اعتبروني متحررا من وصمة الوثنية وهي صفة كانوا يقرنون بها الأجانب. وتلك المرأة كان اسمها أنوتزياتا نارديني، في الرابعة والثلاثين من العمر، أرملة مفرطة البدانة، وغاية في التهذيب. كانت في أيام الآحاد تبدو بثوبها المزين برسوم الأزهار الزاهية، تجسيدا لأيام الأعياد، ففي تلك المناسبات، بالإضافة إلى أقراطها التي تضعها كانت تستعرض سلسلة من الذهب تحيط بجيدها يرنّ فيها صف من الرصائع ويلمع. وكانت أيضاً تحمل معها كتاب صلوات ذا تغليف فضي كانت تجد صعوبة في استخدامه، ومسبحة بيضاء وسوداء أنيقة على سلسلة فضية رفيعة كانت تتعامل معها ببراعة أشد. وعندما كانت تجلس في الرواق المقنطر خلال فترات الاستراحة بين الصلوات في الكنيسة وتصف خطايا أصدقاء غائبين لجيران معجبين، كنت أرى على وجهها المستدير، الورع، تعبيرا مؤثرا لروح متصالحة مع الله.

لما كان صعباً على الناس أن ينطقوا اسمي كانوا يكتفون بمناداتي سنيور بيترو. كنا نجلس معاً في الرواق المقنطر الصغير في الأمسيات الجميلة، الممتعة - مع الجيران، والأطفال والقطط - أو في الدكان بين الفاكهة، وسلال الخضراوات. وصناديق البذور والسجق المدخّن المدلى، ونتبادل رواية تجاربنا، ونناقش احتمالات الحصاد، وندخن السيجار أو نمصّ شريحة من البطيخ. حكيت لهم عن القديس فرانسيس، وقصة بورتيونكولا

وكنيسة القديس، وعن القديسة كلير والأخوة الفرانسيسكان الأوائل. كانوا ينصتون إليّ بوجوه جدية ويطرحون سيلاً من الأسئلة، ويرددون تسابيح القديس ثم أنتقل إلى سرد وكشف أحداث جديدة وأكثر إثارة، من بينها حكايات عن سرقات وضغائن سياسية وجدت إقبالاً خاصاً. وكانت القطط والأطفال والكلاب يلهون ويتعاركون حولنا. ولأني كنت أستمتع بهذا وأيضاً لكي أحافظ على سمعتي الطيبة، رحتُ أنقّب في حياة القديسين لأعزز الأحداث المؤثرة، وكنت مسروراً لأني أحضرت كتاب أرنولد "حياة البطاركة وشخصيات مقدسة أخرى" مع كتب أخرى جلبتها معي وقد ترجمت حكايات ساذجة مع إجراء بعض التعديلات إلى لغة إيطالية شعبية. وتوقف عابرون وأنصتوا بعض الوقت، وشاركوا في الحديث. وهكذا كان يحدث أن تتجدد المجموعة ثلاث أو أربع مرات في سياق الأمسية. وحدها السينيورة نارديني وأنا بقينا جالسين طوال الوقت ولم تفتنا جلسة واحدة. كانت إلى جانبي زجاجة من النبيذ الأحمر وقد أثرت إعجاب أولئك الناس الفقراء والمقتصدين بطريقتي في الإسراف في النبيذ بلا حساب. وشيئاً فشيئاً حتى الفتيات الخائفات المحليات اكتسبن ثقة بالنفس وشاركن في الحديث من عتبة المنزل، وقبلن صوري الصغيرة وبدأن يؤمنّ بتقواي بما أني لم أكن ألقي نكاتاً غير لائقة، ولا بدا أني أحاول التحرش بهن. وكان بينهن بعض الجميلات، بعيون واسعة، حالمة، وكأنهن خرجن من لوحات بيروجينو[1]. وقد أولعت بهن جميعاً واستمتعت بصحبتهن

---

[1] بيروجينو (50/ 1445 ــ 1523): رسام إيطالي، تلميذ بييرو ديلا فرانشيسكا. ــ المترجم.

الودية والعابثة، لكني لم أقع في غرام أي منهن، لأن الأكثر جمالاً بينهن كنّ متشابهات جداً إلى درجة أن جمالهن كان دائماً يبدو لي عرقياً وليس شخصياً. وغالباً ما كان ينضم إلينا ماتيو سبينيللي، وهو شاب وابن خباز. كان ماكراً وظريفاً، ويتقن تقليد الكثير من الحيوانات، ويعرف كل الفضائح المحلية وكان بحق يتفجر بكافة أصناف الوقاحة والنكات السمجة. وعندما كنت أحكي أساطير القديسين كان ينصت بخشوع واتضاع يُقتدى بهما، لكنه كان بعد ذلك يسخر من الآباء المقدسين على شكل طرح أسئلة خبيثة صيغت بسذاجة، ويثير رعب أرملة بائع الخضار والفاكهة، والابتهاج السافر لغالبية الجمهور.

كنت دائماً أجلس وحدي مع السنيورة نارديني، أنصت إلى حديثها المثقَّف وأستمتع بزلاتها الإنسانية. لم تكن تفوتها أي رذيلة أو نقطة ضعف عند جيرانها. وكانت تحدد لكل منهم موقعه في المَطهر بعد عملية نخل دقيقة. لكنها أخذتني على محمل الجد ووثقت بي في أتفه الحوادث وعبرت لي بصراحة وبالتفصيل عن رأيها بي. سألت عن كل ما قمت بشرائه، وما دفعته فيه، واطمأنت إلى أني لم أتعرض للغش. وسمحت لي أن أسرد على مسامعها حوادث من حياة القديسين، وهي، بدورها، أطلعتني على أسرار شراء الفاكهة والخضراوات وطبخها. وذات أمسية كنا جالسين في ردهة السوق المتداعية، وغنيت أغنية سويسرية أمام صرخات ابتهاج الفتيات والأطفال وانطلقت في بعض الصياح المنغَّم. فأخذوا يتلوون من فرط النشوة، ثم قلّدت نبرات نطق اللغة الأجنبية، وعرضتُ بشكل هزلي ارتفاع وانخفاض تفاحة آدم عندي أثناء صياحي المنغّم. ثم أخذ أحد أفراد المجموعة يتحدث عن الحب. قهقهت الفتيات والسنيورة

نارديني قلّبت محجري عينيها وأطلقت تنهيدات عاطفية حارة، وأخيراً أخذوا يضايقونني لدفعي إلى التحدث عن مغامراتي العاطفية. لم آت على ذكر اليزابيث ولكن أخبرتهم عن نزهتي بالقارب مع السينيورة أغلييتي ورفضها لعرضي حبي. كان غريباً سردي لهذه القصة التي لم أبح بكلمة منها لأي إنسان ما عدا ريتشارد، لهذا الجمع الأومباري، أمام هذه الشوارع الجنوبية الضيقة، المرصوفة بالحصى، والتل الذي يخيم عليه وهج المساء الذهبي. وقد حكيت حكايتي بعفوية، على غرار الحكايا القديمة، لكنها كانت تأسر قلبي وخشيت في سريرتي أن يضحك السامعون ويسخروا مني.

ولكن عندما وصلت إلى نهايتها، وجدت العيون كلها مثبتة عليَّ بتعاطف.

هتفت إحدى الفتيات بحيوية: Poverino! « يا مسكين!».

ناولتني فتاة أخرى ثمرة أجاص كبيرة وعندما طلبت منها أن تأخذ منها القضمة الأولى، فعلتْ وهي تحدق إليَّ برصانة. وعندما أردت أن أدع الآخرين يقضمون منها أيضاً، احتجت وقالت: «كلا، كُلها أنت! لقد أعطيتها لك أنت لأنك أخبرتنا عن سوء حظك».

علّق زارع كرمة داكن البشرة: «ولكنكَ حتماً ستقع في حب امرأة أخرى».

قلت: «أبداً».

«إذن أنت ما زلت تحب تلك الشريرة إرمينيا؟».

«الآن أنا لا أكن أي حب إلا للقديس فرانسيس الذي علمني أن أحب البشر جميعاً، أنتم وسكان بيروجيا وهؤلاء الأطفال هنا كلهم، وحتى الرجل الذي تحبه إرمينيا».

عندما اكتشفتُ أن السينيورة نارديني الطيبة ترغب جادة في أن تبقيني هناك إلى الأبد وتتزوجني دخل عنصر جديد من التعقيد والخطر إلى هذه الحياة الرعوية. هذه المسألة التافهة حولتني إلى شخص لبق ماكر، إذ لم يكن سهلاً أن أدمر تلك الأحلام بدون أن أفسد في الوقت نفسه علاقاتنا المنسجمة، وأصادر الصداقة الجميلة التي نشأت بيننا. وكان لا بد لي أن أفكر جدياً في الرحيل إلى الوطن. ولولا أحلامي حول الشعر الذي أنوي أن أكتبه واستنزاف مواردي المالية الوشيك، لمكثتُ هناك. وربما كان من الممكن وأنا في حالة الفاقة تلك أن أتزوج من السينيورة نارديني. غير أن ما منعني عن ذلك، كان حزني الذي لم أبرأ منه بعد بشأن اليزابيث واشتياقي إلى رؤيتها من جديد.

رضختْ الأرملة البدينة بحزن ولكن بشكل مفاجئ لما لا بد منه ولم تسمح لي أن أتألم بسبب خيبة أملها. وعندما حانت ساعة الفراق، كان همّي ربما أكبر من همها، ذلك لأنني كنت أترك ورائي أكثر مما تركتُ مرة في قريتي ولم يحدث قط أن صافحتُ بمثل تلك الحرارة ذاك العدد الغفير من الناس عند أي فراق. وكوّموا الفاكهة، والنبيذ، والمشروبات المحلاّة، والخبز والسجق في عربتي وانتابني إحساس غريب بأني أودّع أصدقاءَ يشكل رحيلي أو مكوثي بالنسبة إليهم فرقاً كبيراً. وقبّلتني السينيورة أنونتزياتا نارديني على كلا وجنتيّ وعندما انطلقت مبتعداً كانت عيناها مترعتين بالدموع.

كنت في السابق أعتقد أن على المرء أن يستمد متعة خاصة من الحب الذي لا يجد صدى عند الآخر. أما الآن فصرت أعرف إلى أي مدى يمكن للحب المرفوض أن يكون محرجاً

حتى الإيلام عندما تعجز عن الاستجابة إليه. ومع ذلك لم يسعني إلا أن أفخر قليلاً بأن امرأة أحبتني وأرادتني زوجاً لها.

نقطة الغرور هذه عندي كانت مؤشراً إلى شفائي الجزئي. شعرت بالرثاء للسينيورة ناارديني لكني ما كنت لأشعر بذلك لولا ما حدث. وأدركت شيئاً فشيئاً أن لا علاقة للسعادة بتحقيق الرغبات الخارجية وأن أحزان شاب عاشق، مهما كانت مؤلمة، لا تستأهل صفة مأساوية. لقد كان بالنسبة إليّ بحق حزناً أعظم من أن يكون منفصلاً عن اليزابيث. لكن حياتي، وحريتي، وعملي ومنهجي في التفكير. هذه كلها لا تفسد. وكان لا يزال في إمكاني أن أستمر في حبي لها كما في السابق، ولو من بعيد، ومن أعماق قلبي. لقد ساهمتْ هذه الأفكار، وأكثر منها البهجة العفوية التي اتصفتْ بها حياتي خلال الأشهر التي أمضيتها في منطقة أومبريا، في شفائي التام. ولطالما كان لدي ميل إلى المضحك والهزلي لكني سمحت لروحي الساخرة أن تفسد عليّ المتعة التي كانت تمدني بها. والآن ها أنا أنمّي من جديد، بالتدريج، ميلاً إلى فكاهات الحياة، ووجدت من الأسهل والممكن باضطراد أن أتصالح مع قدري ولا أضنّ على نفسي باللقمة اللذيذة الواحدة أو نحوها التي أتناولها من وليمة الحياة.

في الحقيقة إن الحال دائماً يكون هكذا وأنت عائد إلى الوطن من إيطاليا. إنك تهزأ بالمبادئ والتحاملات، وتستغرق في الضحك، وتقحم يديك في جيبيّ بنطالك وترى نفسك رجلاً مجرباً وداهية. تنقّلتَ قليلاً في حياة الجنوب الدافئة والمريحة وأنت تتوهم أن هذا الحال سيستمر في وطنك أنت. تلك كانت مشاعري كلما عدت من إيطاليا، وخاصة في تلك المناسبة. وعندما وصلت إلى بازل ووجدت أسلوب الحياة الجامد، الثابت

وغير القابل للتغير، تولاني الهم والغضب، وأخذت بالتدريج أخلِّف المرح ورائي وأعود إلى أرض الواقع. غير أني اكتسبت شيئاً من تجاربي، وبعد ذلك كلما أبحر قاربي الصغير في مياه صافية أو مضطربة ترفرف على الأقل راية بطولة ملونة واحدة فوقه في تحدٍ واثق.

لقد تغيرتْ آرائي ببطء بوسائل أخرى أيضاً. فقد شعرت أني أودع سنوات شبابي بدون كبير أسف، وأني أنطلق إلى تلك الفترة من الحياة عندما يتعلم فيها المرء أن ينظر إلى الحياة نفسها بوصفها درباً قصيراً، وإلى نفسه بوصفه جوالاً لن يؤثر ترحاله واختفاؤه التام عن الأنظار في العالم أو يشغل تفكيره كثيراً. إن الإنسان يُثبِّتُ تفكيره على هدف ما أو حلم أثير لديه بدون أن يعتبر أنه هو نفسه لا غنى عنه. لذا تراه ينغمس أكثر في الكسل أثناء الطريق بحيث أنه يمكن أن يخسر مسيرة يوم بدونٍ أن يشعر بوخزة ضمير واحدة، فيستلقي على العشب ويصفر أغنية ويستسلم بلا أي تحفظ للحاضر. وقد كنتُ حتى ذلك الحين أعتبر نفسي إنساناً متفوقاً، مع إني لم أتعبَّد في مزار زرادشت، فأُعلِّي من شأن نفسي وأقلل من شأن الأقل موهبة من الناس. ثم أخذت بالتدريج أرى بجلاء مضطرد، أن الحدود لا يُنظر إليها هكذا، وأن الحياة بين الفقراء والمُضطهدين ليست فقط متنوعة بالقدر نفسه وإنما هي في الإجمال أشد دفئاً وصدقاً وتمثل الجنس البشري أكثر من حياة الموهوبين والناجحين.

عدت إلى بازل في الوقت المناسب تماماً لحضور الأمسية الأولى في منزل اليزابيث التي كانت قد تزوجت أثناء غيابي. كنت في أتم صحة. وما أزال أحتفظ بنضارتي وبسمرة بشرتي

بعد الرحلة وكان في جعبتي الكثير مما يُحكى من الحوادث المسلية. وقد كانت اليزابيث الجميلة كريمة وسَرَّها أن تنفرد بي وتخصني بعنايتها، وتنعمتُ طوال فترة السهرة بالحظ الحسن الذي جنّبني خزي التقدم بطلب زواج متأخر. إذ على الرغم من تجربتي في إيطاليا كنت ما أزال أكنّ قدراً من سوء الظن في جنس الإناث. كنت أشعر أن النساء لا يسعهن إلا أن يستمتعن بقسوة بألوان العذاب اليائسة التي يعانيها الرجال الذين يقعون صرعى حبهن. وكمثال جيد عن الموقف المؤلم والمعذب الذي يجد المرء نفسه فيه يكمن في هذا الفصل من أيام روضة الأطفال سمعتها من صبي في الخامسة. ففي المدرسة الإعدادية التي كنت ملتحقاً بها كانت تسود العادة الرمزية والغريبة التالية. إذا كان الصبي مذنباً بارتكاب عمل شرير معين يستحق التوبيخ وتوجّب أن يتلقى ضرباً على مؤخرته كعقاب، كانت تؤمر ست فتيات صغيرات أن يثبتن الضحية المتملصة في وضع غير محترم مخصص لغرض التأديب. وبما أن عملية التثبيت تلك كانت تعتبر امتيازاً عظيماً ومصدر سرور، فإن هذه البهجة القاسية كانت مخصصة لأفضل ست فتيات مهذبات. لـدُرَرٍ يمثلن مفهوم الفضيلة المعاصرة. هذا الفصل المسلي من عهد الطفولة حثني على التفكير وكثيراً ما تسلل إلى أحلامي، حتى إني أعرف على الأقل من تلك التجربة كم يقاسي أي شخص مرَّ بمثل ذاك الظرف.

7

إنني لم أشك لحظة واحدة في مواهبي ككاتب. كنت قادرا على أن أعيش من عائدات عملي، وأوفّر منها قدرا وأيضاً أن أرسل معونة إلى والدي بين وقت وآخر. وفي حينه كان يأخذ النقود ويتوجه من فوره إلى الحانة، ويسبّح باسمي بل ويقرر أن يسدي إليّ خدمة في المقابل. وقد أخبرته ذات مرة أني أكسب قوتي بشكل رئيسي من أجر المقالات الصحفية. لذا كان يعتقد أني أشبه بالمحرر أو المراسل الصحفي، أحد الذين تستخدمهم الصحف المحلية في الأقاليم، وفي ثلاث مناسبات منفصلة بعث إليّ رسائل أبوية سرد لي فيها أحداثاً كان يعتبرها هامة ويعتقد أنها سوف تزودني بـ "موضوع صحفي" وبالمال. كان النبأ الأول عن حريق الحظيرة، والثاني عن حادثة وقعت لاثنين من المتسلقين، والأخير عن انتخاب عمدة إحدى القرى. وقد نقل هذه الأنباء بلغة صحفية غريبة، أمدتني بمتعة عظيمة بوصفها مؤثرا خارجياً لوجود رابط بيننا، بما أنها كانت الرسائل الأولى التي أتلقاها من أرض وطني منذ سنين عديدة. ووجدتها أيضاً منبِّهة، أشبه بنقدٍ لاواعٍ لأسلوبي في الكتابة، إذ كنت أستدعى لمراجعة عدة كتب نشرُها أقل أهمية وشأناً بكثير من تلك الأحداث التي وقعت في الأقاليم.

في الواقـع، في ذلـك الوقـت بـالذات نُشِـر كتابـان لكـاتبين أذكر أنهما شابان رومانسيان، يكتبان بأسلوب نـابض بـالحيـاة عرفتهما خلال فترة مكوثي في زوريخ. أحدهما كـان يعيش عندئذ في برلين وكان في موقع يخوله أن يصور الأحداث الغامضة التي تقـع في المقـاهي والمواخـبر في العاصمـة. والثـاني بنـى لنفسـه "صومعـة" مترفـة في ضواحـي ميونيـخ، وفيـها كـان يتذبـذب. بأسلوب كشـف عـن امتعـاض ويـأس. مـا بـين التحليـل الذاتـي العصـابي والإلحـاح الروحـاني. وأُعطِيـتُ الكتابـان لأراجعـهما فسخرتُ منهما، بأسلوب لا يخلو من تكلّف، سخرية بريئة. وقد اكتفى صديقي العصابي بإرسال رسالة يعبر فيها عن امتعاضه بأسلوب من الأبهة الفخمة. أما الكاتب المقيم في برلين فجعل مـن الأمـر فضيحـة صحفيـة. ادّعـى أنـي فشـلت في فـهم مرمـاه الجاد، واستشهد بـزولا، ولم يكتـف بوضـع اللوم عليّ جراء نقدي المعـادي وإنمـا لام العقليـة السويسـرية المغـرورة والمبتذلـة بشـكل عام. ويمكنني أن أضيف هنا أن هذا المؤلف كان قد أمضى الجزء الوحيد من حياته الأدبية الذي يمكن وصفه بالصحي وذي قيمة بدرجـة معقولـة في مدينـة زيوريـخ. ولم أكـن في يـوم مـن الأيـام وطنيـاً متعصبـاً ولكـني رأيـت أن الأمـر كلـه مغـرق في الأنـاقـة البرلينيـة، فـأجبت على سـخطه برسـالة طويلـة منمقـة لم أبـذل فيـها أي جـهد لأخفـي اسـتخفافي بعصريـي المدينـة الكـبرى المُعتدِّين بأنفسهم.

أفادني ذلك الشجار واضطرني إلى إعادة النظر في تصوُّري للحيـاة الثقافيـة المعـاصرة. وكـانت مهمـة مملـة وصعبـة ولم تكـن النتيجة مبهرة، ولن يتأثر كتابي كثيراً إذا ما حذفت نقاش هذه النقطة.

على أي حال، لقد أجبرتني هذه الاعتبارات على التفكير بإلحاح أكثر في نفسي وفي عمل حياتي الذي طال التخطيط له. وكما تعلمون، كان أمل حياتي أن أؤلف كتاباً طويلاً يقيم علاقة وثيقة وحميمة بين حياة الطبيعة الصامتة والفخيمة وبشر هذه الأيام. أردت أن أعلِّم الناس كيف يعون نبض الأرض وأن يساهموا في حياة الكون؛ أن لا ينسوا في غمار زحام حياتهم الحقيرة أننا لسنا آلهة خلقت نفسها بنفسها وإنما أطفال ينتمون إلى الأرض وإلى الكل الكوني. أردت أن أذكِّر أن الأنهار، والمحيطات والسحب المنسابة والعواصف الهادرة هي، مثل أغاني الشعراء وأحلامنا، رموز وناقلات لآمالنا تمدُّ أجنحتها بين السماء والأرض؛ وهدفها التوكيد على حق الكائنات الحية جميعاً في المواطنيّة والخلود. إن كل كائن مقتنع في أعماقه بهذه الحقوق وبأنه ابن الله وفي إمكانه أن ينام قرير العين في حضن الأبدية. وكل ما نحمله فينا من عناصر سيئة ومريضة ومنحطة، يُنكر هذه الأفكار ويؤمن بالموت.

لكني أيضاً تُقتُ إلى أن أعلِّم الناس أن يفتشوا عن منابع الفرح، وأنهار الحياة في حب الطبيعة الأخوي. أردت أن أبشِّر بفن رؤية الحياة، والسعي فيها والاستمتاع بها، وبالعثور على السعادة في الحاضر؛ أن أتيح للجبال، والبحار، والجزر البيضاء أن توصل رسائلها بلغاتها الجبارة، الآسرة؛ أن أكشف عن المدى المطل على ظواهر الحياة اللامتناهية التنوع وهي تزهر يوماً بعد يوم وتغمر مدننا ومنازلنا. أردت أن أحرك لدى الناس حس الخجل في أننا نعرف عن الحروب، والأزياء، والثرثرة، والأدب، والفن الأجنبي أكثر مما نعرف عن تفتُّح قوة الحياة في الربيع خارج مدننا وعن النهر المتدفق تحت جسورنا وغاباتنا، والمروج

الجميلة التي تقطعها سككنا الحديدية. كنت تواقاً إلى أن أخبر الآخرين عن سلاسل الفرح الذهبية التي لا تنسى وعثرتُ عليها، أنا المتوحد الحزين، في هذا العالم، وأردتكم أنتم، يا من لعلكم أكثر سعادة وفرحاً، أن تكتشفوا هذا العالم بأنفسكم، ولكن باستمتاع أعمق. وأردت، قبل أي شيء، أن أزرع سر الحب المقدس في قلوبكم. كنت آمل في أن أعلمكم أن تكونوا أخوة حقيقيين لكل كائن حي ومفعمين بالعاطفة فلا تخشون الحزن أو حتى الموت، بل ترحبون به عندما تحين الساعة كأخ أو أخت وقور.

لم يكن في نيتي أن أقدم هذا كله على شكل تراتيل وأناشيد رنانة، وإنما ببساطة، وصدق، وطبيعية، مع الاحتفاظ بمزيج الجدية وحسن الدعابة اللذين يروي بهما مسافر عائد تجاربه في العالم الخارجي لأصدقائه.

رغبتُ، تمنيتُ، أملتُ، أعرف أنها تبدو مضحكة وأنا أقولها، والحقيقة هي أني كنت ما أزال أنتظر حلول اليوم الذي تتخذ فيه نواياي المبهمة شكلاً من النظام والتحديد. على أي حال كنت قد جمعت قدراً كبيراً من العناصر الأولية، وليس فقط في ذهني، وإنما في الدفاتر الصغيرة العديدة التي كنت أحملها في جيبي في أسفاري الطويلة والقصيرة، وأملأ أحدها بعد كل بضعة أسابيع. وقد دونت فيها مشاهدات مقتضبة حول الحياة المرئية من العالم الخارجي، بموضوعية وبلا تفكير عميق. كانت أشبه بملاحظات فنان وكنت راضياً بتدوين أشياء ترى ببضع كلمات. كانت استكشاف بحجم الظفر. عن شوارع خلفية ودروب ووصف لجبال تلوح عند خط الأفق، ومدن، ونُبَذٍ من حديث تناهى إلى السمع يجري بين قرويين، وحرفيين، وبائعات في السوق، كلام مضحك عن الطقس، وملاحظات

حول تأثيرات الضوء والمطر، والرياح والصخور، والنباتات، والحيوانات، وطيران الطيور، وتكوّن الموج، وألوان البحر، وأشكال السحب. أحياناً كنت أؤلف قصصاً قصيرة حولهم على نمط دراسات السفر والطبيعة وقد نشرتها؛ ولكن دائماً بدون الإشارة إلى العنصر البشري. كنت أجد في شجرة، أو حيوان، أو عبور غيمة شيئاً مثيراً للاهتمام بحد ذاته وبدون عناصر مكملة.

كثيراً ما كنت أتصور أن عملاً يتسم بشيء من البعد ويلغي كل تلميح إلى المخلوقات البشرية هو هراء، ومع ذلك تمسكت بهذا التصور سنين عديدة، وانطويت على أمل مبهم في أن يحقق إلهام عظيم، في وقت ما ربما، ما بدا مستحيلاً. ولكني أدركت أخيراً أنه لا بد لي من أن أسْكِنَ منظري الطبيعي مخلوقات بشرية وأني يجب أن أظهرهم بأكبر قدر ممكن من الطبيعية والصدق. وهكذا توفرت لدي كمية هائلة من الأرضية الأساسية التي ما زلت حتى يومي هذا منشغلاً في تغطيتها. في السابق كنت أفكر في المخلوقات البشرية فقط من خلال الجموع الغفيرة وقد وجدتهم غرباء تماماً. غير أني منذ ذلك الحين تعلمت كم هي مجزية معرفة الأفراد ودراستهم بدل تناول البشرية بمعناها المجرد، وملأت دفاتري وذاكرتي بمجموعة جديدة كلياً من الصور.

في البدء وجدت هذه الدراسة مناسبة تماماً. فتخليت عن لامبالاتي الفطرية وأخذت أهتم بأنواع مختلفة من الناس ورأيت كم من بديهيات أفلتت من انتباهي. لكني أيضاً رأيت كم ساهم السفر والملاحظة في توعيتي وفي تشكيل رؤيتي للأشياء. وانجذبت، بدافعٍ من ميل متأصل، إلى صحبة الأطفال التي كنت أستمتع بها وأسعى إليها ما أمكنني ذلك.

من قبل، كنت أستمد من مراقبتي للسحب، والأمواج متعة أكبر من متعة دراسة الإنسان. لقد ذهلت عندما اكتشفت أن ما يميز الإنسان قبل أي شيء عن بقية الطبيعة هو نوع من طبقة واقية من الأكاذيب. وسرعان ما لاحظت وجود هذه السمة نفسها عند معارفي كلهم. وهي نتيجة شعور كل شخص بأنه ملزم بأن يُفصِّل لنفسه شخصية محددة، في حين أن الحقيقة هي أنه لا أحد يعرف حقيقة ذاته الأعمق. وقد رحت أراقب هذه السمة ذاتها عندي بشيء من الريبة وكنت عندئذ قد توقفت عن محاولة النفاذ إلى قلوب الناس. لقد كانت الكتلة الهلامية الخارجية عند أغلبهم هي الأهم. وجدت هذا في كل مكان، حتى في الأطفال الذي يفضلون، بوعي منهم أو لاوعي، أن يتلبسون دوراً تمثيلياً على أن يكشفوا عن ذواتهم الطبيعية.

بعد مرور بعض الوقت تبين لي أني لا أحرز أي تقدم في مهمتي وأني أضل طريقي وسط تفاصيل تافهة. وبدأت أفتش عن أخطائي ولكن سرعان ما تعذر علي أن أخفي خيبة أملي وشعوري بأن الدوائر التي أدور ضمنها لا تمدني بالناس الذين أبحث عنهم. لقد كنت أسعى وراء الأنماط وليس الشخصيات وهؤلاء لم أعثر عليهم لا في الحلقات الأكاديمية ولا بين الزمر الاجتماعية. ورحت أفكر يحدوني الشوق في إيطاليا وفي باقة الأصدقاء ورفاق نزهاتي العديدة هناك ـ الحرفيين العاديين. كم من رحلة قمت بها معهم، وكم من صاحب رائع وجدت بينهم!.

لم أفُز بأي شيء من ترددي على الحانات المحلية والفنادق الرخيصة. لم تفدني حشود المتسكعين غير المنتظمين. وهكذا أمضيت فترة من الوقت تائهاً لا أدري ما أفعل؛ فبقيت على صحبتي للأطفال وحصرت دراساتي في نطاق الحانات،

حيث طبعاً لا يوجد ما أتعلمه. ومرت بعد ذلك أسابيع مقبضة لأني فقدت ثقتي بنفسي، وشعرت أن آمالي وأماني مبالغ فيها بشكل مضحك، وصرت أهيم على وجهي في الهواء الطلق وأكثر من الجلوس والتأمل الحزين مع كأس من النبيذ أغلب ساعات الليل.

مرة أخرى وَجَدَتْ أكوام من الكتب التي كنت أود أن أحتفظ بها بدل أن أتخلى عنها لبائع الكتب المستعملة طريقها إلى رفوفي؛ ولكن لم يعد لدي حيزلها في خزانتي. ولكي أحل هذه المشكلة اكتشفت أخيراً ورشة نجارة متواضعة وطلبت من صاحبها أن يأتي إلى منزلي ويأخذ القياسات اللازمة لصنع خزانة للكتب.

حضر في الموعد المحدد. كان رجلاً أضأل حجماً من المعتاد، بطيء الحركات وذا سلوك حذر. قام بأخذ مساحة الحين، ركع على الأرض، ومدَّ مسطرة القياس حتى السقف. كانت تفوح منه رائحة غراء خفيفة. وقامت يدٌ طفولية، مثابرة بتدوين أرقام عديدة بخط مشوش في دفتره. وفي غمرة استغراقه ارتطم في غفلة منه بكرسي تتراكم عليه أكوام من الكتب. وقع عدد من المجلدات فانحنى ليعيدها إلى مكانها. كان أحدها قاموساً صغيراً في العاميّة المهنية. وهو من الكتب التي يجدها المرء بطبعات ذات أغلفة ورقية تقريباً في المنازل الألمانية كلها؛ وهي مطبوعات حسنة الإخراج وقيّمة. ولما رأى النجار المجلد المألوف لديه رماني بنظرة تتراوح ما بين الفضول والسرور والريبة.

سألته: «ما الأمر؟».

«عفواً، ولكني أرى كتاباً أعرفه. أحقاً درسته؟».

أجبته: «لقد درست عامية المتشردين في الشوارع ولكن من الممتع أن أبحث عن معنى عبارة معينة بين حين وآخر».

هتف: «أحقاً؟ إذن فقد نزلت إلى الشارع بنفسك؟».

«ليس بالمعنى الدقيق الذي تقصده. لكني جلت كثيرا وأمضيت ليال كثيرة في الفنادق الرخيصة».

في تلك الأثناء كان قد التقط الكتب الواقعة وتهيأ للمغادرة.

سألته: «إلى أين وصلت بك أسفارك؟».

«من هنا إلى كوبلينتز ولاحقاً وصلت إلى جنيف، وأمضيت وقتاً لابأس به».

«كم مرة دخلت السجن؟».

«مرة واحدة في دورلاخ».

«يجب أن تحكي لي عن هذا، إذا لم يكن لديك مانع. ما رأيك في أن نتجاذب أطراف الحديث ونحن نتبادل مشروباً؟».

«لست متحمساً كثيرا يا سيدي. ولكن إذا كنت ترغب في تمضية أمسية معي وتطرح عليّ بضعة أسئلة فلا مانع عندي؛ أي شريطة أن لا يكون في نيتك أن تسخر مني».

بعد ذلك ببضعة أيام وأنا في طريقي إلى سهرة تقيمها اليزابيث، توقفت في الشارع وتساءلت إن لم يكن من الأفضل أن أذهب إلى منزل صاحبي النجار. فعدت أدراجي وتركت معطفي في المنزل ثم عرجت عليه. كانت ورشته مغلقة وقد ساد الظلام. ومشيت أتعثر خلال رواق مظلم وفناء ضيق، ثم ارتقيت درجاً خلفياً وأخيرا عثرت على لوحة مكتوب عليها اسم المعلم. وتقدمت في طريقي حتى وصلت إلى مطبخ صغير. وجدت فيه امرأة نحيلة تحضر طعام العشاء، وفي الوقت نفسه كان عليها أن تُعنى بثلاثة أطفال يملؤون المكان الضيق بالضجيج والحيوية. قادتني المرأة، التي لم يبد عليها أنها كانت سعيدة

برؤيتي، إلى غرفة مجاورة حيث جلس النجار في الغسق وهو يحمل صحيفة. نخر ملتبساً، وقد اعتقد للوهلة الأولى أني زبون لا صبر لديه، ثم عرفني وصافحني.

لما وجدته مندهشاً ومرتبكاً، وجهت انتباهي إلى الأطفال، فهربوا من أمامي وولجوا المطبخ فتبعتهم. أعاد مشهد الزوجة وهي تعد طبقاً من الأرز إليّ ذكريات عن مطبخ السيدة الأومبرية لذا رحت أساعدها في الطبخ. وكانوا في بلدي يغلون الأرز الجيد بشكل ينم عن جهل حتى يغدو أشبه بعجينة لا طعم لها وغير شهية وكأنها غراء. وفي الواقع لقد كانت الكارثة تتكرر أمامي وبالكاد نجحت في إنقاذ الوجبة بأن قبضت على القدر ذات المقبض بسرعة وتناولت المغرفة وتوليت أمر الطبخ بنفسي. أذعنت الزوجة وهي مندهشة وكانت نتيجة الطبق نجاحاً مقبولاً. قدمناه، وأشعلنا المصباح وقُدم لي صحن مملوء كما ينبغي.

خلال مجرى الأمسية اندمجت زوجة النجار معي في حديث مفصل حول شؤون منزلية لا يكاد يفقه زوجها فيها أي شيء، واضطررنا إلى إرجاء سماع قصة مغامراته على الطريق إلى وقت لاحق. وزيادة على ذلك سرعان ما عرف هؤلاء القوم أنني سيد محترم فقط في المظهر الخارجي وأني في الحقيقة ابن رجل قروي وذو منشأ متواضع. وكانت نتيجة ذلك أننا بدءا من تلك السهرة الأولى صرنا على علاقة ودية وطيبة. إذ حالما شعروا بالتساوي معي شممت في ذاك المنزل الفقير جو الأناس العاديين في مسقط رأسي. لم يكن لديهم وقت لأي نوع من التصرفات المهذبة، والمدعية والمتحفظة؛ كانوا يرتاحون جدا في الحياة الخشنة والقاسية وتروق لهم كثيرا، حتى بعيدا عن رداء

الثقافة والأشياء الراقية، ولا تحتاج إلى أن تُكسى بالعبارات الجميلة.

ازدادت وتيرة زياراتي إلى منزل النجار وكنت في صحبته أنسى جماعة المفكرين وكآبتي ومصادر قلقي. وكأني عثرت على قطعة من طفولتي محفوظة هناك، مكنتني من أن أتابع الحياة التي كان الرهبان قد قطعوها عليّ عندما أُرسلتُ إلى الكلية.

مال النجار فوق خريطة عتيقة، باهتة اللون وممزقة، وأخذ يتتبع خط سير رحلاتنا الخاصة، تصيبنا رعشة الإثارة عند بوابة كل مدينة، وكل شارع مررنا فيه بتجارب مشتركة. استحضرنا أعمالنا الطائشة في سنوات التدرب بل إننا في إحدى المناسبات غنينا العديد من الأغاني الشعبية الخالدة. وناقشنا متاعب العمل، ومسائل منزلية، والأطفال، وشؤون المدينة، وأخذنا بالتدريج نتبادل دورينا بلا انتباه وأصبحت أنا التلميذ الممتن، وأصبح هو المانح والأستاذ. وشعرت بالارتياح لأني بادلت جو غرفة الجلوس بحقائق الحياة.

من بين أطفاله كانت الفتاة ذات الخمس سنوات تستحق الانتباه الخاص لأنها مرهفة ومنعزلة عن الباقين. كان اسمها أغنس لكنهم ينادونها بـ "آغي". كانت شقراء. شاحبة اللون، هزيلة الأطراف وذات عينين كبيرتين يملؤهما الخوف، وتتميز بحياء رقيق. وذات يوم أحد بينما كنت أستعد للخروج بالعائلة في نزهة، وجدتُ آغي مريضة. فمكثت أمها معها في المنزل. أما بقيتنا فانطلقت بخطى وئيدة إلى خارج البلدة. وعلى مقعد موجود خلف كنيسة القديسة مارغريت جلسنا. وانتشر الأولاد بحثاً عن حجارة، وأزهار، وخنافس، بينما كنا نحن الرجال نملي أبصارنا بجمال المروج، وأرض مقبرة بننغن

وسلسلة جبال يورا الزرقاء، الجميلة. كان النجار تعباً، وحزيناً وصامتاً، ويبدو عليه القلق.

سألته بعد أن ابتعد الأطفال عن مرمى السمع: «ما بالك؟». فرماني بنظرة بائسة، حزينة.

ثم قال: «ألم تلاحظ؟ إن آغي تحتضر، أعرف هذا منذ وقت طويل. إن بقاءها حية حتى الآن من قبيل المعجزة. لطالما كانت تحمل نظرة الموت في عينيها. والآن لم يعد هناك بارقة من أمل».

أخذت أواسيه لكني سرعان ما كففت عن ذلك من تلقاء ذاتي.

قال وهو يرسم ابتسامة حزينة: «انظر، أعرف أنك أنت أيضاً لا تؤمن بأن الطفلة ستعيش. أنا لست رجلاً متديناً كما تعلم ونادراً ما أذهب إلى الكنيسة، لكني متأكد من أن العلي القدير يوجّه إليّ رسالة. إنها مجرد طفلة ولم تكن يوماً قوية البنية، لكن الله يعلم أنها الأعز على قلبي من بين أولادي جميعاً».

عاد الأطفال ركضاً، يغردون ويمطرونني بمئات الأسئلة الصغيرة، متكتلين حولي، ويطلبون مني أن أتعرف إلى الأزهار والأعشاب التي جمعوها. وأخيراً أصروا على أن أقص عليهم حكاياي. فحكيت لهم قصصاً عن الأزهار والأشجار، وذكّرتهم أن لهذه الأشياء كلها أرواحاً وملاكاً حارساً كما سائر الأطفال. والدهم أيضاً شارك في الإنصات، وابتسم، وكان بين حين وآخر يعلن بصوت رقيق عن موافقته على ما أقول. ثم رحنا نراقب زرقة الجبال تزداد عمقاً، وننصت إلى نواقيس المساء فتهيأنا لنعود إلى البيت. انتشر وهج المساء على المروج، وسمقت الأبراج

النائية للكنيسة صغيرة ونحيلة في الهواء، وكانت زرقة السماء الصيفية تتحول إلى تدرجات لونيّ الأخضر والذهبي الرائعة، ورمت الأشجار ظلالاً طويلة. ونال التعب من الأطفال وخفّ نشاطهم. كانوا يفكرون في الملائكة الحارسة لنبات الخشخاش، والقرنفل والجريس المستدير الورق بينما كنا نحن البالغان نفكر في آغي التي تتهيأ روحها لتحلق وتخلّف وراءها فرقتنا الصغيرة، الخائفة.

خلال الأسبوعين التاليين سار كل شيء على ما يرام، بدت صحة الصغيرة أنها تتحسن، وباتت قادرة على مغادرة سريرها طوال ساعات متواصلة، وكانت مع وسائدها الباردة التي تكتنفها تبدو أجمل وأكثر سعادة من أي وقت آخر. ثم أصابتها حمى شديدة خلال بعض الليالي؛ ولم يكن بنا حاجة إلى أن نتحدث عن الأمر فقد كان جلياً لنا أنه لن يطول مكوث الطفلة بيننا أكثر من بضعة أسابيع، وربما بضعة أيام. وفي مناسبة واحدة فقط عبر والدها عن مكنوناته. وكان عندئذ في ورشته. فقد رأيته يفتش بعناية فيما حوله بين أخشابه وأدركت بدون أن يخبرني أنه كان ينتقي ألواحاً خشبية لصناعة تابوت ابنته.

قال: «سوف يأتي آجلاً أم عاجلاً. وأفضّل أن أصنعه بنفسي بعد الانتهاء من العمل».

جلستُ على أحد مقاعد عمل النجار بينما كان هو يعمل جالساً على آخر. وبعد أن سحج الألواح حتى أضحت ناعمة ملساء عَرَضَها عليّ بشيء من الفخر. كانت من خشب الصنوبر الجيد والمتين، والخالي من العقد.

«لن أدقّ فيها أي مسمار. سوف أضمها معاً بإحكام لتكون عملاً جيداً يدوم. ولكن يكفي هذا اليوم، هيا نصعد إلى زوجتي».

مرت أيام منتصف الصيف الملتهبة، والرائعة، وكنت في كل يوم أجلس مع آغي مدة ساعة أو اثنتين، أحدثها عن المروج الجميلة والغابات في الخارج وأمسك بيدها الصغيرة، الضعيفة في يدي العريضة، أتشرّب البهاء الساطع البريء والعزيز الذي أحاط بها حتى النهاية.

ثم وقفنا إلى جانب سريرها، يسربلنا الحزن والخوف، ورأينا جسدها الصغير والنحيل يستجمع قواه ليتمرد على الموت الجبار الذي قهرها بهدوء وبدون أن تبدي أي مقاومة. حافظت أمها على هدوئها وتماسكها لكن والدها استلقى على سريرها وتلقى مائة وداع أخير، ومسد على شعرها الأشقر ولاطف طفلته الأثيرة، التي كانت قد ماتت.

تبع مراسيم الدفن البسيطة، القصيرة، أمسيات من كبت العواطف عندما كان الأطفال يبكون في أسرّتهم؛ ورحلات مواساة إلى فناء الكنيسة حيث كنا نزرع الأزهار على القبر الحديث، وهناك وبدون أن نتفوه بأي كلمة نجلس على مقعد بين مساكب زهور تشيع جواً من السكينة، ونفكر في آغي ونحدق بعيون جديدة إلى التربة التي تستلقي عزيزتنا آغي فيها؛ وإلى الأشجار والمروج التي تنمو عليها، وإلى الطيور التي كان تغريدها المبهج ينطلق عفوياً ومرحاً ويملأ أرجاء فناء الكنيسة الذي يلفه السكون.

في تلك الأثناء اتخذ العمل اليومي مساره الصارم. وسرعان ما عاد الأطفال إلى الغناء، والشجار فيما بينهم، يضحكون ويضجون طلباً لسماع الحكايات. وتعودنا جميعاً بلا وعي منا على غياب آغي، والتفكير فيها كملاك صغير جميل في الجنة.

طوال تلك الفترة لم أنضم قط إلى حفلات البروفسور وقلما زرت منزل اليزابيث. ولكن حتى في تلك المناسبات كنت أشعر

بضياع غريب وانزعاج من سيل الحديث التافه. والآن عندما أعرج على المنزلين لا أجد إلا بابين موصدين، لأن الجميع رحلوا إلى داخل البلاد منذ مدة طويلة. عندئذ بالذات لاحظت مندهشاً أنني بانهماكي في صداقتي مع عائلة النجار وبمرض الطفلة أهملت الفصل الحار وفترات العطل. وفي مراحل مبكرة من حياتي كان من المستحيل أن أبقى في البلدة خلال شهري تموز وآب.

انطلقت لأقوم بجولة سيراً على قدميّ في مناطق الغابة السوداء، وبرغشتراس وأودنفالد. وكان يسعدني كثيراً وأنا على الطريق أن أبعث ببطاقات بريدية إلى أطفال عائلة النجار في بازل، تمثل مشاهد من أماكن جميلة مختلفة وأن أتخيل فرحتهم وأحكي لهم ولوالدهم عن أحداث رحلتي.

في فرانكفورت - آم - مين قررت أن أمدّ عطلتي بضعة أيام أخر. وفي أشافنبرغ، ونورنبرغ، وميونيخ وأولم تزوّدتُ بمزيد من الإعجاب بالتحف الفنية التاريخية وانتهى بي المطاف إلى المكوث بعض الوقت في زوريخ. فقد كنت طوال السنين الماضية أتجنب المدينة وكأنها وباء، أما الآن فأخذت أتمشى في شوارع مألوفة، وعدت أفتش عن الحانات القديمة والحدائق ووجدتني قادراً على التفكير في سنوات الماضي الرائعة بلا ندم. كانت الرسامة إرمينيا أغلييتي قد تزوجت، فحصلتُ على عنوانها. وقرابة المساء ذهبتُ إليها، فقرأت اسم زوجها على الباب، ونظرت إلى نوافذها وترددت برهة. ثم عادت الأيام الخوالي إلى الحياة من جديد واستيقظ وَلَهُ الشباب من سباته مع ألم رقيق. وعدتُ أدراجي خشية أن أفسد الصورة التي كنت قد رسمتها لصديقتي الإيطالية الحبيبة بلقاء جديد لا معنى له. واصلت

سيري، وقمت بزيارة بحيرة الحديقة التي كان الفنانون يقيمون عندها حفلات ليالي الصيف، ورفعت بصري لأنظر إلى علّية المنزل الصغير الذي قطنتُ مدة ثلاث سنوات طيبة مرت كما لو لم تكن.

كان اسم اليزابيث يهيمن على ذكرياتي هذه كلها، كان يقفز على شفتي رغماً عني. حبي الجديد كان أقوى من أخوته السابقين. كان أيضاً أكثر هدوءً وأقل إثارة، وأكثر امتناناً.

لكي أحافظ على المزاج الرائق خرجتُ بالقارب ورحت أجذف بضربات بطيئة، على صفحة الماء الصافية، الدافئة. كان المساء يتقدم، وفي السماء تدلت غيمة واحدة، جميلة، بيضاء كالثلج. لم أدعها تغيب عن ناظري، حنيت لها رأسي وأنا أفكر في شغفي في طفولتي بالغيوم وفي اليزابيث، وأيضاً في الغيمة التي رسمها سيغانتيني ورأيتها واقفة أمامها منتشية وجميلة. لم يبدُ حبي لها، النقي من أي كلمة تنمُّ عن أي رغبة حقيرة، بمثل تلك القداسة والطهارة اللتين بدا عليهما عندئذ عندما عدت بذاكرتي بهدوء وامتنان، متمثلاً هذه الغيمة أمامي، إلى أحلى لحظات حياتي وشعرت بما كان يسودها من عماء وشغف واللذين حل محلهما اشتياق إلى أيام الفتوة - حتى هذا صار أكثر هدوءا ونضجاً.

كان من عادتي دائماً أن أهمهم لحناً أو أن أغني على إيقاع ضربات المجذافين. وعندئذ كنت أغني بصوت خفيض لنفسي ولم أدرك إلا وأنا أفعل ذلك أنني كنت أطابق أبياتاً شعرية على اللحن. ورسخت في ذاكرتي ولدى وصولي إلى المنزل دونتها احتفاءً بتلك الأمسية الرائعة التي أمضيتها فوق مياه البحيرة في زيوريخ:

كغيمة بيضاء
في الأعالي الشاهقة،
كذلك أنتِ،
هفهافة، جميلة ونائية،
يا اليزابيث.

الغيمة تواصل انسيابها،
وأنت لا توليها انتباهاً،
لكنها تبحر خلال أحلامك
في الليل الحالك.

تبحر وتومض بنقاء شديد
حتى أنت ستعانين أبداً
الحنين العذب
إلى تلك الغيمة البيضاء.

في بازل وجدت رسالة من أسيزي بانتظاري. كانت من السينيورة أنونتزياتا نارديني وكانت ملأى بالأخبار المبهجة. لقد عثرتْ على زوج ثان. ولكن فلأورد نص تلك الرسالة:

«عزيزي الهر بيتر،

اسمح لصديقتك المخلصة أن تجترئ وتراسلك. لقد سُرَّ الله بوهبي قدراً كبيراً من الحظ الحسن، وأود أن أدعوك لحضور حفل زفافنا في الثاني عشر من تشرين أول. اسمه مينوتي. ليس واسع الثراء، لكنه مدلّه بحبي. كان سابقاً يعمل في تجارة

الفاكهة. وهو وسيم ولكنه لا يجاريك في الوسامة، يا هر بيتر. سوف يبيع الفاكهة في الميدان العام وسأعمل أنا في المحل. جارتنا المحبوبة ماريتا أيضاً سوف تتزوج ولكن زوجها مجرد بنّاء من بلد آخر.

إنني أفكر فيك في كل يوم، وحكيت للناس كثيراً عنك، وأنا أحبك كما أحب القديسين المباركين الذين أضيء لهم أربع شموع إحياء لذكراك. السينيور مينوتي أيضاً يسعده أن يراك في حفل الزفاف. وإذا ما رغب في أن يقف أي موقف غير ودي منك، فسوف أوقفه عند حده! لسوء الحظ لقد اتضح أن الصغير ماتيو سبينيللي ولد سيء، كما اعتقدتُ دائماً، إنه كثيراً ما يسرق الليمون مني. والآن ها هو في السجن لأنه سرق اثنا عشر ليراً من والده، الخبان، ولأنه سمّم كلب جيانجياكومو، الشحّاذ.

أتمنى لك بركة الرب والقديس فرانسيس. إنني مشتاقة إليك.

صديقتك المخلصة الدائمة

أنونتزياتا ناrديني.

ملاحظة: محصولنا كان متواضعاً. العنب لم يكن جيداً، ولم يكن هناك ما يكفي من الإجاص لكن الليمون كان وافراً، لكننا اضطررنا إلى بيعه هو أيضاً رخيصاً. وقع حادث رهيب لسبيللو. لقد قتل شابٌ أخاه بمِدَمَة[1]. لا أحد يعرف السبب. لعله كان يغار منه مع إنه أخوه».

لسوء الحظ لم أستطع أن ألبي الدعوة المغرية. أرسلت لهما أطيب تمنياتي واقترحت أن أزورهما في الربيع التالي. ثم

---

[1] مِدَمَة: أداة ذات أسنان لجمع العشب.

انطلقت أبغي صديقي النجار حاملاً هدية إلى صغاره اشتريتها من نورنبرغ. هناك وجدتُ أن تغييراً كبيراً قد طرأ. فبعيداً عن الطاولة إلى جانب النافذة، كان يربض شكل إنساني، غريب، على مقعد ذي صينية كما كراسي الأطفال. إنه بوبي، أخو زوجة النجار، رجلٌ أحدب شبه مُقعد، بائس، لم يعد له مأوى بعد موت والدته العجوز مؤخراً. وقد أواه النجار مؤقتاً على مضض منه، وكان وجود المعاق المتواصل يخيم كالآفة فوق أهل البيت المنزعجين. لم يكونوا قد تعودوا عليه بعد؛ فالأطفال خائفون، والأم متعاطفة معه لكنها مرتبكة ومكتئبة، والوالد متضايق بشكل واضح.

كان رأس بوبي المؤثر بجبينه العريض، والأنف الدال على القوة والفم المتألم، الوسيم، يستقر على حدبة ضخمة، قبيحة، بلا عنق. كانت عيناه براقتين وهادئتين، وإن كانتا متوترتين قليلاً، ويداه الأنيقتان والصغيرتان بشكل ملفت للانتباه، كانتا تستلقيان دائماً بيضاوين وساكنتين عبر صينية الكرسي الضيقة. أنا، أيضاً، شعرت بالارتباك والانزعاج حيال ذاك الدخيل المثير للشفقة، وفي الوقت نفسه وجدت أنه من المربك أن أضطر إلى الإنصات إلى النجار يسرد تاريخاً موجزاً لحياة المريض بينما هذا الأخير يجلس قريباً منا يحدق إلى يديه، لأن لا أحد كان يخاطبه. وبدا أنه مشوّه الخلقة منذ الولادة، لكنه نجح في الالتحاق بمدرسة القرية واستطاع أن يكون عنصراً مفيداً مدة بضع سنوات، بشكل محدود، من نسج السلال إلى أن أضحى مُقعداً جزئياً بتأثير نوبات النقرس المتكررة. ومنذ بضع سنوات وحتى الآن وهو يجلس إما على السرير أو على كرسي المرضى، تدعمه الوسائد. وعرفت من زوجة النجار أنه في أيام

شبابه كان يغني لنفسه كثيراً لكنها كانت منذ سنوات لم تسمعه، وأبداً في المنزل الحالي. كان يجلس هناك، يحدق إلى المدى، بينما هذا كله يقال. وقد سبب لي اضطراباً شديداً وسرعان ما انتهزت الفرصة وغادرت المنزل، وتجنبت التردد عليه أياماً عديدة.

طوال حياتي كنت رجلاً قوياً صحيح الجسم، ولم أُصَب بمرض جلدي وكنت أنظر إلى المرضى، خاصة المعاقين، بعين العطف، المتعالية. لذا لم يناسبني على الإطلاق أن أدع حياتي الحالية المرحة والأليفة في منزل هذا المهني تتحطم تحت وطأة العبء الثقيل لوجود هذا المخلوق البائس. ورحت أُرجئ زيارتي التالية من يوم إلى آخر وحاولت عبثاً أن أضع خطة للتخلص من المعاق، فقلت في نفسي إنه لا بد من وجود طريقة لإيجاد مكان له في مستشفى أو مأوى ما بتكلفة معقولة. وهممتُ أكثر من مرة أن أعرج على النجار لنتحدث في الأمر لكن الحياء كان يمنعني من فتح الموضوع قبل أن يبادر هو إلى ذلك، وكان يتملكني رعب أحمق من مقابلة المريض مرة أخرى. وسرتْ في جسدي رعشة لدى تفكيري في اضطراري إلى رؤيته ومصافحته.

وهكذا تركتُ يوم أحد يمضي بدون فائدة. وفي يوم الأحد التالي كنت على وشك أن أنطلق إلى جبال يورا في قطار الصباح الباكر، وإذ بي فجأة أشعر بإحساس بالخجل من جبني يغلبني، فلزمت المنزل وبعد تناول الغداء توجهت إلى منزل النجار.

نجحت في دفع نفسي إلى مصافحة بوبي. وكان النجار في مزاج عكر واقترح عليّ أن نتمشى. لقد طفح كيله، كما قال لي، من حالة القلق هذه، وسرّني أن أجده منقاداً إلى اقتراحي.

وكانت زوجته ترغب في البقاء في المنزل لكن المعاق رجاها أن تذهب معنا؛ وقال إنه سيكون على أحسن ما يرام وحده. وكان من الممكن أن يوصدا الباب ويتركانه بدون أي قلق، شريطة أن يتركا كتاباً وكأساً من الماء إلى جانبه.

وهكذا أوصدنا، نحن الذين اعتبرنا أنفسنا غاية في اللطف والمراعاة، الباب وانطلقنا إلى نزهتنا. وقد استمتعنا بها، ولهونا مع الأطفال، ونعمنا بأشعة الشمس الخريفية، الذهبية والجميلة. ولم يساور أي منا إحساس بالخجل أو بوخز الضمير لتركنا المعاق هناك وحده في المنزل، بل على العكس، لقد كنا سعداء لأننا تخلصنا منه بعض الوقت. واستنشقنا الهواء النقي، الدافئ، مع إحساس بالارتياح، وكوّنا صورة مثالية للعائلة المحترمة والممتنة التي تستمتع بيوم الرب، يوم الأحد، بفهم وامتنان.

لم يعد النجار إلى فتح موضوع بوبي إلا بعد أن وصلنا إلى الحدود ولجأنا إلى أحد المطاعم لتناول كأس من النبيذ، وتحلقنا حول طاولة في الحديقة. أخذ يشتكي من ضيفه غير المرغوب فيه، وتذمر من المساحة التي يشغلها والنقود التي يصرفها عليه، ثم ختم الأمر بضحكة: «على الأقل نستطيع هنا ونحن في الخارج أن نستمتع بين حين وآخر مدة ساعة بعيداً عن إزعاجه».

هذه الملاحظة الطائشة استحضرتْ في ذهني صورة المعاق يستغيث بنا وهو يتألم؛ ذاك الذي لم نحبه، وأردنا أن نتخلص منه والذي في هذه اللحظة يجلس هناك، حزيناً ووحيداً، سجيناً ومنبوذاً في غرفة مظلمة. فقد تكشف لي أن الغسق سرعان ما سيسود وأنه لن يتمكن من إضاءة المصباح أو أن يقترب بأي قدر من النافذة. سوف يضطر إلى أن يضع الكتاب جانباً

ويجلس في الظلام لا يجد من يسامره أو يُزجي الوقت معه، بينما نحن هنا نشرب النبيذ ونضحك ونستمتع بوقتنا. وتذكرت كيف كنت في بلدة أسيزي أحكي للجيران عن القديس فرانسيس وأتفاخر بأنه علمني أن أعتبر الناس كلهم أخوة لي. ما فائدة دراستي لحياة القديس وتعلمي ترنيمته الرائعة عن الحب واقتفائي لخطاه على تلال أومبريا، إذا كان مخلوق عاجز ومسكين ملقى الآن هناك يتألم وأنا عالم بأمره وفي قدرتي أن أواسيه؟.

شعرت بقوة خفية تحطّ على قلبي، وتضغطه وتملأه بالألم، وبالخجل حتى إني بدأت أرتعش وانهارت مقاومتي. لقد أدركت أن اللّٰه يبعث إليّ برسالة.

وكأنه يقول لي: «أنت أيها الشاعر! يا تلميذ قديس أومبريا! أنت، أيها النبي الذي سيعلم الناس أن تحب وتسعد! أنت، أيها الحالم الذي يدّعي أنه يسمع صوتي في الرياح وفي المياه!».

«أنت تحب المنزل الذي يعاملك أصحابه بحب، والذي أمضيت فيه ساعات طويلة سعيدة. ومع ذلك في اليوم نفسه الذي أبارك فيه هذا المنزل بوصفه مكان راحتي تهرب أنت منه وتفكر في طردي! يا لك من قديس، ونبي وشاعر!».

كان الأمر أشبه بمواجهة مرآة صافية نقية، أرى نفسي فيها كما أنا، كاذب، متبجّح وجبان. كان أمراً مؤلماً، مريراً، محزناً وفظيعاً. ولكن كائناً ما كان ذاك الذي انقصف داخلي وعانى العذاب، وشبّ جريحاً، فإنه يستحق أن ينكسر ويُدمَّر.

انطلقتُ على عجل راكضاً، تركتُ النبيذ والكأس والطعام على الطاولة وهرعتُ عائداً إلى البلدة. كنت وأنا في حالة الهياج

أشعر بخوف شديد من أن يكون قد وقع حادث ما. لعل حريقاً شب، وسقط بوبي العاجز عن كرسيه وانطرح ميتاً أو متألماً على الأرض. تراءى لي مطروحاً هناك، تخيلتني حاضراً ولا أقوى على تجنب عتاب تحديقة المُقعَد.

وصلت مقطوع الأنفاس، إلى البلدة ثم إلى المنزل، واندفعت أرتقي الدرج. عندئذ فقط تذكرت أني واقف أمام باب موصد ولا مفتاح معي، لكن قلقي كان قد هدأ، وذلك لأني قبل أن أصل إلى باب المطبخ سمعت شخصاً يغني في الداخل. كانت لحظة غريبة. وقفتُ على منبسط الدرج الغارق في الظلام، ولا زالت أنفاسي مقطوعة وقلبي سريع الوجيب. لم اصدر أي صوت ورحت أنصت إلى غناء المقعد السجين في الداخل. كان يغني أغنية عاطفية تقليدية عن "الزهرة الحمراء والبيضاء" بصوت رقيق، رقيق وحزين قليلاً. عرفت أنه لم يكن قد غنى منذ وقت طويل. وقد أثر بي أن أسمعه في مثل تلك الساعة من الصفاء واختارها ليكون سعيداً على طريقته الخاصة برهة من الزمن. هكذا هي الحياة - تمزج الهزل بالجد بالعاطفة المشبوبة. عندئذ وعيت فكاهة الموقف وخزيه. ففي غمرة ذعري قطعت ميلين أو ثلاثة من الحقول ركضاً، لأجدني في آخر المطاف واقفاً أمام باب مطبخ بلا مفتاح! كان أمامي خياران: إما أن أعود أدراجي أو أعلن عن نواياي الحسنة بصوت عال من خلال الأبواب الموصدة. وقفت على الدرج، يملؤني العزم على أن أواسي الإنسان المسكين، أن أبدي اهتمامي به وأساعده على قتل ساعات انتظاره المملة، وها هو هناك في الداخل يغني ويجلس غافلاً، وإذا ما لفَتُّ انتباهه إلى وجودي بالهتاف أو بالدق على الباب فسوف يصاب بالرعب وحسب. ولم يبق

أمامي إلا أن أقفل عائداً. رحت أتسكع في شوارع يوم الأحد المزدحمة مدة ساعة من الزمن، وكانت العائلة في تلك الأثناء قد عادت إلى المنزل. وهذه المرة لم يكلفني مجهوداً كبيراً ذهابي إلى هناك ومصافحة بوبي. جلست إلى جانبه، وأخذت أتحدث إليه وأسأله عن قراءاته. لقد كانت تلك خطوة سهلة لتقديم بعض الكتب له وكان ممتناً. وعندما اقترحت عليه أن يقرأ جيريمايس غوتيلف[1]، اتضح أنه كان على اطلاع على مؤلفات ذاك الكاتب كلها بلا استثناء. أما غوتفريد كيللر فكان جديداً عليه، فوعدته أن أعيره بعضاً من كتبه.

في اليوم التالي عندما جلبت له الكتب سنحت لي فرصة لأنفرد به، ذلك لأن زوجة النجار كانت تهمّ بمغادرة المنزل وكان زوجها في ورشته. واعترفت له بشعوري بالخزي لأني تركته وحده في اليوم السابق وأضفت قائلاً إنه يسعدني أن يسمح لي أن أجلس معه وأكون صديقه.

حرّك المُقعَد القميء رأسه الكبير قليلاً باتجاهي، ونظر إليّ وقال: «شكراً جزيلاً»، ولم يزد. لكن إدارة رأسه كلفته جهداً كبيراً، يستحق فيضاً من العنق من إنسان طبيعي، وكان يحمل في عينيه بريقاً شديد السطوع والبراءة حتى إن وجهي احمرّ من شعوري بالخجل.

لكن كانت ما تزال تنتظرني مهمة أصعب هي التحدث مع النجار. شعرت أن أفضل ما في وسعي أن أفعله هو أن أدلي باعتراف فوري بما ينتابني من مخاوف وخجل مما حدث في

[1] جيريمايس غوتيلف: هو الاسم القلمي للكاتب السويسري ألبرت بيتزويس، الذي تُعتَبر قصصه عن الحياة القروية تحفاً صغيرة. ـــ المترجم

اليوم السابق. ولسوء الحظ لم يبدُ أنه أدرك ما رميت إليه لكنه على الأقل كان منفتح الذهن حوله. بمعنى أنه لم يعترض على فكرتي في تقاسم المعاق كأنه ضيف مشترك علينا. فنتقاسم نفقات إعالته القليلة وأتردد أنا عليه كما أريد وأعتبره كأخ لي.

في ذاك العام حافظ فصل الخريف على جماله، ودفئه فترة طويلة غير مألوفة. لذا فإن أول ما فعلته من أجل بوبي أني جلبت له كرسياً نقالاً لأخرج معه في كل يوم، وغالباً بصحبة الطفلين.

8

يبدو أنه قُدِّر لي أن آخذ من حياتي وأصدقائي أكثر بكثير مما آمل أن أعطي في المقابل. هكذا كان حالي في علاقتي مع ريتشارد، واليزابيث، والسينيورة نارديني والنجار، والآن وأنا في سنوات عمري الأشد نضجاً، ومفعم باعتدادي بنفسي، أجدني تلميذاً مندهشاً وممتناً لمعاق متألم. وإذا ما قُدّر لي أن أنشر العمل الذي بدأته منذ زمن بعيد، فإن قيمته سوف تدين بالدرجة الأولى إلى ما تعلّمته من بوبي. الآن انفتحت أمامي فسحة من السعادة كان في استطاعتي أن أستفيد منها بغزارة حتى آخر حياتي. لقد وُهبتُ امتيازاً عظيماً في قدرتي على النفاذ بعمق وصفاء إلى الروح الإنسانية النبيله التي مرّ عليها المرض، والوحدة، والفقر والإهمال كمرور العديد من السحب الخفيفة والسريعة. لقد كانت الآثام الحقيرة كلها تنغّص علينا في الحالة العادية الهبة الجميلة والقصيرة الأمد التي هي حياتنا وتحطمها. أقصد بها الغضب، ونفاذ الصبر، وسوء الظن، والزيف. أقول كانت تلك القروح المتقيّحة كلها التي تشوهنا قد كُويَتْ وشفيت في هذا الرجل من خلال معاناة مبرحة طويلة؛ هذا الرجل، الذي لا هو بالحكيم ولا بالملاك، وإنما مشحون بالفهم وترويض النفس، تعلّم تحت ضغط ألم رهيب وحرمان أن يقبل إعاقته، وهو متحرر من أدنى إحساس بالخجل، وأن يستسلم

لرعاية الله. وذات مرة سألته كيف ينجح في أن يتصالح مع جسده الضعيف، والمثقل بالألم الممضّ.

ضحك وقال: «إن الأمر بسيط جداً. إنني أشن حرباً لا أهاود فيها على مرضي. فأربح معركة وأخسر أخرى، وهكذا يستمر الصراع. أحياناً ندعو إلى وقف إطلاق النار وعقد هدنة، وينظر كل واحد منا بعين الريبة إلى الآخر في انتظار أن يشعر أحدنا باستعداده لمواصلة التحدي وتندلع الحرب من جديد».

كنت حتى ذلك الحين دائماً أتفاخر بأني صاحب حكم سديد وأني مراقب جيد. إلا أن بوبي في هذا المجال كان قد أصبح عندئذ أستاذي الذي أكنُّ له فائق الاحترام. ولما كان شديد الاهتمام بالطبيعة وخاصة الحيوانات، كنت كثيراً ما آخذه إلى حدائق الحيوان، وهناك نمضي ساعات ممتعة. وخلال فترة قصيرة أصبح بوبي يعرف كل حيوان فيها، وكنا كعادتنا دائماً نأخذ معنا خبزاً وسكراً، وأصبح العديد من الحيوانات يعرفنا، وقد عقدنا صداقات من كل الأنواع، وكنا مولعين خاصة بحيوان تابير[1] فضيلته الوحيدة أنه كان يتصف بحبٍ للنظافة نادر بين أفراد نوعه. وخلاف هذا كنا نجده متكبراً، وأخرق وعدائياً وجشعاً إلى أقصى حد. وبقية الحيوانات من فيل وأيل، وشاموا، وحتى الثور الأميركي المتجهم، كانت دائماً تُبدي نوعاً من الامتنان لقطعة السكر وكانت ترنو إلينا بنظرة ثقة وسعادة وتسمح لنا أن نداعبها. أما التابير فلم يكن يبدي أياً من ردود الفعل هذه. فما أن نقترب منه حتى يسرع بالدنو من القضبان، ويأخذ بمضغ ما نعطيه كله ببطء، وعندما يدرك أنه لم يعد لدينا

---

(1) التابير: حيوان استوائي أميركي يشبه الخنزير. ـــ المترجم.

المزيد لأجله، يبتعد بهدوء. كان ذلك يبدو لنا بمثابة دلالة على الكبر والسمة المميزة عند هذا الحيوان، ولما لم يكن يستجدينا أو يشكرنا على ما أعطيناه بل يقبله بتعال بوصفه تَقْدِمة واضحة، كنا نطلق عليه اسم جابي الضرائب. أحياناً كنا نتجادل. بما أن بوبي لم يكن في أغلب الأحيان قادراً على إطعام الحيوانات بنفسه. حول ما إذا كان التابير قد اكتفى أم نعطيه المزيد. ونزن المسألة بموضوعية مدققة وكأننا نناقش قضية وطنية. وذات مرة فور مغادرتنا قفص التابير، رأى بوبي أننا يجب أن نعطيه قطعة أخرى من السكر. فعدنا إليه، لكن في تلك الأثناء كان التابير، الذي عاد إلى مضجعه القشي، يطرف بعينيه بغطرسة، ولم يزعج نفسه بالاقتراب من القضبان. فناداه بوبي: «اعذرنا، أرجوك يا سيد جابي الضرائب، لقد أخطأنا في الحساب فيما يخص قطعة السكر». ثم انتقلنا إلى الفيل الذي كان يتهادى في مشيته جيئة وذهاباً مترقباً، ولوح لنا بخرطومه المرحِّب، الدن. وكان في استطاعة بوبي أن يطعمه بنفسه، وراح يراقب بابتهاج طفولي المخلوق الضخم وهو يلوح له بخرطومه المرن، ويتناول قطعة السكر من راحة يده، ويطرف لنا بعينيه الصغيرتين المرحتين تعبيراً عن ودّ ماكر.

حصلت على إذن من الحارس كي أترك بوبي في حديقة الحيوان في كرسي المرضى عندما لا يتوفر لدي الوقت لألازمه، بحيث يتمكن في مثل تلك المناسبات من الاستمتاع بأشعة الشمس والتفرج على الحيوانات. ولاحقاً ينقل إليّ مشاهداته. كان أشد ما يثير إعجابه مشاهدة الطريقة اللطيفة التي كان يعامل بها الأسد وليفته. فحالما تستلقي لتستريح يعمل على إيجاد مكان يقوم فيه بتمشّيه القلق جيئة وذهاباً بحيث لا

يلمسها ولا يزعجها بأي شكل أثناء مروره بها. وأشد ما أسعد بوبي كانت القضاعة. لم يكن يملّ قط من مراقبة السباحة والحركات البهلوانية الرشيقة لهذا المخلوق اللدن، وقد حكى لي كل شيء بوضوح وهو مستلق على ظهره في سريره لا يكاد يأتي بأي حركة، على الرغم من أن كل حركة تندُّ عن رأسه أو ذراعيه كانت تكلفه جهداً شاقاً.

ذات يوم من أصفى أيام ذاك الخريف أخبرت بوبي عن علاقتيَّ العاطفيتين. وكنا عندئذ قد أصبحنا على صلة حميمة بحيث لم أعد أرغب في أن أخفي عنه هاتين الحكايتين الحزينتين والمشرّفتين بشكل عام. وأنصتَ إليّ بجدية وتعاطف لكنه لم يدل بأي تعليق. ولاحقاً اعترف لي بتوقه إلى أن يشاهد اليزابيث. "اَلغيمة البيضاء". مرة أخرى، وطلب مني أن لا أنسى ذلك إذا ما تصادف وقابلناها في الشارع. وبما أن تلك المصادفة لم تحدث وأخذ الطقس يزداد برودة، عرّجتُ على اليزابيث وطلبت منها أن تحقق لمعاق مسكين رغبته. وكانت من اللطف بحيث وافقت على طلبي، وفي اليوم المحدد سمحت لي أن أمرّ عليها وأصحبها إلى حديقة الحيوان حيث كان بوبي ينتظر في كرسي المرضى. وعندما مدّت المرأة الأنيقة، والجميلة يدها للمعاق ومالت برأسها باتجاهه، نظر بوبي إليها برقة بعينيه اللطيفتين، الطيبتين، على وجهٍ سطع بالفرح. وكان صعباً أن أقرر أيهما عندئذ كان منظره مؤثراً أكثر أو أيهما كان أعزّ على قلبي. قالت له اليزابيث بضع كلمات ودية؛ ولم يقو المعاق على إزاحة عينيه عنها، وكنت أقف جانباً، سعيداً إذ أرى ولو برهة من الزمن الكائنين البشريين الأحبّ إليّ اللذين فصل القدرُ بينهما ببون شاسع، يتصافحان أمامي. وبعد ذلك لم يتحدث

بوبي طوال فترة بعد الظهر إلا عن اليزابيث؛ وتغنى بجمالها ورقيّها وطيبتها، وملابسها، وقفازها الأصفر وحذائها الأخضر، ومشيتها والتعبير في عينيها وصوتها، وبقبعتها الجميلة، في حين أن المرأة التي أحببتُ ومنحتها صدَقَة حلالاً لصديقي العزيز بدت لي حزينة وغريبة الأطوار.

في تلك الأثناء كان بوبي قد قرأ "هاينريش الأخضر" و"سكان سلدفيلا"[1] وغاص عميقاً في عالم هذين الكتابين حتى إننا اشتركنا في حبنا لبانكراتز المتجهم، وألبرتوس تزفيان وصانعي الأمشاط الأبرار في عيون أنفسهم[2]. وترددتُ في إعطائه مؤلفات كونراد. فرديناند ماير ليقرأها لكني رأيت أنه لن يتذوق بلاغة ذاك الأسلوب المحكم ذات الطابع اللاتيني. زيادة على ذلك، كرهتُ أن أفتح هوة التاريخ الفاغرة أمام تينك العينين، المرحتين، الهادئتين. وبدل ذلك حكيت له عن القديس فرانسيس وأعطيته حكايا موريكه ليقرأها. وقد فوجئت باعترافه بأنه ما كان ليستمتع بقصة "اللاو الجميل" كما ينبغي لو لم يكن في أغلب الأحيان جالساً عند بركة القضاعة مما أتاح له أن ينغمس في أخيلة مائية رائعة ومتنوعة.

كان من الممتع أن أخاطبه مع رفع الكلفة. وكان هذا يحدث عفواً. وعندما لاحظنا ذات يوم ذلك لم يسعنا إلا أن نبتسم وندع الأمر على حاله.

عندما وضع وصول فصل الشتاء حداً لنزهاتنا وجدتني مرة أخرى جالساً في صالون صهر بوبي، واكتشفت أن هذه الصداقة

---

[1] أقصوصتان للأديب الألماني غوتفريد كيللر (1819 ـــ 1890). ـــ المترجم.

[2] الإشارة هنا إلى أقصوصتي: "صانعو الأمشاط الثلاثة العادلون" و"بانكراتز المتجهم" للأديب الآنف الذكر. ـــ المترجم.

الجديدة، استلزمت من جانبي تضحية معينة، ذلك أن النجار كان دائماً مستاءً، نكداً وصموتاً. وسبب سخطه لم يكن فقط يعود إلى الحضور المزعج لفم عاطل يجب إطعامه وإنما أكثر من ذلك بسبب توطّد علاقتي ببوبي، فأحياناً كنت أجلس طوال فترة السهرة أستمتع بحديثي مع المعاق في حين ينفرد مضيفنا مع صحيفته، يستشيط غضباً في دخيلته. حتى إنه عارض زوجته التي كانت في العادة غاية في الحلم لأنها أصرت. وكانت صلبة في ذلك. على أن بوبي يجب أن لا يُرسَل إلى أي مأوى آخر. وقمت بمحاولات عدة لأهدئ من روعه وأقترح عليه حلولاً بديلة ولكن عبثاً. ثم بدأت طباعه تسوء وأخذ يسخر من صداقتي للمعاق ويفسد على هذا الأخير حياته. ويجب أن أعترف أن ذاك المريض وأنا، الذي أمضيت الردح الأعظم من النهار جالساً معه، كنا نشغل حيزاً كبيراً في المنزل الصغير، لكني لم أتخلَّ عن الأمل في أن يولع النجار، مثلنا، بالمريض. وأخيراً أصبح كل ما أفعله يؤذي النجار، أو يسبب الحرج لبوبي. ولما كنت دائماً أكره أن أتخذ قرارات سريعة وهامة. حتى خلال فترة وجودي في زوريخ، كان ريتشارد يطلق عليّ اسم بتروس كنكتيتور[1]. انتظرت أسابيع طويلة وكنت طوال الوقت أعاني خشية أن أخسر صداقة أي منهما أو كليهما.

نتج عن الضغط العاطفي الذي سببه هذا الوضع الصعب زيادة في ترددي على الحانة. وذات أمسية بعد أن أثار الوضع البائس كله غضبي الشديد، لجأت إلى محل صغير يقدم نبيذ الفادو وأغرقت حزني بعدة ليترات من النبيذ. وللمرة الأولى منذ

---

(1) أي بطرس البطيء. وهو اللقب الذي يُنعت به كل متأنٍ متردد. ـــ المترجم.

سنين نجحت في العودة إلى المنزل بدون أن أنهار في الطريق. وفي اليوم التالي، وأنا في مزاج هادئ مبهج. كما هو الحال بعد فترة من الشرب. استجمعت شجاعتي واقترحتُ على النجار وفي نيتي أن أضع حداً نهائياً للمهزلة، اقترحت عليه أن يحوّل بوبي بشكل كامل إلى عهدتي، فلم يبد أي اعتراض على اقتراحي. وأخيراً وبعد بضعة أيام من التأمل أعلن موافقته التامة.

بعد ذلك مباشرة أقمت مع المعاق المسكين في منزل جديد مستأجَر. وكأنه إجراء زواج، فقد كان عليّ عندئذ أن أبدِّل شقة عزوبتي بأخرى صغيرة ومرتبة تصلح لاثنين. وجرى الأمر على ما يرام، وأن كنت قد تورطت قبل أي شيء ببعض تجارب الأعمال المنزلية المزعجة. ولجأت إلى مساعدة يومية في التنظيف والغسيل. وكان طعامنا يأتي إلينا جاهزاً، وسرعان ما رفرفت علينا السعادة الغامرة وسارت حياتنا معاً بيسر وسهولة. ومنذ ذلك الحين لم تعد حاجتي إلى التخلي عن التمشي سيراً على القدمين والقيام بالنزهات تحزنني. لقد كان الحضور الحميم لصديقي يقوّي عملي ويفضي إليه، وإجراءات العناية الصغيرة بشخص مريض كلها كانت جديدة عليّ، وفي أول الأمر كانت مزعجة جداً، خاصة عملية إلباسه ملابسه وخلعها له. غير أن صديقي كان فائق الصبر وممتناً وقد جعلني أشعر بالخجل، وعانيت الأمرَّين في العناية به كما ينبغي.

لم أكن أتردد على صديقي البروفسور إلا قليلاً جداً، بينما ترددت على اليزابيث التي ظل لمنزلها، على الرغم من كل شيء، سحره الخاص بالنسبة إليّ. هناك كنت أجلس، أشرب الشاي أو كأساً من النبيذ، وأراقبها وهي تقوم بدور المضيفة، وأعاني

بين حين وآخر من نوبات عاطفية على الرغم من أني لم أكف قط عن السخرية في دخيلتي من المشاعر الفرتيرية[1] التي ثارت داخلي. لقد كانت أنانية الحب الشاب، الناعم، قد غادرتني إلى الأبد. واتخذت العلاقة بيننا شكل حالة من العداءات الساخرة، مدروسة ولكن ودية، وكنا نادراً ما نتقابل بدون أن ننغمس في شجارات طريفة. وكانت ذات عقل حيوي وغير منطقي على الطريقة الأنثوية، وعليه فإن هذه المرأة الذكية، والحاذقة، كانت نداً لطبعي كعاشق ولكن الشكس، ولأن كلاً منا كان يضمر للآخر احتراماً شديداً، كان في وسعنا أن نتشاحن بعنف أقوى حول أتفه الأمور. وأكثر ما كان يضحكني أني كنت أدافع عن العزوبة في مواجهة امرأة كنت قبل فترة قصيرة مستعداً أن أهب عيني لأتزوجها. بل كنت أضايقها بالتعليق على زوجها الطيب والفخور بزوجته الذكية.

لقد كان حبي القديم لها ما يزال مشتعلاً تحت الرماد، غير أن النار الملتهبة القديمة حل محلها الآن وهجٌ حكيم باقٍ يحافظ على شباب القلب يمكن لعازب ثابت لا أمل له أن يدفئ يديه فيها أحياناً في أماسي الشتاء. والآن وقد احتفظت ببوبي إلى ما شاء الله، وأصبح يمنحني ضمان حب منفتح ودائم، صرت اشعر أني قادر على أن أسمح لحبي أن يتريّث حصيناً بوصفه تذكاراً من عهد الشباب وروح الشِعر. ثم إن استفزاز اليزابيث الأنثوي النموذجي كان يساعدني على أن أهدأ وأشكر الله على أني أعزب.

منذ أن شاركني بوبي في المنزل بدأت أهمل باضطراد التردد على منزل اليزابيث. صرت أمضي وقتي مع بوبي. أقرأ له،

---

[1] الفرتيرية: نسبة إلى فرتر، بطل رواية "آلام فرتر" لغوته. ـــ المترجم.

وأقلّب معه صفحات ألبوم صور أسفاري ودفتر مذكراتي ونلعب الدومينو. وكنا أيضاً نشيع جواً من الحيوية مع الكلب الذي اشتريناه، ونشهد بداية فصل الشتاء من النافذة في حوارات طريفة وسخيفة لا نهاية لها. وكان المريض قد اكتسب سعة في الأفق، ونظرة عملية منفتحة إلى الحياة كنت أتعلم منها شيئاً جديداً في كل يوم.

عندما بدأت الثلوج تسقط غزيرة سَفَرَ الشتاء عن جماله الناصع على نوافذنا، ربضنا عند موقد النار واستسلمنا بنشوة طفولية لهذا الكسل البيتي. وعندئذ توصلت إلى تعلُّم فن فهم الناس الذي بذلت في السابق كل جهد ممكن لاكتسابه بلا فائدة. كان في إمكان بوبي، المراقب الهادئ، ولكن الحاد الملاحظة، أن يستحضر صوراً لا حصر لها من تجربته في مرابع طفولته، وحالما يباشر رواية قصة إذا بها تخرج منه رائعة. وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف غير عدد محدود من الناس في حياته ولم ينخرط قط في صفوف الجماهير الغفيرة، إلا أن معرفته للحياة كانت تفوق معرفتي، فقد كان متعوداً على أن يراقب أدق التفاصيل ويعثر على كنز من التجارب، والمتعة، والفهم، في كل شخص يقابله.

ظل عالم الحيوان هو مصدر التسلية المفضل لدينا. كنا ننسج قصصاً وخرافات من كل صنف ولون حول مخلوقات حديقة الحيوان، التي لم يعد في إمكاننا أن نزورها. ولم نكن نقصها كحكايات بل نلفّقها عفوياً على شكل حوار؛ وقد تكون إعلان عن حب بين اثنين من الببغاوات، أو شجارات عائلية بين ثيران أميركية، أو حديث قصير بين خنزيرين بريين.

«كيف الحال، هر مارتن؟».

«ليس على أحسن ما يرام، شكراً لك، هر رينارد. أنت تذكر كيف فقدت زوجتي العزيزة عندما قُبض عليّ. كان اسمها ذات الذيل الكث، كما سبق أن كان لي شرف إخبارك. كانت درّة النساء، أؤكد لك، و..».

«أوه، كُفّ عن حكاياتك القديمة تلك، يا جار. كم من مرة حكيت لي عن درّتك تلك، إن لم أكن مخطئاً. يا إلهي إننا لا نعيش إلا مرة واحدة ويجب أن لا نفسد المسرّة القليلة التي لدينا..».

«اعذرني، هر رينارد، ولكن لو أنك عرفت زوجتي لفهمتني بشكل أفضل».

«طبعاً، بدون أدنى شك. كان اسمها ذات الذيل الكث، أليس كذلك؟ اسم جميل. يغري بالمداعبة! ولكن كما كنت أقول . هل لاحظت كيف يزداد خطر عصافير الدوري من جديد؟ لذا وضعت خطة صغيرة».

«تقصد فيما يخص عصافير الدوري؟».

«نعم.. عصافير الدوري. انظر، إليك الفكرة. سوف نضع بعض الطعام أمام القضبان ونجلس القرفصاء بهدوء وننتظر مجيء المتسولين الصغار. سوف أُدهش إذا لم نقبض على أحدها بهذه الطريقة».

«رائع يا جار».

«إذن، تلطّف وضع بعض بقايا الطعام. عظيم! ولكن ربما عليك أن تزيحها قليلاً إلى اليمين؛ سيكون ذلك أفضل لنا نحن الاثنين. لسوء الحظ لا بقايا خبز عندي حالياً. عظيم! انظر عبر النافذة. الآن سوف نختبئ ونغمض عيوننا قليلاً. ولكن صمتاً، ها هو أحدها يحطّ الآن!» صمت.

«مادا، هر رينارد، ألم يحطّ أحدها بعد؟».

«ما أضيق صدرك! وكأنك لم تصطد شيئاً من قبل! على الصياد أن يتعلم أن ينتظر، وينتظر، وينتظر. هيا، فلنُعد الكرة!».

«إذن، أين ذهب الخبز؟».

«عفوا؟».

«الخبز اختفى».

«مستحيل ! الخبز؟ لقد اختفى حقاً! يا إلهي. أنا مصعوق . إنها تلك الريح اللعينة مرة أخرى!».

«لدي رأيي الخاص حول هذا. أعتقد أني سمعت صوت مضغ قبل برهة».

«أنا؟ آكل؟ ماذا عساي أكلت؟».

«الخبز ربما».

«إن تلميحاتك شديدة الوضوح إلى حد مهين، هر مارتن. إن المرء يمكن أن يقبل ملاحظة من جار، لكنك تبالغ كثيرا! أكرر، كثيرا! أتفهم؟ إذن، المفروض أني سرقت الخبز أليس كذلك؟ ما سبب هذا كله؟ أولاً عليّ أن أنصت إلى قصة سقيمة عن زوجة شابة أثيرة للمرة الألف، ثم خطرت لي فكرة بارعة هي أن ينثر بعض الخبز..»».

«ولكنها فكرتي! أنا الذي نثرت الخبز».

..«ننثر بعض الخبز، وأنا أستلقي وأراقب، وكل شيء يسير وفقاً للخطة؛ ثم تبدأ الثرثرة كالمعتاد. وطبعاً سوف تأتي عصافير الدوري وتذهب، وينهار مشروع الصيد وتتويجاً لهذا كله يُفترض أني أنا الذي أكلت الخبز! حسن، يمكنك أن تتوقف هنا وتنتظر طويلاً لأني لن أسامحك قريباً..»».

هكذا كانت فترات بعد الظهر والمساء تمر بنا رخية. كنت في أحسن حالاتي النفسية، أنجز عملي بسرعة وحماس، ولا أكاد أصدق أني كنت كسولاً إلى ذاك الحد، وسيء المزاج ومكتئباً من قبل. حتى أفضل الأيام التي أمضيتها مع ريتشارد لم تكن تضاهي تلك الأيام البهيجة والهادئة، عندما تتراقص رقائق الثلج في الخارج ونجلس مكنكنين مع الكلب بالقرب من موقد النار.

ثم كان الوقت الذي ارتكب فيه أثيري بوبي حماقته الأولى والأخيرة. لقد كنت، وأنا في حالة القناعة تلك، غافلاً تماماً، وهذا طبيعي، عن حجم تألمه غير العادي. إلا أنه بما اتصف به من طيبة وحب كان يُظهرُ مزيداً من المرح، ولا ينطق بأي شكوى، ولا حتى يطلب مني أنَ أمتنع عن التدخين. في حين أنه كان يقضي الليل وهو يتألم، ويسعل ويئن برفق. وبمحض الصدفة وبينما كنت أعمل في وقت متأخر من الليل في الغرفة المجاورة لغرفته وكان يعتقد أني أويت إلى السرير منذ وقت بعيد، سمعته يتوجع. ودُهل المسكين وبوغت عندما ولجتُ فجأة غرفته، حاملاً مصباحاً. أنزلته، وجلست على طرف السرير ورحت أستجوبه. حاول برهة أن يتملص من الموضوع لكن الحقيقة ظهرت أخيراً.

قال بتواضع: «إنه ليس سيئاً إلى هذا الحد. إنه مجرد إحساس بالضيق حول القلب عندما أكثِر من الحركة وغالباً عندما أتنفس».

كان يتكلم بنبرة اعتذارية وكأن مرضه جريمة.

في صباح اليوم التالي خرجت لأستشير طبيباً. كان نهاراً جميلاً، صافياً، وأثناء سيري في الطريق غادرني حزني وقلقي.

فكرت في عيد الميلاد وفي ما يمكن أن أحضره لأجلب السعادة إلى قلب بوبي. كان الطبيب ما يزال في منزله واستجابة لطلبي الملح رافقني على الفور. انطلقنا في عربته المريحة، وارتقينا الدرج، ودخلنا غرفة بوبي، ومن ثم تبع ذلك الاستجواب وفحص الصدر بالتسمّع، ثم أصبح الطبيب أكثر جدية قليلاً وصوته أكثر تعاطفاً قليلاً، ونزّ مني تفاؤلي كله.

داء النقرس، ضعف في القلب ـ في مرحلة خطرة ـ أنصتُّ إليه ودوَّنتُ ملاحظات وفوجئت إذ وجدتني لا أعترض على قول الطبيب إن على المريض أن يُنقل إلى المستشفى.

وصلتْ عربة الإسعاف خلال فترة بعد الظهر، ولدى عودتي من المستشفى شعرت بوحشة فظيعة في المنزل. التصق الكلب بي، وكان كرسي المريض موضوعاً جانباً، والغرفة المجاورة لغرفتي خالية.

هكذا يكون حال الروابط الودية المتينة. إنها تجرُّ الأحزان وراءها، وقد عانيتُ الكثير منها خلال سنوات تالية. ولكن أيضاً لا يهم كثيراً إن كنتَ تتحمل أحزاناً كثيرة أم لا، طالما أنك تعيش مع أشخاص آخرين ولأجلهم، وكنت مدركاً للرباط الذي يربط المخلوقات الحية كلها معاً، شريطة أن لا تسمح قبل أي شيء للحب أن يتلاشى. لقد كنتُ مستعداً أن أهب الأيام السعيدة كلها التي استمتعت بها وعلاقاتي العاطفية كلها مقابل أن أعيش من جديد بعمق تجربة تلك الأشياء المقدسة التي أُهدِيَتْ إليّ خلال تلك الفترة من حياتي. إنه حزن مرير لعينيّ وقلبي، وقد أُصيبت كبريائي واحترامي لذاتي في الصميم، لكني شعرت لاحقاً بالسكينة والتسامح الشديدين، بأني أكثر حكمة وحيوية في أعماقي.

كان جزء من ذاتي القديمة قد تلاشى مع آغي الشقراء. والآن ها أنا أرى صديقي الأحدب الذي كرّستُ له عاطفتي كلها وقاسمته حياتي، يعاني الآلام ويموت موتاً بطيئاً يوماً بعد يوم، وكان لي دور في رعب الموت وقداسته كلها. كنت ما أزال مبتدئاً في فن الحب، وبات عليّ عندئذ أن أباشر في كتابة الفصل الصعب حول فن الموت. ولن اسدل ستاراً على هذه الفترة كما فعلتُ على سنواتي في باريس. إنني أفضل أن أتكلم عنها بلا أي تحفظ، كما تتحدث عروس عن حفل زفافها أو عجوز عن شبابه. لقد شهدتُ موت إنسان كانت حياته لا تتألف إلا من الحب والألم. سمعته يمزح كطفل في حين كان يكاد يشعر بالموت يعمل عمله فيه. رأيت كيف كانت عيناه تفتشان عن عينيّ من أعماق معاناته؛ ليس طلباً للشفقة وإنما لكي يواسيني ويبين لي أن نوبات العذاب تلك لم تصبه بأي أذى. خلال تلك اللحظات كان بؤبؤا عينيه يتسعان ولا أعود أرى حدود وجهه، وإنما فقط تعبيره الوضّاء.

«ألا أستطيع أن أقوم بأي شيء من أجلك، يا بوبي؟».

«حدثني عن شيء ما. ربما عن الثور الأميركي».

فأتحدث عن الثور الأميركي. ويغمض عينيه وأكافح كفاحاً شاقاً لكي أتكلم بالطريقة القديمة، لأني كنت على شفا أن أذرف الدموع. وعندما أعتقد أنه لم يعد ينصت أو أنه استغرق في النوم، أتوقف على الفور. عندئذ يفتح عينيه من جديد.

«وبعد ذلك..؟».

وأتابع حديثي له عن الثور الأميركي، وكلب البودل، ووالدي والولد الشقي ماتيو سبينيللي، واليزابيث.

«نعم، لقد تزوجتْ من رجل أحمق. هكذا حال الدنيا يا بيتر!».

وكثيراً ما كان يباشر نقاشاً حول موضوع الموت.

«إنه ليس مزاحاً، يا بيتر. إن أشق الأعمال لا يقارن بالاحتضار. لكن الإنسان ينجح بصورة ما في اجتيازه».

أو يقول: «حالما يزول الألم، أستطيع أن أضحك من جديد. سوف يقدم الموت لي معروفاً ويخلصني من الحدبة، والقدم القصيرة والورك المشوّه. سوف يكون الأمر مؤسفاً عندما سيأتي دورك. أنت بكتفيك العريضين، وساقيك القويتين، الحسنتي التكوين».

وفي مناسبة واحدة مع اقتراب النهاية، استيقظ بعد فترة قصيرة من النوم، وقال بصوت مسموع: «لا وجود للجنة كما يصفها رجل الدين. إن الجنة أفضل بكثير، أفضل بكثير».

كثيراً ما كانت زوجة النجار تأتي وتمدّ يد المساعدة بأسلوب متفهم ومدرك. وما أحزنني كثيراً أن النجار نفسه لم يحضر قط.

سألت بوبي: «ما رأيك؟ أتظن أن الجنة تحوي أيضاً ثوراً أميركياً؟».

أومأ موافقاً: «أوه، نعم. إن كل الأنواع ممثلة هناك، حتى الشاموا[1]!».

حل عيد الميلاد وأقمنا احتفالاً صغيراً. كان هناك صقيع قاس، وذاب ثم تبعه سقوط ثلج على الجليد الأملس. لكني لم ألاحظ هذا كله. وقد سمعت ومن ثم نسيت على الفور أن

---

[1] الشاموا: نوع من الغزلان. ـــ المترجم.

اليزابيث قد أنجبت ولداً. وصلتني رسالة مضحكة من السينيورة ناراديني قرأتها على عجل ثم نحيتها جانباً. أسرعت في إنجاز عملي، ولم أنس قط أن أسرق كل ساعة يمكنني أن أسرقها لأقضيها مع المريض. ثم أنطلقُ قلقاً وبرماً، إلى المستشفى حيث أجد جواً من الصفاء والهدوء، وأجلس بجانب سرير بوبي ساعات طوال، يحيط بي سلام عميق، كالحلم.

قبيل حلول النهاية أمضى بعض الأيام الطيبة. والخارق في الأمر أن الوقت الذي انصرم لتوه بدا وكأنه امّحى من ذاكرته وأصبح الآن يعيش من جديد وبشكل كامل سنوات عمره الأولى. وظل على مدى يومين لا يتكلم إلا عن أمه. ولم يكن يستطيع أن يتكلم طويلاً في كل مرة، ولكن كان جلياً خلال فترات الساعات الطوال أنها كانت ما تزال تشغل تفكيره كله.

قال بنبرة حزينة: «إنني لم أخبرك إلا القليل عنها. يجب أن لا تنسى ما أخبرك به عنها وإلا لن يبقى مَنْ يعرف أي شيء عنها ويكون ممتناً لها. كم كان رائعاً يا بيتر لو أن كل إنسان لديه أم مثلها. إنها لم تفكر قط في أن ترسلني إلى المأوى، حين أصبحت عاجزاً عن العمل».

كان مستلقياً هناك، يتنفس بصعوبة. مرت ساعة ثم بدأ يتكلم من جديد.

«لقد أحبتني وآثرتني دون أولادها كلهم، وأبقتني معها حتى مماتها. ثم هاجر أخوتي وتزوجت أختي من النجار، لكني لم أبارح المنزل، وعلى الرغم من شدة فقر أمي إلا أنها لم تحرمني من أي شيء. يجب أن لا تنسى أمي أبداً يا بيتر. لقد كانت إنسانة ضئيلة الحجم، حتى أضأل مني. حين كانت تمد لي يدها أشعر وكأن عصفوراً صغيراً جداً ربض على يدي. كان يكفيها تابوت طفل. هذا ما قاله جارنا روتيمن حين ماتت!».

تابوت طفل كان سيناسبه هو أيضاً. كان ممدداً صغيراً جداً ومنكمشاً وسط سريره النظيف في المستشفى، وعندئذ بدت يداه أشبه بيديّ امرأة مريضة. طويلتان، ضيقتان بيضاوان ومعقوفتان قليلاً. وعندما توقف عن الحلم بأمه في يقظته بدأ يتحدث عني أنا. كان يتكلم عني وكأني غير موجود معه.

«إنه إنسان قليل الحظ بحق، لكنه أقدر على مواجهة ذلك! أمه ماتت أيضاً».

سألته: «ألم تعد تتعرّف عليّ يا بوبي؟».

قال مازحاً: «بل أتعرّف عليك دون شك، هر كامينتزيند». وضحك برقة.

ثم أردف بعد ذلك مباشرة: «ليتني أستطيع أن أغني».

في يومه الأخير سألني: «بالمناسبة، هل التكلفة غالية هنا في المستشفى؟ قد تصبح التكاليف باهظة جداً».

لم يكن يبدو أنه ينتظر جواباً. تسرّب قليل من الاحمرار على وجنتيه الشاحبتين، وأغمض عينيه وبدا برهة من الزمن صورة للإنسان السعيد سعادة بلا حدود.

قالت الممرضة: «إنه يرحل».

لكنه عاد ففتح عينيه، ووجّه إليّ نظرة خبيثة ثم رفع حاجبيه وكأنه يحاول أن يعطيني إشارة ما. نهضتُ واقفاً، ووضعتُ يدي على كتفه الأيسر ورفعته برفق، وهو وضعٌ كان دائماً يريحه. وبينما هو يميل هكذا على يدي، التوى فمه بفعل نوبة ألم قصيرة، ثم أدار رأسه قليلاً وارتعش وكأن برودة مفاجئة سَرَتْ فيه. وكان الانعتاق الأخير.

سألته: «أأنت على ما يرام؟»، لكنه كان قد رحل لتوه مخلفاً وراءه كل الآلام وكان يزداد برودة تحت يدي. كانت

الساعة الواحدة من بعد ظهر السابع من كانون ثاني. وقرابة المساء أقمنا الشعائر الدينية الأخيرة، والجسد الضئيل المنكمش مسجى ساكناً ونظيفاً، ولم يعد وجهه مشوهاً، ريثما يحين وقت أخذه لدفنه. وخلال اليومين التاليين كنت دائماً مندهشاً لأني لم أكن حزيناً ولا مضطرباً، بل إني لم أستطع أن أبكي. كنت خلال فترة مرضه أشعر بالفراق وبالرحيل الأخير بعمق بحيث نضبت عواطفي، وكفة حزني الراجحة خفّت ببطء وعادت إلى وضع التوازن.

غير أني بعدئذ رأيت أنه قد حان الوقت بالنسبة إليّ كي أخرج من البلدة وأجد لي مكاناً أستعيد فيه عافيتي. في الجنوب، إذا أمكن. وأن أمدّ، إذا جاز التعبير، نسيج عملي الذي كان ما يزال في مرحلته الأولى. وكان ما يزال في حوزتي بعض المال، فتخليت عن التزاماتي الأدبية وقمت بالاستعدادات اللازمة لحزم متاعي والرحيل لدى ظهور أول تباشير الربيع. كنت أنوي أن أبدأ بالتوجه إلى أسيزي حيث كانت تاجرة الخضار تتوقع زيارتي لها، ثم إلى أشد ما يمكنني العثور عليه من بين القرى الجبلية هدوءاً، لأقوم ببعض العمل المكثف. لقد شعرت أني خلّفتُ ورائي تجربة كافية في الحياة وفي الموت تبيح لي أن أخطب في الآخرين حول هذا الموضوع. وانتظرت وصول شهر آذار بلهفة مرحة. حتى إني كدت أسمع اللعنات الإيطالية المميزة ترنّ في أذنيّ مسبقاً، وكادت تدغدغ منخريّ رائحة الأرزية[1] والبرتقال وخمر الكيانتي.

وجدت خطتي كاملة وكنت كلما فكرت فيها أجدها أفضل من السابق. إلا أني أحسنت فعلاً بالاستمتاع بالكيانتي المفضل لدي سابقاً، ذلك لأن الأمور سارت في اتجاه معاكس

---

[1] الأرزية: أرز يطبخ مع اللحم والجبن.

تماماً. ثم وصلتني رسالة غريبة، صيغت بلغة مفخمة، من صاحب الحانة، نيديغر، يعلن فيها أنه قد هطل ثلج غزير في شهر شباط، وأن الأمور في القرية، فيما يخص الماشية والسكان، في أسوأ حال. وحالة والدي حرجة جداً، وعموماً سيكون من الأفضل لو أرسِل نقوداً أو أحضر شخصياً. وبما أنه ليس من المناسب أن أرسل نقوداً وكنت قلقاً جداً على والدي العجوز، شعرت أنه يتوجب علي أن أذهب على الفور. ووصلت في يوم غائم. كانت عاصفة ثلجية عنيفة قد حجبت الجبال والمنازل عن الأنظار، وكان من حسن حظي أني أعرف الطريق وأنا مغمض العينين. العجوز كامينتزيند لم يكن طريح الفراش، كما كنت أتوقع، بل جالساً يخيم عليه البؤس والكآبة بالقرب من موقد المطبخ، وكانت إحدى الجارات تحافظ على نظام أمره وقد أحضرت له بعض الحليب وكانت توبخه على تصرفاته الشريرة، واستمرت في إلقاء موعظتها الرنانة، دون أن يربكها وصولي.

علّق الخاطئ الوقور: «انظري، ها قد وصل بيترا»، وغمز لي بعينه اليسرى.

لكنها تابعت إلقاء موعظتها، لا يثنيها شيء، وجلست على أحد الكراسي، بانتظار أن يجف معين محبتها المسيحية، وقد وجدت أن بعض جوانب موعظتها ينطبق عليّ. في تلك الأثناء كنت أراقب الثلج يذوب عن معطفي وجزمتي ويشكل أولاً بقعة رطبة، ثم بركة هادئة حول سيقان كرسيي. ولم يتم فسح المجال لحدوث التئام الشمل الرسمي - والذي شاركتْ فيه ودياً وعن طيب خاطر. إلا بعد أن استنفذت المرأة كل ما لديها من كلام. كان والدي قد أضحى أكثر هشاشة. وتذكرت محاولتي

القصيرة السابقة للعناية به. على أي حال لم يساعده تركي له، وسوف أظل، بما أن حضوري الآن أصبح ضرورياً أكثر من أي وقت مضى، أحصد عواقب ذلك. مهما يكن، لا يمكن أن نتوقع من قروي نكد المزاج، لم يكن مثالاً للفضيلة حتى في أفضل أيامه، أن يصبح ذا إدراك في مرحلة خرفه أو أن يتأثر بأي حال بمشهد حب بَنَويّ. ولا هو كان كذلك. في الحقيقة لقد كان مع تفاقم ضعفه يصبح بغيضاً أكثر، وقد ردّ لي كل الإزعاج الذي كنت قد سببته له، وإن لم يكن مضافاً إليه الفائدة فبشكل كامل. كان مقتصداً وحذراً بتصريحاته واحتال بلا عون من الكلمات على أن يبدو ساخراً، وساخطاً وعدائياً بطرق شتى. وكنت أحياناً أتساءل إن كنت في شيخوختي سأصبح مثله شخصاً مثيراً للأعصاب ويصعب التعامل معه. وكانت أيام إسرافه في شرب الخمر قد مضت وولت، وكان يستمتع بشرب كأس من "الجنوب الدافئ" أقدِّمُ له منه مرتين في اليوم على مضض، لأني كنت دائماً أعيد الزجاجة إلى القبو الفارغ لعدم ائتماني له على المفتاح.

مع نهاية شهر شباط بدأت من جديد تلك الأسابيع الوضاءة التي تجعل من فصل الشتاء في أعالي جبال الألب معجزة. كانت الذرى الشاهقة، المكللة بالثلوج، تبرز جلية في وجه السماء ذات زرقة القنطريون العنبري وتبدو قريبة بشكل غريب في الجو البراق. وكانت المروج والمنحدرات مغطاة بذاك الثلج الجبلي، الأبيض الشفاف والقاسي، ولا يُرى له مثيل أبداً في الوديان. وعند الظهيرة تبدو أشعة الشمس وكأنها تلهو خاصة حول كل النتوءات الصغيرة في الثلج، والظلال ذات الزرقة العميقة المتلكئة داخل الأغوار وعلى المنحدرات، ويكون الهواء

من شدة النقاء بعد أسابيع طويلة من سقوط الثلج حتى أنك تنتشي بكل نَفَس تأخذه. وينغمس الشبان الصغار في التزلج على المنحدرات غيرِ السحيقة، وخلال الساعة الأولى بعد الظهر ترى العجائز موزعين في الشوارع واقفين يتشمسون، وخلال الليل يُسمع صرير الروافد الخشبية بفعل الصقيع. ووسط حقول الثلج المبهرة تمتد البحيرة التي لا تتجمد أبداً زرقاء وهادئة أجمل بكثير مما تبدو في فصل الصيف.

في كل يوم وقبل تناول وجبة العشاء كنت أساعد والدي في الوصول إلى الشرفة، وأراقبه وهو يمد أصابعه الكثيرة العقد والبنية اللون إلى أشعة الشمس الدافئة، الجميلة. وبعد قليل يبدأ بالسعال والشكوى من البرد. وكانت تلك إحدى حيله البريئة لإقناعي بإعطائه كأساً من الخمر، إذ لا السعال ولا البرد كانا جديين، وبهذه الطريقة يتملقني للحصول على كأس صغيرة من كحول الجنطيانا أو الأفسنتين، ويتوقف عن السعال على فترات محسوبة ببراعة، وهو بدون شك يقهقه في دخيلته لأنه فاقني دهاءً. بعد تناول طعام العشاء أتركه ينفرد بنفسه، واشد الرباط حول ساقي وأنطلق إلى الجبال أقضي فيها بضع ساعات، وأصعد عالياً بقدر ما يسمح الوقت. ثم أجلس على كيس عتيق جلبته معي، وأقفل عائداً منزلقاً إلى المنزل على الحقول المنحدرة المكسوة بالثلوج.

عندما حان الوقت لأقوم بالزيارة المقترحة إلى أسيزي، كان قد بلغ سمك الثلج ثلاثة أقدام. ولم تظهر علائم فصل الربيع حتى شهر نيسان، جالباً معه ذوباناً سريعاً بشكل لم يحدث مثيلاً له في قريتنا منذ سنين. كان في وسعنا أن نسمع هبوب رياح الفون، وتحطّم الجلاميد على البعد، والهدير الغاضب

لفيوض الجبال، حاملة معها كتل الصخور الضخمة، وأشجاراً محطمة تقذفُ بها إلى أراضينا الضيقة وبساتيننا من الأشجار المثمرة. وجافاني النوم بسبب ما يسمى بحمى رياح الفون. وليلة بعد ليلة، كنت أسمع، وأنا مرهق الأعصاب ومشحون بالقلق، أنين الرياح، وهدير الجلاميد، وهياج مياه البحيرة وهي تضرب شواطئها. ومرة أخرى، خلال الفترة المحمومة من جحيم ذاك الربيع الرهيب، هاجمتني لوعة الحب المكبوتة، وكانت من العنف بحيث إني خرجت من السرير ليلاً، واتكأت على النافذة الفرنسية الطراز ورحت أنادي اليزابيث في غمرة هياجي المرير بكلمات ملؤها الحب أطلقتها إلى سعير العاصفة في الخارج. ومنذ تلك الليلة الدافئة في زوريخ عندما هذيت هكذا وأنا فوق قمة التل أستشرف منزل صديقتي الرسامة الإيطالية لم يشن الوَلَه عليّ مثل ذاك الانقضاض الوحشي الذي لا يقاوم. والآن لا أنفك أشعر بطيب المرأة الجميلة قريباً جداً مني، وكأنني أراها تبتسم وتتراجع مع كل خطوة أخطوها نحوها. وكيفما شردت أفكاري التافهة تعود إلى تلك الصورة، وكرجل جريح لا أتمالك نفسي من حك التقرح الأكال. والخجل الذي تملكني كان معذِّباً وعقيماً. فلعنت رياح الفون وعلى الرغم من عذاباتي كلها كنت واعياً لإحساس مماثل بنشوة خرساء تشبه ما مر بي في عهد فتوتي الأولى عندما كانت أفكاري تعود إلى روزي الحلوة وموجة العشق الدافئة، الغامضة، التي غمرتني.

لقد أدركت أنه لا براء من هذا المرض، لكني على أي حال حاولت أن أنجز بعض العمل. باشرت في تنفيذ تحفتي الأدبية، التي كنت قد وضعت بعض أفكارها الأولى لكني سرعان ما رأيت أن الوقت لم يحن بعد لإكمالها. وفي تلك الأثناء كانت التقارير

المقلقة حول ما تسببه رياح الفون من ضرر تردُ تباعاً، وفي القرية ذاتها سادت حالة من الطوارئ، فقد دُمِّرت السدود، ولحقت بالعديد من المنازل، والحظائر والإسطبلات أضرار ثقيلة، ووصل عدد من المشردين من خارج دائرة أبرشيتنا. وكانت قصة الأسى وحالة الطوارئ والافتقار إلى المال تتكرر في كل مكان. وخلال تلك الأيام أسعدني الميجور بأن أرسل يطلب مني أن أعرِّج عليه في المجلس البلدي، وهناك سألني إن كنت أرغب في أن أصبح عضواً في لجنة الإسعاف، بحيث أكون ممثلاً لأبرشيتنا في الكانتون، وكانت مهمتي أن أحثّ البلد بشكل عام، عن طريق الصحافة، على تقديم يد المساعدة والمال. وجاء الطلب في محله، فقد أتاح لي فرصة لأغمر أحزاني العقيمة الحاضرة في قضية قيّمة وجدّية انكببتُ عليها بقلبي وروحي. وراسلت بعض الأشخاص في بازل وسرعان ما عثرت على بعض المتطوعين. وكنا نعرف تواً أن الكانتون نفسه لا يملك المال وليس في وسعه أن يرسل إلا بضعة عمّال. لذا وجّهتُ انتباهي إلى الصحف فزودتها بالتقارير والاستغاثات؛ وتدفقت رسائل المساهمات والاستفسارات إليّ، وبالإضافة إلى كل المراسلات كان عليّ أن أحارب القرويين العنيدين فيما يخص مسائل تتعلق بمجلس الأبرشية.

لقد أفادتني تلك الأسابيع القليلة من العمل المرهق المحتوم. وعندما تمت السيطرة بالتدريج على الوضع أخذتْ الحاجة إليّ تقلّ، وبدأت الخضرة تعود إلى المروج والبحيرة تدير مرآتها الزرقاء والمشمسة البريئة نحو المنحدرات، التي كانت قد تخلصت من الثلوج. كان والدي يقضي أياماً ممتعة بدرجة مقبولة وكان افتتاني باليزابيث قد تلاشى كتلاشي آخر الثلوج

القذرة عن الجلاميد. كان ذاك الوقت من العام الذي تعوّد فيه والدي في الأيام الخوالي أن يدهن قاربه، بينما تكتفي أمي بالنظر إليه من الحديقة، وأراقبه أنا وهو يعمل بتوان والدخان يتلوى متصاعداً من غليونه، والفراشات الصفراء تطير. أما الآن فلا قارب يُعاد دهنه، وأمي ماتت منذ وقت بعيد، ووالدي يتسكع حول المنزل المهمل. وخالي كونراد أيضاً ذكّرني بالأيام الماضية. كنت أصحبه، خفية عن عينيّ والدي إلى الحانة لنشرب كأساً من النبيذ وأنصت إليه وأنا أضحك بقلب صاف وبدون أدنى شعور بالفخر، وهو يروي ويستغرق في ذكريات حول مشاريعه الضيقة الأفق. كان عندئذ قد كفّ عن تلفيقها وتركتْ السنون آثارها عليه. ومع ذلك ما زال هناك شيء من الطفولة والشباب في طريقته في الكلام وفي ضحكه الذي كان يطيب لي أن أسمعه. وفي مناسبات كثيرة كان يشكل مصدر راحة وتسلية بالنسبة إليّ عندما كنت لا أطيق البقاء في المنزل مع والدي. وعندما كنت أصحبه معي إلى الحانة كان يخبُّ إلى جانبي ويبذل بعصبية أقصى جهده كي يساوي خطوته بخطوتي بساقيه النحيلتين والمقوستين.

وأقول له مقترحاً، لكي أبهجه: «يجب أن تعود إلى ممارسة الإبحار»، وهذا الحديث عن الإبحار يقود بشكل حتمي إلى موضوع قاربنا القديم، الذي لم يعد له وجود، وكان يأسى على فقدانه وكأنه صديق حبيب. ولما كنت بدوري مولعاً بذاك الحطام العتيق وأفتقده، رحنا نحيي ذكرياتنا عن كل الحكايات التي تدور حوله بتفاصيل مسهبة.

كانت مياه البحيرة زرقاء كعهدها دائماً، والشمس لا تقل سطوعاً ودفئاً، وخلال السنوات الأخيرة كنت كثيراً ما أراقب

الفراشات الصفراء مع شعور بأنه لم يطرأ أي تغيير جوهري على تلك الأيام الخوالي. وأنه في وسعي أيضاً أن أنطلق وأستلقي على تلك المروج وأستغرق في آمال طفولية، ولكن أصبح يتجلى لي في تلك الأيام بينما أنا أغسل وجهي بأنفه البارز وفمه الحزين، وهو يبادلني الابتسام بالابتسام من الصحن المعدني الصَدِئ، أن الأمر ليس في الحقيقة على هذا الشكل وأني قد استهلكت جزءاً كبيراً من سنوات عمري. وكامينتزيند الأكبر أيضاً رأى أني يجب أن لا أنغمس في أي أوهام بشأن تبدل الأحوال، وأني إذا أردت أن أعود بسرعة وبصورة كاملة إلى الحاضر، ليس أمامي إلا أن أفتح درج الطاولة المزدحم بالأغراض في غرفتي حيث توجد "تحفتي الأدبية"، المؤلفة من اسكتشات مؤقتة باهتة اللون وست أو سبع صفائح ريعية من الورق من المسودات الأولية، هاجعة. لكني لم أفتحه قط.

بالإضافة إلى العناية بأبي، كان ينبغي أن أجري تصليحات على المنزل المتداعي مما وفّر لي الكثير من العمل. كان هناك ثقوب كبيرة في خشب الأرضية، وكان الموقد وفرن الطبخ بحاجة إلى إصلاح، فقد كانا يدخنان وينفثان الروائح الكريهة علينا، ورفضت الأبواب أن تنغلق كما ينبغي، والدرج المؤدي إلى العلّية، التي كانت ذات يوم مسرحاً لإنزال أبي العقاب بي، كان يشكل خطراً على الحياة والأطراف. وقبل القيام بأي عمل، كان ينبغي شحذ الفأس، وسنّ المنشار، واقتراض مطرقة والعثور على مسامير. والقضية التالية كانت إنقاذ قطع من الخشب يمكن استخدامها مما تبقى من المخزون القديم. وأمدّني خالي كونراد بقدر من العون بإصلاح أدوات العمل وحجر الشحذ لكنه كان طاعناً في السن ولم يتمكن من أن يكون مصدر عون

كثير، وهذا يعني أنه كان عليّ أن أتسبب في تمزيق اصابعي الناعمة، البيضاء، على الخشب العنيد، وأن أعمل على دولاب حجر الشحذ المتداعي، وأن أرتقي السطح الراشح بعد جهد، وخلال هذه الإجراءات كلها فقدت بعضاً من وزني الذي كنت قد اكتسبته. أحياناً، خاصة وأنا منهمك بمهمة ترقيع السطح الشاقة، كنت أتوقف في وسط الطرق، وأجلس، وآخذ نفساً عميقاً من سيجاري الذي بقي نصفه، وأرنو إلى زرقة السماء العميقة، وأستمتع بكسلي ينتابني يقين بهيج بأنه لم يعد بمقدور والدي بعد الآن أن يحثني على الاستمرار في العمل أو أن يتصيّد أخطائي. وإذا ما مرَّ بي جيران من نساء وتلاميذ مدرسة، أغطي على كسلي بالانخراط في مقايضات ودية معهم، بحيث أنني اكتسبت بالتدريج سمعة رجل يمكن أن تستوقفه وتتسامر معه.

«الجو حار اليوم، يا ليسبت، أليس كذلك؟».

«نعم، حقاً، يا بيتر. ماذا تفعل؟».

«أرقّع السطح».

«حان الوقت لذلك، هذا ما يحتاجه منذ زمن بعيد!».

«صحيح».

«كيف حال العجوز؟ لا بد أنه قد بلغ السبعين من العمر الآن».

«إنه في الثمانين، يا ليسبت. ما أبشع التفكير في أننا سوف نصبح في الثمانين ذات يوم! فكرة مريعة، أليس كذلك؟».

«معك حق، ولكن يجب أن أسرع، سيكون زوجي جائعاً. الوداع الآن».

وبينما هي تتابع رحلتها مع الصحن المربوط بقطعة قماش، رحت أنفخ سحب الدخان في الهواء، وأنا أتابعها بعينيّ

وأتساءل كيف يحدث أن الجميع يباشرون أعمالهم في همة، ونشاط وأنا ما أزال أطرق المسامير في اللوح الخشبي نفسه منذ نحو يومين. على أي حال، انتهى إصلاح السطح أخيراً. وللمرة الأولى اهتم والدي بهذا كله، ولما كان من المستحيل أن أجرّه إلى السطح، كان لا بد لي من أن أنقل إليه سرداً مفصلاً عن كل لوح خشبي استبدلته، مما أتاح لي فرصة لا تُقاوم للمُفاخرة.

اعترفَ مسلِّماً: «هذا حسن، ما كنت لأصدق أنك ستنتهي منه هذا العام».

عندما أستعرضُ الرحلات التي قمتُ بها، والجهود التي بذلتها وأتفكر فيها أشعر بمزيج من السرور والغضب لأن المثل القائل "السمكة تنتمي إلى البحر والمزارعون إلى الأرض" انطبق عليّ. وأنه لا شيء يمكن أن يحوّل فرداً من آل كامينتزيند من قروي من نيميكون إلى مواطن مصقول ينتمي إلى مدينة عالمية. إنني أتعوَّد على هذا الوضع، وأنا سعيد أن بحثي الأخرقَ عن السعادة في العالم قد أعادني، رغماً عني، إلى ركني الأليف بين البحيرة والجبال حيث أنتمي، وحيث تقيم فضائلي ومساوئي، وخاصة هذه الأخيرة، الاعتيادية والتقليدية. وعندما كنت في العالم الخارجي نسيت مسقط رأسي وبتُّ على شفا أن أعتبر نفسي نباتاً رائعاً، نادراً. الآن مرة أخرى أرى أن روح نيميكون وحدها كانت تحوم حولي، عاجزة عن التطابق مع عادات العالم كله. ولكن هنا لا يخطر ببال أحد أن ينعتني بأي حال بالدخيل، وعندما أنظر إلى والدي العجوز أو خالي كونراد أشعر أني ابن وابن أخت عادي جداً. ورحلاتي القليلة والقصيرة في عالم الفكر وما يسمى عالم الثقافة يمكن مقارنتها بحكاية خالي

عن الإبحار، اللهم فيما عدا ريما أنها كانت تكلفني مالاً، وجهداً ووقتاً ثميناً، أكثر. والآن بعد أن شذَّبَ ابن خالي لحيتي وعدتُ من جديد إلى ارتداء البنطال الجلدي القصير والقميص، تحولتُ في المظهر أيضاً من جديد إلى أصلي وعندما سأطعن في السن سوف أحلّ محل والدي وأنال نصيبي المتواضع في حياة القرية. ولن يلاحظ أحد ذلك. السكان يعرفون فقط أني أمضيت بضع سنوات في الخارج، وأنا أحرص كل الحرص على أن لا أخبرهم عن حياتي التفهة التي عشتها، والمواقف الخرقاء التي وضعت نفسي فيها؛ ولولا ذلك لأصبحت سريعاً هدفاً لنكاتهم ولفتشوا لي لقباً ساخراً. وفي كل مرة أتحدث عن ألمانيا وإيطاليا أو فرنسا، أعتز بنفسي قليلاً وأحياناً أصل إلى حد الارتياب في صدقي حتى في أشد أجزاء حكاياتي واقعية.

إذن ما هي حصيلة كل تلك الأخطاء الغفيرة والسنوات المهدورة؟ المرأة التي أحببتها وما زلت، تربي طفلين جميلين في بازل. المرأة الأخرى، التي أحبتني، وجدت عزاءً واستمرت في تجارتها في الفاكهة، والبذور. ووالدي الذي سبّب عودتي إلى أرض الوطن، لا هو ميت ولا هو شُفي، وإنما يجلس قبالتي في سريره ذي الهيكل الحديدي، يحدق إلي ويحسدني على امتلاكي لمفاتيح القبو.

لكن هذه ليست الحكاية كلها. فبعيداً عن أمي وصديق عهد شبابي الغريق، لديّ آغي الشقراء وعزيزي المُعاق القميء بوبي في العالم الآخر. وقد رأيت منازل في القرية تصلّح ثانية وحوض النهر يُرَمَّم. ولوشئتُ، لأصبحت عضواً في مجلس الأبرشية. لكنه يضم للتوعدداً كبيراً من آل كامينتزيند، وقد فُتح أمامي مؤخراً أفق جديد. ونيديغر، الذي شربت مع والدي في

حانته ليترات كثيرة من نبيذ فلتلاين، أو فاليز أو فادو، بدأت تجارته تنحدر بسرعة ولم يعد يستمد أي متعة من عمله. قبل أيام كان يفصح لي عن متاعبه، أسوأها هو أنه إذا لم يجد أحد من سكان القرية المال اللازم، فسوف يأتي مصنع جعة غريب ويشتري المكان ويفسده، ولن يعود لدينا حانة أليفة. سوف يقيم نزيل غريب بيننا وسيفضل طبعاً أن يبيع البيرة على بيع النبيذ، وتحت إدارته سوف يتعرض قبو نبيذ نيديغر الجيد للغش والفساد. إنني لا أكف عن القلق منذ أن تبادرت هذه الفكرة إلى ذهني، ما زال لدي بعض المال أودعه في مصرف في بازل، ولا أعتقد أن نيديغر سيعتبرني خليفة غير جدير بالثقة. والعقبة الوحيدة في الأمر هي أنه لا يمكنني أبداً أن أكون صاحب حانة طالما أن والدي على قيد الحياة. لأنني ليس فقط سأكون عاجزاً عن منع العجوز من معاقرة الخمر، لكنه لن يكف عن النعيق بأني بعد كل دراساتي ولغتي اللاتينية انتهى بي الأمر إلى أن أصبح صاحب حانة في قرية نيميكون. لن تكون فكرة سديدة على الإطلاق، وهكذا بدأتُ تدريجياً أترقب رحيل العجوز عن هذه الحياة ليس بصبر نافد وإنما لأن السبب وجيه.

مؤخراً، وبعد سنين من الهمود، انخرط خالي كونراد في حمى من النشاط؛ لا يعجبني شكل الوضع. إنه يتجول وهو يلزم صمتاً مطبقاً وجبينه معقود من الاستغراق في التفكير، يتمشى في أرجاء الغرفة بخطى واسعة وسريعة وعندما يكون الطقس صافياً يحدق إلى الفضاء عبر صفحة المياه، وقد علّق العجوز سنتزينه: «أعتقد أنه يفكر في بناء القوارب من جديد»، وفي الواقع أنه حتماً يبدو أكثر حيوية وجرأة مما كان عليه منذ سنين عديدة. إنه يرسم على وجهه تعبيراً مترفعاً، عارفاً، وكأنه

يعلم بالضبط ماذا يريد هذه المرة. لكني أعتقد أنه لا ينوي حقاً أن يكون عملياً، إنه مجرد روح قلقة تتوق إلى الحصول على جناحين لتطير بهما إلى أرض الوطن. لا شك في أنه سيتوجب على خالي كونراد أن يتزود بأشرعة. وحين سيصل إلى خاتمته المحتومة سوف يمر سكان نيميكون بتجربة خارقة، ذلك لأني قررت أن ألقي، بعد أن ينتهي القس من مراسمه، بضع كلمات عند قبره. سوف تكون حدثاً فريداً في تلك الأنحاء. سوف أعمد إلى تأبين خالي كابن حبيب ومقدس لله، وسوف يتبع الخطاب المهذب نثار جميل من التنويهات الثاقبة لصالح المعزّين الذين لن يكونوا على عجلة من أمرهم لنسيانها أو غفرانها. وآمل في أن يظل والدي حياً حتى يشهد هذا الحدث.

ما زالت بداية مؤلفي الشعري العظيم قابعة في الدرج. ويمكنني أن أطلق عليه "كتاب حياتي"، إذا لم يكن ذلك مفرط الادعاء. لكني سأُحسِنُ فعلاً بالتكتم حوله، لأن المخلوق المسكين، يجب أن أعترف بهذا، ضعيف فيما يُعلَّق عليه من آمال وليس من المتوقع أن يذهب بعيداً أو أن يصل إلى نهايته. ربما سيأتي يوم أباشر العمل فيه من جديد، وأستمر فيه حتى النهاية. سوف يكون إنجاز طموحٍ شاب وبرهاناً على أني كاتب أولاً وأخيراً.

لن يقل أهمية بالنسبة إليّ، ولعله أهم، من مجلس الأبرشية، وإنشاء واجهة حجرية لضفة النهر. وفي كل الأحوال لن يكون مهماً كالأشياء الماضية وإنما ذا قيمة دائمة، سيتألف من ذكريات الناس كلهم التي أخصص مكاناً لها في قلبي، بدءاً بروزي الهيفاء وانتهاءً ببوبي المسكين.

من إصدارات الدار

موليير/ مسرح	ترجمة: يوسف الجهماني
على دروب الثقافة الديمقراطية	بوعلي ياسين
الشعر النبطي في حوران	علي المصري
قراصنة وأباطرة	نوعام تشومسكي
المعري والشيرازي	علي خلوف
حوران عبر التاريخ	د. خليل المقداد
كاليجولا/ مسرحية	ترجمة: يوسف الجهماني
حرية الآخر	جاد الكريم الجباعي
القرآن بين التفسير والتأويل	أنور خلوف
ما وراء الحجاب	فاطمة المرنيسي
خلفاء بلا خلافة	أ.أ. إغناتنكو
حزب الرفاه، أرياكان	يوسف الجهماني
حوارات في قضايا المرأة	
الحرية، التراث	نبيل فياض
الصراع السياسي في تركيا	ف.ي. دانيلوف
خبايا الانهيار	ف.إ. شيرونين
نرسيس وغولدموند/رواية	هرمان هسه
روسهالده/ رواية	هرمان هسه
غرترود/ رواية	هرمان هسه

ذئب السهوب/ رواية	هرمان هسه
تحت الدولاب/ رواية	هرمان هسه
تعاويذ/ رواية	عقبة زيدان
أيام الثلج الأحمر/ رواية	د. فواز الأزكي
الخيبة/ رواية	بولينا داشكوفا
ثغر حلم/ قصص	يوسف الجهماني
عشتار والمولودة/ قصص	فاديا سعد
أخلاقيات المعاشرة	كيريل نيشيف
أخلاقيات المعاشرة	غ.ب. بوتيليكو
اللؤلؤة	جون شتاينبك
تركيا وإسرائيل	يوسف الجهماني
تركيا وسوريا	يوسف الجهماني

صدر للمترجم الترجمات التالية:

1 - ربيع أسود (رواية)، هنري ميللر 1980.
2 - مدار الجدي (رواية)، هنري ميللر 1981.
3 - عملاق ماروسي (رواية)، هنري ميللر 1983.
4 - أهالي دبلن (مجموعة قصصية)، جيمس جويس 1983.
5 - واينسبرغ، أوهايو (مجموعة قصصية)، شروود أندرسن 1986.
6 - تشريح الدراما (بحث)، مارتن إسلن 1987.
7 - الإغواء الأخير للمسيح (رواية)، نيكوس كازانتزاكيس 1995.
8 - نرسيس وغولدموند (رواية)، هرمان هسه 1996.
9 - روسهالده (رواية)، هرمان هسه 1997.
10 - مدار السرطان (رواية)، هنري ميللر 1997.
11 - ذئب السهوب (رواية)، هرمان هسه 1997.
12 - غرترود (رواية)، هرمان هسه 1998.
13 - تحت الدولاب (رواية)، هرمان هسه 1998.

قال له أستاذ الرياضيات: «أنت عبقري في الكسل، وأسفي الوحيد هو أنه لا توجد علامة أقل من الصفر. أنت تلميذٌ سيء، لكنك ستصبح مؤرخاً جيداً، وتعرف التفريق بين الأشياء العظيمة والتافهة».

من الأشياء العظيمة التي اكتشفها بيتر هو الخمرة... فبعد محاولة حب فاشلة، أضحى إله الخمر الجميل، القوي، صديقه الصدوق. ولا زال حتى يومنا هذا. بمن يمكن مقارنته؟ مَنْ أشد منه وسامة، وأكثر نزوات، ووفرةً، ومرحاً وكآبةً؟.

إنه معاً بطلٌ وساحر، مغو وشقيق لإيروس، إله الحب عند الإغريق. في استطاعته أن يحقق المستحيل، ويملأ القلوب الإنسانية المسكينة بشِعر جميل، رائع. لقد حوله من ناسك وقروي، إلى ملك وشاعر وحكيم. إنه يملأ شرايين الحياة الفارغة بأقدار جديدة ويعيد المنعزلين إلى التيار العام النابض.

هرمان هسه

بيتر كامينتزند

رواية

ترجمة: أسامة منزلجي





دار حوران للطباعة و النشر و التوزيع

سوريا - دمشق ص.ب 32105

6713079